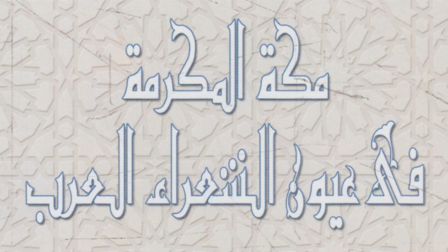




مكة المكرمة في عيون الشعراء العرب

إعداد

الدكتور عبدالرزاق حسين

أستاذ الأدب العربي

بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن



Makkah Capital of Islamic Culture 2005

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الاسلامية لعام ١٤٢٦هـ



مكة المكرمة
في عيون الشعراء العرب

الدكتور عبد الرزاق حسين

أستاذ الأدب العربي

بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن

الكويت

1426هـ

2005م

يصدر هذا الكتاب إسهامًا من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية للعام 1426هـ.

أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحثان

بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

عبدالعزيز محمد جمعة

محمود إبراهيم البجالي

الصف والإخراج والتنفيذ

محمد العلي

أحمد متولي   أحمد جاسم

بثينة الدوماني

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

ردمك: 9 - 22 - 72- 99906 : ISBN

رقم الإيداع : Depository Number: 2005 / 00134



مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

هاتف: 2430514 فاكس: 2455039 (00965)

E-mail < Kuwait@albabtainpoeticprize.org >

الكويت

1426هـ

2005م

تصديـــــر...

هل يوجد مكانٌ أقدس من مكة في نفوس المسلمين؟ حيث القِبلةُ والمسجد الحرام والبلد المبارك: «إنَّ أولَ بيتٍ وُضع للناسِ للذي ببكةَ مباركًا وهدًى للعالمين» صدق الله العظيم، سورة آل عمران، الآية ٩٦.

إليها تُشد الرحال من كلِّ حدْبٍ وصوب، وليست الإبلُ النواجي هي من يحنُّ إليها فقط ، بل إنّ قلوب الشعراء ظلت ولا تزال تعتمل بحبها وتهيم حنينًا واشتياقًا إليها، فهي في عيونهم دائمًا شلاّل نورٍ متدفق يفيض في حنايا أرواحهم سحائبَ أمنٍ وأمانٍ وإيمان.

وهذه الدراسة التي بين أيدينا: «مكة في عيون الشعراء» للأستاذ الدكتور عبدالرزاق حسين، تستقصي حضورَ مكة في الشعر العربي عبرَ مختلف العصور، من خلال مواكب الشعراء الذينَ أدمنوا السُّرَى لاهجين بذكرها في تلك الشعاب والوديان، قاطنين أو ظاعنينَ يُبرِّحهم ألم الجوَى والبعاد.

إنها درة العواصم الإسلامية، وتاج الفخار الذي ما زال يتلألأ فوق هامة الأيام، منذ دعوة إبراهيم وتضحية إسماعيل عليهما السلام، وهي مهد الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، ومهبط الوحي ومهوى أفئدة المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد بدأت أولى إيقاعات الشعر العربي، مع حوافر الخيل في مكة وكانت قريش تحتفي بالشعراء، وتُنزلهم منازلهم، فالشاعر هو بمثابة وزير الإعلام والثقافة حينها، وكانوا يرون أنَّ شياطين الجن في وادي عبقر توحي إليه هذا الكلام العجيب، فلم يكن من المدهش أن يقفوا حيارَى أمام الظاهرة القرآنية وإعجازها البياني، وهم لا يعرفون إلاَّ لغة الشعر أولاً وأخيرًا.

إنَّها مكة بخيلها ورجْلها، وشبَّابةِ قصيدها الصادح في أذن الزمان، تتجلى لنا بين دفتي هذا الكتاب الذي أرادت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، من وراء نشره المساهمة في احتفالات «مكة عاصمة للثقافة الإسلامية» بأسلوبٍ يليق

بمكانتها في عيون الشعراء، من المهلهل وامرئ القيس مرورًا بكعب بن مالك والبُرعي وشوقي، وكلٍّ من حجَّ واعتمر، أو هزَّه الشوق واعتراه الحنين إلى أم القرى ومهد الحرم.

فتحيةٌ إلى الدكتور عبدالرزاق حسين، على ما بذله من جهود طيبة في هذه الدراسة، وما احتوته من نصوص شعرية هامة، نقب عنها طويلاً في بطون الكتب والدواوين والمخطوطات، والشكر مني موصول إلى الإخوة الأعزاء في الأمانة العامة للمؤسسة بالكويت، وأخص هنا الباحثين الأستاذين عبدالعزيز محمد جمعة ومحمود البجالي، اللذين توليا قراءة ومراجعة هذا الكتاب بدقة واهتمام.

ويسعدني في نهاية هذه الكلمة أن أردد مع ابن الوكيل أحمد بن موسى المكي، هذه الشكوى الغرامية لمكة والحطيم وزمزم:

الله يعلم انني بكِ مُغرَمُ
والقلب مني في هواكِ مُتيَّمُ
فإلى متى هذا الصدودُ وذا الجفا
وإلى متى أُخفي الغرامَ وأكْتُم
ما البحرُ إلاَّ من تَدَفُّقِ ادمعي
والنار إلا من فؤادي تُضرمُ
كم ليلةٍ قد بتُّ فيها غائبًا
واللهُ بالشوق المبرِّح اعلم

مكة يا مشكاة النبوة، يا ألق الشعر، يا رحلةَ الشتاء والصيف.

تحياتي وسلامي إليكِ يا أمَّ القرَى. وإلى اللقاء،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت 27 محرم 1426هـ

الموافق 8 مارس 2005م

****

أمّ القرى

إلى عينيكِ يحمِلُني حنيني
واشواقي بحارٌ تَحْتَويني

يفيءُ العاشِقون إلى هواهمْ
لليلى او لسلمى او مُزونِ

فإنْ داروا بِبَثْنَةَ او اطافوا
وعَزّةُ همُّهُمْ في كلِّ حين

فقلبي لا يرومُ سِواك وَصْلاً
ولا يبغي سوى الوجهِ الحنون

فلا انفكُّ في طوفي وسعيي
ودارُكِ وُجهتي ومُنَى عيوني

دعوتُ اللهَ في سرّي وجَهْري
بان القاك يا نبعَ الحنين

فبُشّرتُ المُنى بلقاكِ بُشْرَى
كطَعمِ الشّهدِ او بَرْدِ اليقين

فشمّرتُ السّواعدَ لو عَدَتْني
عوادي الدهرِ والزّمَنِ الخَؤون

ركبتُ الشّوق يحدو بي ويجري
كجَري الماءِ في الغصنِ اللّدين

كانّ القلبَ ليلةَ قيلَ امضي
إلى احضانِ فاتنة الجُفُون

(قطاةٌ عــزّها شَــركٌ فــبـــاتتْ)
تجـــاذبُهُ شَـــمـــالاً معْ يمينِ
ولــمَّـــا انْ تيـــقّنَ لـي رؤاها
ورحتُ اهشُّ للوجـــهِ المُـــبين
اطلّتْ من عُليّــاها بوجْـــهٍ
تبــاركَ خــالقُ الوجـهِ المَـصُـون
فــشــعْـــشعَ من سناها مــا تناهى
ونوّرَ وجـــهُـــهــا ظُلَمَ الدُّجُـون
واســـبَلتِ السُّـــتـــورَ ولاحظتني
فطار صــــوابُ ذي القلبِ المَكين
وكــانـت نظرةٌ اصْــمَتْ فـــؤادي
وانْبَـــتتِ الغـــرامَ على جُـــفُـوني
ومن مَــرَحي غــدوتُ ابثُّ شــوقي
لأزهــارِ الرُّبى والـزّيْـزفُـــون
وصــار الطيــرُ يحـــسـدُني لأنّي
أنافـــسُـــهُ على عــذبِ اللّحـون
وراقَـصنْتُ الفــراشَ وراقــصـتْني
ازاهرُ من حــقــول اليــاسَــمِين
وبتُّ كــأنّني فـــوقَ الثُّـــريا
وحـــولي مــــثلُ ولْدانٍ وعِين
وتحـــملني النُّجــومُ على اكُفٍّ
من البِلّورِ او قُــضُبِ اللُّجَـيْن
وحـــورٌ رافــلاتٌ في دِمَـــقْسٍ
وانتِ - ولا كـــانتِ - فــانت ديني
جــعلتُك قِــبْلتي فــإليك وجــهي
يعـــانقُ فــيكِ امـــالَ السِّنين

ومن شفتيك زمزمُ لي عيونٌ

تفيضُ عليَّ بالماء المَعِينِ

ومن عينيك انهلُ ماءَ وَجْدي

وعذبُ لماك كالمُزْنِ الهَتُونِ

وشامَتُكِ التي يهوى فؤادي

وسامُ الحبِّ بل تاجُ الجبينِ

وحِجْرُكِ موئلي والرُكنُ منّي

ضلوعي والمقامُ ضيا عيوني

اسيرُ هواك قيدي مُقْلَتَاكِ

وعندَ حَطِيمِكِ استلقى حنيني

أمِنْتُ حوادثَ الأيام لمَّا

ربطتُ ركائبي بعُرى الحَجُون

عبدالرزاق حسين

****

المقدمة

تتناول هذه الدراسة الأدبية أطهر بقعة، وأشرف مكان، كيف لا؟ وفيها أول بيت وضع للناس، ومنها خرج المصطفى خيرة خلق الله عليه أفضل الصلاة والسلام، ومن ربوعها أشرق نور الإسلام، وفوق بقاعها نزلت آيات الله، وإليها يتوجه المسلمون أينما كانوا، وحيثما حلّوا، فلا تكاد تمر لحظة مهما تجزّأت ودقّتْ إلاّ والعيون إليها طامحة، والوجوه إليها ناظرة، والرقاب إليها مشرئبة، والنفوس إليها ظامئة، والقلوب إليها والهة.

ولهذه المكانة والقداسة والعظمة والأهمية فقد لاقت مكة إقبالاً منقطع النظير عند المؤلفين، وحظيت باهتمامٍ كبير عند العديد من المصنفين، والناظر في (معجم ما أُلِّف عن مكة) للدكتور عبدالعزيز السنيدي يلحظ هذا الاهتمام العظيم في كل هذه المصنفات المتنوعة التي لا تترك شاردة أو واردة عن مكة إلاّ وألّف فيها من الكتب والرسائل ما يؤكد على مكانة هذه المدينة الغالية على قلب كل مسلم.

ومع كل هذا الاهتمام والتصنيف في شتى المجالات، فإنني ومن خلال استعراضي لهذا المعجم وغيره من فهارس المطبوعات، لم أجد مؤلفًا يتحدث عن مكة في الشعر في عصر واحد عدا عن العصور الأدبية من العصر الجاهلي وحتى العصر الحاضر.

والأغرب من ذلك أنّ الدراسات التي قامت على أسس دينية، واتجاهات إسلامية، أو لعصور وبيئات الأدب لم تلتفت إلى مكة في الشعر، وإنما انصبت عنايتها للحديث عن الشعر في مكة كوعاء أو بيئة، مثل: الشعر في مكة في الجاهلية والإسلام جمع وتحقيق عبدالرحمن إبراهيم الدباس، والحياة الأدبية في مكة لزكي عابدين، أو الشعر الحجازي، وغير ذلك من الكتب الأدبية التي خُصصت للحديث عن شعر هذه البلدة المقدسة.

ومن هنا كان توجه مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين لتأليف كتاب ينصب على مكة بذاتها احتفالاً بمكة المكرمة عاصمةً للثقافة الإسلامية، للعام ١٤٢٦هـ، ولمّا عهدت

المؤسسة إليَّ للقيام بهذا العمل الذي أتشرف به، لم آل جهدًا على الرغم من كثرة المشاغل وازدحام العمل في أن أخرج كتابًا يليق بمكانة هذه المدينة الخالدة، ويليق بهذه المناسبة الجليلة، ويكون لي ذخرًا وشرفًا.

ولما كان العنوان (مكة في عيون الشعراء العرب) عنوانًا مفتوحًا، لا يحده زمانٌ أو مكان، وإنما يتسع ليعبر الزمان من العصر الجاهلي حتى وقتنا الحاضر، ويفسح المدى لينتشر فوق الأرض العربية بل والإسلامية في العصور السالفة، فإنَّ المهمة صعبة، والسيطرة على الموضوع تحتاج إلى تفرغ وتواصل، لذلك فقد وضعت كل جهدي في جمع المادة، ولما انتهيت من ذلك، وجدت أن ما جمعته يصلح لعمل عدة أجزاء لهذا الكتاب، والمهمة محددة، والوقت كذلك، وشرط الكتاب أن يكون في حدود المعقول، ومن هنا فقد استبعدت نصوصًا كثيرة تثير موضوعاتٍ جمة، كما استبعدت شواهد لا حصر لها، خوفًا من تضخم البحث، ولذلك أرجو المعذرة من إخواني الشعراء المعاصرين الذين أكن لهم كل التقدير، ولشعرهم وافر الإعجاب، إذا كنت لم أستطع إدراج شواهد من أشعارهم في هذا المؤلف، وأعدهم أنني إذا فكرت في جمع المادة الشعرية عن مكة أن أُعوِّض ما فات، وأستدرك ما لم أستطعه.

كما أن العبور إلى شتى العصور والبيئات فرض عليَّ طريقةً في البحث قد يعترض عليها البعض، فقد قمت بالعرض السريع لعصور الأدب، ولم أحصر كلَّ عصر قسريًا لمَّا وجدت الموضوعات والأغراض تتنامى وتتناسل، وتنمو وتتطور، والموضوع الواحد يمتد ويستمر في الماضي متدرجًا في عبوره كل القرون السابقة، حتى يصل إلى عصرنا الحاضر وهو لا يزال طازجًا، فكيف يتأتى لي أن أبتره عن سياقه، أو أحرمه من تواصله، ومن هنا كانت رؤيتي إلى أن أعالج موضوعات وأغراض البحث ضمن حلقة واحدة، مبينًا مكان الشواهد من العصور دون فصل، وهذا التتابع أعطى للموضوعات شيئًا من الرؤية الكلية الموحدة.

وقد سرت في هذا الموضوع لا كما شئت، بل كما فرضه عليَّ الموضوع نفسه، فبعد المقدمة، وجدت أن توطئة للحديث عن مكة المكرمة في: أسمائها، وموقعها، وفضلها،

وحرمتها، والتأليف فيها ضرورة لا بدَّ منها يفرضها الدخول إلى بوابة البحث، حيث سار البحث بعد المقدمة والتوطئة في خمسة أقسام كالآتي:

القسم الأول: مكة في عصور الشعر

أولا: مكة في الشعر القديم، ويتضمن العصور التالية: الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي.

ثانيًا: مكة في شعر العصر الوسيط، وفيه عصر الدول المتتابعة والعصر العثماني.

ثالثًا: مكة في الشعر الحديث والمعاصر

القسم الثاني: من أغراض وموضوعات الشعر في مكة

- الفخر

- المديح

- الوصف (وصف الأماكن والبقاع، ووصف مشاهد الحج)

- الحنين والشوق

القسم الثالث: أحداث مكة

القسم الرابع: خصائص وسمات

القسم الخامس: من شعراء العشق المكي

- الشريف الرضي

- الزمخشري

- ابن جبير

- الصرصري

- البرعي

- ابن معصوم

وانهيتُ بخاتمة أوردت فيها بعض ما أراه من إضافات قدمها هذا البحث لكل تلك المؤلفات عن هذه المدينة المكرمة، وما بعثه من تصور عن هذه المدينة الحبيبة، إلى جانب فهرسين للمصادر والمراجع، وللموضوعات.

وأخيرًا، فإنني أقدم هذا العمل حبًا لله ولرسوله، ولأول بيتٍ وضع للناس، هدية من عبد مقصر، بجهد مقل، ليكون مشاركة مني في تعظيم هذه المدينة في عامها الثقافي، وإعلانها عاصمة للثقافة الإسلامية.

وختامًا أتوجه بالشكر الجزيل لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري التي شرفتني باختيارها لي لتأليف هذا الكتاب، جزاها الله خير الجزاء عن هذا العمل الذي نرجو أن يكون في ميزان عملنا وعملها.

وأسأله تعالى أن يمدنا بعون من عنده إنه هو السميع المجيب.

عبدالرزاق حسين

١٤٢٥/٢هـ / ٢٠٠٤/٣م

****

توطئة

سنعرض في هذه التوطئة للحديث عن مكة في (أسمائها، وموقعها، وفضلها وحرمتها والتأليف فيها...)

● المشهور من أسماء مكة المكرمة

ورد في القرآن الكريم من أسماء مكة: مكة، وبكة، والبلد، والبلد الأمين والقرية، وأم القرى. فأما اسم مكة، ففي قوله تعالى: ﴿وهو الذي كفَّ أيديَهُم عنكم وأيديَكُم عنهم ببطن مكة[1]﴾ قال الزجاج: مكة لا تنصرف، لأنها مؤنثة وهي معرفة، ويصلح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق بكة، لأن الميم تبدل من الباء،... ويصلح أن يكون اشتقاقها من قولهم: امتكَّ الفصيل ما في ضرع الناقة، إذا مصَّ مصاً شديدًا حتى لا يُبقي فيه شيئًا، وسمّيت بذلك لشدة ازدحام الناس فيها[2] .

وقال ابن فارس: تمككتُ العظم إذا أخرجت مخه، والتمكك: الاستقصاء[3]

وجاء في الحديث الشريف: «لا تمكّكوا على غرمائكم»[4].

وفي تسميتها مكة أقوال عدة: نذكر منها:

أنها مثابة للناس، أو لأنها تمكّ الظالم وترد نخوته أي تهلكه، كما قيل:

---

(١) سورة الفتح آية ٢٤

(٢) انظر في ذلك كتاب المناسك لأبي إسحاق الحربي ٤٧٣، والروض المعطار للحميري ٩٣، ومادة مكة في معجم البلدان ١٨١ م ٥ ، وما ورد في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٤ / ١٨٨، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ١ / ٣٣ وكثير من كتب اللغة والتاريخ.

(٣) مثير العزم الساكن ٣٢٤

(٤) النهاية في غريب الحديث ٤ / ٣٤٩

يا مكّةُ الفاجِرَ مُكّي مكّاً
ولا تَمُكي مَذْحِجًا وعَكّا

أو لشدة جهد أهلها، أو لقلة مائها. وقد اتفق العلماء أن مكة اسم لجميع البلدة.

وسميت بكة، وورد ذلك في قول الله تعالى: ﴿إنَّ أوّلَ بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدىً للعالمين﴾(١) وأخذ ذلك من قولهم: بكَّ الناس بعضهم بعضًا، أي دفع، وسميت بذلك للازدحام، ولأنها تبك أعناق الجبابرة، وتضع من نخوتهم.

قال الراجز:

إذا الشريبُ اخذتهُ اكّة
فخَلّهِ حتى يَبُكَّ بَكّة(٢)

وقيل: تبدل الميم من الباء، وقيل: بكة موضع البيت، ومكة ما حواليه.. والذي عليه أهل اللغة أن بكة ومكة شيء واحد.

والبلد: في قول الله تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾(٣) أي مكة.

والبلد الأمين: لقوله تعالى: ﴿وهذا البلد الأمين﴾(٤)

والقرية ففي قول الله تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قريةً كانت آمنة مطمئنة﴾(٥)

وفي تسميتها بأم القرى: ففي قول الله تعالى: ﴿ولتنذر امَّ القرى﴾(٦) يعني مكة، وفي تسميتها بذلك عدة أقوال: لأنها قبلة، ولأنها أعظم القرى شأنًا، ولأن الأرض دحيت من تحتها، ولأن فيها بيت الله.

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٦
(٢) كتاب المناسك ٤٣٧ وانظر الروض المعطار ٩٣
(٣) سورة البلد آية ١
(٤) سورة التين آية ٢
(٥) سورة النحل آية ١١٢
(٦) سورة الأنعام آية٩٢

وأورد لها المؤرخون غير هذه الأسماء من نحو اثني عشر اسمًا[١] ، وكثرة الأسماء كما يقولون دليل على شرف المسمى، من ذلك:

البيت العتيق، وورد في قوله تعالى: ﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق﴾[٢].

والبيت الحرام: وورد في قوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس﴾[٣].

وقد ورد في أسماء مكة (النسّاسة، وأم رحم، ومعاد، والحاطمة، والرأس، والحرم، وصلاح، والعرش، والقادس، والمقدسة، والنّاسة، والباسّة، وكَوْثى).

ويرد اسم مكة في المصادر اليونانية والرومانية القديمة، فياقوت الحموي ذكر أن بطليموس الإسكندري ذكرها باسم (ماكورابا) وعلّل المؤرخون هذه التسمية إلى أنها (كلمة يونانية مكونة من: مك ورب، ومك بمعنى: بيت، فتكون مكرب بمعنى: بيت الرب، أو بيت الإله، ومن هذه الكلمة أخذت مكة أو بكة، بقلب الميم باءً على عادة العرب[٤].

ويرى بروكلمان أنها مأخوذة من كلمة (مقرب) العربية الجنوبية ومعناها الهيكل، وعلى العموم، فإن هذه الأسماء تعبر في مجملها عن قداسة هذه المدينة العظيمة، وفضائلها، ومكانتها التي لا تقارن.

● مكانة مكة المكرمة

إنّ اصطفاء الله عزَّ وجل مكة مكانًا لأول بيت لعبادته تعالى، وقبلةً مرضيةً لجميع المسلمين، ومهدًا لنبيِّه، وأرضًا لرسالته، وأنزل فيها محكم كتابه، وجعلها حرمًا آمنًا، لكل

---

(١) انظر في أسماء مكة سيرة ابن هشام ١ / ١٢٥ - ١٢٦ والروض الأنف ١/ ٨١ - ٨٢ وتاريخ مكة للأزرقي ١ / ٢٨٣ ومثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ١٣٠ ، وانظر ايضاً بعض البحوث، مثل: أسماء مكة في القرآن الكريم وكتب السيرة والأدب والتاريخ والآثار، بحث لإسماعيل أحمد حافظ، مجلة الدارة ١٣٩٩هـ، ص ١٣٩ - ١٥٩، وبحث في رحاب البيت العتيق من أسماء مكة، لفيصل محمد عراقي، مجلة المنهل م ٥٥، عدد ٥٠٩، سنة ١٤١٤هـ، ص ٥٤ - ٥٦

(٢) سورة الحج آية ٢٩

(٣) سورة المائدة آية ٩٧

(٤) انظر معجم البلدان ١٨ / ١٨٧ ومكة والمدينة في الجاهلية والإسلام للدكتور أحمد إبراهيم الشريف ٨٩

ذلك كانت مكة والحديث عن مكة شغل الناس الشاغل دومًا، فهي الأرض التي اختارها وفضّلها على غيرها، وهي الأرض التي دعا لها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فجاء على لسانه: ﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثمّ أضطرُه إلى عذاب النار وبئس المصير﴾[1] قال القرطبي ﴿بلدًا آمنًا﴾ يعني مكة، فدعا لذريته، وغيرهم بالأمن ورغد العيش[2]، وهي مهبط الوحي، ومكان الدعوة، ومقام إبراهيم وإسماعيل ومن قبل إدريس وآدم[3] وفي ذلك يقول الخوارزمي: (اعلم أنَّ البيت الحرام بل الحرم كله محل عظيم القدر، ومكان جليل الخطر والفخر، بل هو أفضل بقاع الأرض وما عداه المفضول، ويدل على ذلك المعقول والمنقول)[4] فالمعقول في رأيه أنه مبتدأ الأرض، وأما المنقول فما ثبت بنص القرآن الكريم من تفضيله.

وقد ورد في شرفها أنها كانت لقاحًا لا تدين لدين الملوك، ولم يؤدِّ أهلها إتاوة، ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان، تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم، فيدينون للحُمْسِ من قريش، ويرون تعظيمهم.. وكان أهله آمنين، يغزون الناس ولا يُغْزون، ويَسبون ولا يُسْبون، وقد ذكر عزهم وفضلهم الشعراء، فقال بعضهم:

أَبَوا دينَ المُلوكِ فَهُم لَقَاحٌ

إذا هِيجُوا إلى حَربٍ أجَابوا

وقال الزبرقان بن بدر لرجل من بني عوف كان قد هجا أبا جهل، وتناول قريشًا:

أتدري من هَجَوتَ أبا حَبيبٍ

سليلَ خضارمٍ سكنوا البِطَاحَا

أَزادَ الركبِ تذكُرُ أم هشامًا

وبيتَ اللهِ والبلدَ اللقاحا[5]

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١ / ١١٧

(٣) أم القرى لفؤاد علي رضا ٧-٨

(٤) إثارة الترغيب والتشويق إلى تاريخ المساجد الثلاثة ٢٩

(٥) مكة في عصر ما قبل الإسلام ٦٢

وفي الثناء عليها، ووصفها بالأمن والعزة، قال حرب بن أمية يدعو حضرميّاً يدعى أبا مطر:

أبا مطرٍ هلمَّ إلى الصلاح
فيكفيكَ الندامى من قريشِ
وتنزلُ بلدةً عزّتْ قديمًا
وتأمنُ أن يزوركَ ربُّ جيشِ
فتأمنُ وسطهم وتعيشُ فيهمْ
أبا مطرٍ هُديتَ بخيرِ عيشِ

ومكة مدينة قديمة من إقليم الحجاز في جزيرة العرب، ترتفع عن سطح البحر ٣٣٠ مترًا، (وتقع في واد على شكل سهل منبسط محاط بجبال ذات شعاب)[١].

ويقال: إنّ بداية عمارتها بدأت مع عهد سيدنا إبراهيم الخليل عندما ترك ابنه إسماعيل وزوجه هاجر في ذلك المكان غير المأنوس[٢].

﴿ربّنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون[٣]﴾.

ويقدّر المؤرخون أنّ هذا الأمر تمّ في حدود القرن الثاني قبل الميلاد، دون أدلة واضحة. وفي مكة المسجد الحرام أول بيت وضع للناس، وفيه الكعبة التي ورد في عمرانها أنّ أوّل من بناها الملائكة، ثمّ آدم عليه السلام، ثمّ شيث، ثمّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثمّ العمالقة، ثمّ جرهم، ثمّ قصي بن كلاب، ثمّ قريش، ثمّ عبدالله بن الزبير، ثمّ الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو البناء القائم الآن.

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٣٩٢/١

(٢) انظر في بناء سيدنا إبراهيم عليه السلام الكعبة الكتب التاريخية التي تحدثت عن مكة

(٣) سورة إبراهيم آية ٣٧

ومما ورد في فضائل مكة وخصائصها وخصوصيتها أنّ الله اختارها لتكون البلد الحرام ومنسكًا لعباده المؤمنين، وقبلةً لهم، يأتيها القريب والبعيد فرضًا لازمًا، وركنًا ثابتًا، قال تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾[1] وإذا كان الحج لله على الناس فرضًا مفروضًا، فقد أمر نبيه إبراهيم بأن يعلن ذلك إعلانًا عامًا شاملاً يشمل الناس من لدنه، وإلى قيام الساعة ، ويؤذن في الناس ﴿وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجّ عميق﴾[2] ويفرض الأمر الإلهي بالتوجّه شطرها ﴿فولّوا وجوهكم شطره﴾[3] وبما أنها قبلة المسلمين، ومكان حجهم، فقد كان شدّ الرحال إليها أمرًا مندوبًا، فعن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تشدُّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: إلى المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)،[4] والصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في غيره، لما ورد عن ابن عمر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلاّ المسجد الحرام)[5] وثبت أن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مئة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، ومسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة)[6] وهذا البلد جعله الله حرمًا آمنًا يوم خلق السموات والأرض، لا يسفك فيه دم، ولا يعضد شجره، ولا ينفّر صيده، ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته، (ومن دخله كان آمنًا)[7] وحرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فقال: (إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله، وإنّه لم يحلّ القتال فيه لأحدٍ من قبلي، ولم يحل لي إلاّ ساعة من نهار، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعْضَدُ شوكه، ولا يُنفَّرُ صيده، ولا يُختلى خلاه، فقال العباس: يا رسول الله إلاّ الإذخر فإنّه لقينهم ولبيوتهم، قال: إلاّ الإذخر).[8]

---

(١) سورة آل عمران آية ٣

(٢) سورة الحج آية ٢٧

(٣) سورة البقرة آية ١٥٠

(٤) صحيح مسلم، كتاب الحج (١٣٩٧)

(٥) صحيح البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة ح (١١٩٠) وصحيح مسلم: كتاب الحج (١٣٤٩)

(٦) الهيثمي في مجمع الزوائد ٤ / ٧ والنذري في الترغيب والترهيب ٢ / ٢١٦

(٧) سورة آل عمران آية ٩٧

(٨) صحيح مسلم باب الحج ١٣٥٣

وقد أقسم الله عزّ وجل به، فقال عز من قائل ﴿وهذا البلد الأمين﴾[1] و ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾[2] ودعوة أبينا إبراهيم عليه السلام ﴿رب اجعل هذا البلد آمنًا، واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام﴾[3] وأمر الله تعالى له: ﴿قل إنما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأُمرتُ أن أكون من المسلمين﴾[4] يقول محمد بن إسحق الخوارزمي: (يعني مكة، وإنما خصها من بين سائر البلاد بالذكر لأنها مضافة إليه، وأحب البلاد إليه، وأكرمها عليه، وأشار إليها إشارة تعظيم لها لأنها موطن نبيه، وموضع وحيه)[5] والاعتقاد بتحريم مكة كان راسخًا في الشعر الجاهلي، فهذه سبيعة بنت الأحب توصي ابنها بذلك، وتعظم عليه حرمة مكة، وتنهاه عن البغي فيها، وتذكره بما حدث لمن أراد الظلم والإلحاد فيها، تقول:

أبنيّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبيرْ
واحفظْ محارمها بنيّ ولا يغرّنْكَ الغرورْ
أَبُنيّ من يظلم بمكة يلقَ أطراف الشرورْ

وتكمل حديثها قائلة:

ابُنيّ يُضْرب وجهُهُ
ويلُحْ بخديْهِ السَّعيرْ
ابنيّ قد جرّبتُها
فوجدتُ ظالمَها يَبُورْ
اللهُ أمَّنَها وما
بُنيتْ بعرصتِها قصورْ
واللهُ أمَّن طيرَهَا
والعُصْمُ تامن في ثَبِيرْ

---

(١) سورة التين آية ٣

(٢) سورة البلد آية ١

(٣) سورة البقرة آية ١٢٦

(٤) سورة النمل آية ٩١

(٥) إثارة الترغيب والتشويق إلى تاريخ المساجد الثلاثة ٥٠ .

ولقـد غـزاها تُبَّعٌ

فكسا بَنِيَّتها الحَبيرْ

وأذلَّ ربي مُلْكَهُ

فيها فأوفى بالنذور

يمشي إليها حافيًا

بفنائها ألفا بَعِير

ويَظَلُّ يُطْعِمُ أهلها

لحمَ المَهَاري والجَزور

يسقيهمُ العسلَ المُصَفَّ

ى والرَّحيضَ من الشعير

والفيل أهلكَ جيشَهُ

يرمون فيها بالصخور

والملكُ في أقصى البلا

دِ وفي الأعاجمِ والخَزير

فاسمع إذا حُدِّثْتَ واف

هم كيف عاقبةُ الأمور[1]

ومن قصده كان مكفرًا للذنوب، حاطًا للخطايا والأوزار، كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه[2]) .

وإذا كانت مكة أحبَّ بلاد الله إلى الله عز وجل، فهي أحبها إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي يوم خروجه منها، وهجرته، قال: (والله إنكِ لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إليَّ، ولولا أنّي أُخرجتُ منك ما خرجت)[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢٥. يبور: يهلك. والعصم: الوعول لأنها تعتصم بالجبال. بنيتها: يعني مكة. والحبير: نوع من الثياب. المهاري: الإبل النجيبة، منسوبة إلى بلاد المهرة في حضرموت. الرحيض: المنقى . الخزير: أمة من الأعاجم يقال لها الخزر.

(٢) صحيح مسلم باب (الحج) ٤٣٨

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ١ / ٤٨٦

وقد وردت أحاديث عديدة في فضل مكة ومكانتها وخصوصيتها، وقد أجمع العلماء على أنّ مكة أفضل بقاع الأرض تليها المدينة المنورة، فبيت المقدس.

وفي ذلك ننقل ما ورد من (أنّ مكة والمدينة زادهما الله شرفًا وتعظيمًا أفضل بقاع الأرض بالإجماع)[1]. ثم اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في أنّ مكة شرفها الله تعالى أفضل، أم المدينة الشريفة عظمها الله تعالى؟ فذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة وأصحابه، والإمام أحمد وأصحابه، والإمام الشافعي وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين أنّ مكة أفضل من المدينة زادها الله شرفًا وتعظيمًا، لحديث عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلاّ المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة في مسجدي)، رواه أحمد وابن حبان في صحيحه، ولا يرتاب في الفضائل التي أثبتها الله تعالى لبلده الحرام، ولقد قال القائل:

أرضٌ بها البيتُ المُحَرَّمُ قِبْلةٌ
للعالمين له المساجد تعدلُ

وبها المشاعرُ والمناسكُ كلُّها
وإلى فضيلتها البريةُ ترحلُ

والمسجدُ العالي المحرّمُ والصَّفا
والمشعران لمن يطوفُ ويرملُ

حرمٌ حرامٌ أرضُها وصيودُها
والصَّيدُ في كلّ البلاد مُحلَّلُ

وبها المقامُ وحوضُ زمزمَ مشرعًا
والحِجْرُ والركنُ الذي لا يرحلُ

وبمكةَ الحسناتُ ضُوعِفَ أجرُها
وبها المُسي عنهُ الخطايا تُغسلُ

وفي فضلها وشرفها، وعلو مكانتها، وأن لا شبيه لها بين الأمكنة يقول ابن دقيق العيد:

---

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ١٣

وإذا رأيتَ مَهابطَ الوحي التي
نشرتْ على الآفاقِ نورًا نورًا
فاعلم بأنّكَ ما رأيتَ شبيهها
مُذْ كنتَ في ماضي الزمانِ ولا ترى
شرفًا لأمكنةٍ تنزّلَ بينها
جبريلُ عن ربِّ السَّماءِ مُخَبِّرا
فتأثّرتْ عنهُ بأحسن بهجةٍ
أفدي الجمالَ مُؤثِّرًا ومُؤثَّرا[1]

وكل ما ورد يبين عن فضلها، وأنّ فضائلها كما قيل: (لا تعدُّ ولا تحصى، ولو لم يكن فيها غير أنها مهبط الوحي، ومسقط رأس خير الأنام، ومنْزل القرآن، ومظهر الإيمان والإسلام، ومنشأ الخلفاء الراشدين الكرام... وملاذ العابدين، وملجأ الصالحين، ومقصد الطالبين، وقرة عين المشتاقين.. لكفى ذلك شرفًا وفضلاً وعزّاً وقدرًا، فكيف وفيه بيت الله الحرام، والحَجَر، والحِجْر، وزمزم، والمقام، ودار خديجة، وفيها مجلس جبريل ومحمد عليهما السلام:

انظر بعينكَ بهجةَ الحسناءِ
ما بعدَ هذا منظرٌ للرّائي
فهي التي سلبت فؤادَ مُحِبِّها
بجمالِ بهْجَتِها ونورِ بهاءِ
جعلَ المُهَيْمِنُ كلَّ عامٍ حجَّها
فَرْضًا وهذا صحَّ في الأنباءِ
بُشْراكِ يا عيني انظري وتدلّلي
وتلذّذي منها بطيبِ لقاءِ
شنّفْ بذكرِ مَطَافِها ومقامِها
أُذْني فهذا اليومُ يومُ هناءِ[2]

(١) ابن دقيق العيد حياته وديوانه ١٤٠
(٢) إثارة الترغيب والتشويق ٣١ – ٣٢

• التأليف في مكة المكرمة

انشغل الكتاب قديمًا وحديثًا في تتبع أشرف البقاع، ويرجع ذلك لتلمسهم بابًا يُرفعُ فيه شأنهم، وتنحطُّ عنهم خطاياهم، وإنك إذا تصفَّحت المؤلفات والمصنفات التي صُنِّفت في المدن الهامة كأن تكون عواصم لدول قوية، أو حواضر علم، أو ممر قوافل، أو مركز اقتصاد، أو لكونها نقطة ارتكاز عسكري، أو تاريخي، أو أثري، فإنك بلا شك ستجد العديد من المؤلفات، كما هو الحال في الكتب المؤلفة في المدينة المنورة، والقدس و تاريخ دمشق وبغداد والقاهرة وغرناطة ، وغيرها من المدن الإسلامية التي كان لها عبر التاريخ مكانةٌ وأهمية.

ولكنك عندما تتصفح كتاب (معجم ما أُلِّف عن مكة) للدكتور عبدالعزيز السنيدي، فستصاب بالدهشة والعجب معًا، وسينقل إليك هذا الكتاب عظمة اهتمام المؤلفين بمكة المكرمة، وما لا ينتهي العجب منه هو أنَّ التصنيف كان متنوعًا وثرًا، إذ لم يبق من جوانب هذه المدينة العظيمة في تاريخها وأحداثها، جانب إلاَّ أُلِّف فيه، بدءًا من بداياتها الأولى، وبناء الكعبة الشريفة ، وظهور الإسلام والبعثة، والإسراء والمعراج والفتح، والتطورات التي مرت عليها عبر العصور، وفي رجالاتها، ومواقعها كما في المسجد الحرام، والكعبة الشريفة، وبئر زمزم، والمقام ، وفي فضائلها، وحياتها العلمية، والفكرية، وتنظيماتها الحضارية والجغرافية، ومنشآتها، وعيونها وآبارها، وجوانبها المعمارية والأثرية، وقبائلها، وأنسابها، وتراجم رجالاتها ونسائها، وما يتعلق بالحج وشؤونه وتنظيماته، إلى ما أُلِّف فيها من رحلات عديدة، وغير ذلك من الكتب في الجوانب التشريعية والفقهية والدعوية.

وهذا الكتاب المفهرس الذي ذكرناه آنفًا يقع في ٥٥٠ صفحة لمدينة واحدة، وهذا يدلك حقًّاً على الكم الهائل من المؤلفات، وكم كنت أتمنى على الكاتب لو قام بترقيم الكتب تسلسليًاً، لكنه للأسف لم يفعل، فقمت بإحصاء الكتب والرسائل والأبحاث والمقالات الواردة في الفهرس الموضوعي في هذا المعجم فوجدتها (٢٨٧٨) ولا شك أن ما فات المؤلف

الاطلاع عليه ليس باليسير، فهناك العديد من المؤلفات لم يرد اسمها في هذا المعجم، وهذا أمر منطقي، فعملية الحصر الكلي الشامل والدقيق تصعب على فرق العمل، فكيف على الفرد الواحد؟ ولا شك أن هذا الرقم الذي أوردناه ليمثل عظم الاهتمام بهذه المدينة المقدسة.

وتذكر كتب المعاجم والمصنفات أنّ أوّل من صنّف في مكة هم: محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ – ٢٠٧هـ) وعلي بن محمد المدائني (١٣٥ – ٢٢٥ هـ) وأبو الوليد الأزرقي (٠٠٠ – ٢٥٠ هـ) والزبير بن بكار (١٧٢ – ٢٦٢ هـ) وعمر بن شبة (١٧٢ – ٢٦٢ هـ) ومحمد بن إسحاق الفاكهي (٠٠٠ – ٢٨٠ هـ) .

ولعلّ أشهر الكتب التي أُلّفت عن مكة ولها حضورها، في أغلبها كتب تاريخية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار لأبي الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي (ت ٢٥٠ هـ) وقد اختصره عدد من العلماء
- تاريخ مكة لعمر بن شبة (٠٠٠ – ٢٦٢ هـ).
- أخبار مكة لعبدالله بن محمد الفاكهي (٠٠٠ – ٢٧٢ هـ).
- شفاء الغرام بأخبار بلد الله الحرام لأبي الطيب محمد بن شهاب الدين المكي الفاسي، واختصره إلى أربع مختصرات، وله: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.
- القرى في أخبار أم القرى للمحب الطبري (٠٠٠ – ٦٩٤ هـ).
- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقدس الشريف، تأليف الإمام أبي البقاء محمد بن أحمد بن الضياء المكي الحنفي (٠٠٠ – ٨٥٤ هـ).
- إتحاف الورى بأخبار أم القرى للنجم عمر بن فهد (٨١٢ – ٨٨٥ هـ)

- الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف لابن ظهيرة القرشي (٠٠٠ - ٩٨٦ هـ).

- خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام للسيد أحمد بن زيني دحلان

وهناك كتب غاية في الأهمية، وما يهمنا هنا هو ما يرتبط بموضوعنا، وسأورد أسماء هذه الكتب والرسائل والمقالات علّها تطلع القارئ والدارس على ما تناولته هذه المصنفات في الجانب الأدبي المتصل بمكة:

- إثارة الحجون لزيارة الحجون للفيروزابادي، مطبعة الترقي بمكة.

- احتفالات الموالد النبوية في الأشعار الأندلسية والمغربية والمهجرية لحسن جمال الدين، بغداد ١٩٦٧م .

- الحج في الأدب العربي لعبدالعزيز الرفاعي، دار الرفاعي، الرياض ١٤٠٦هـ.

- حقيقة المجاز إلى الحجاز لصلاح الدين الصفدي.

- الحياة الأدبية في مكة في القرن الأول الهجري لزكي عابدين غريب، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م.

- الدر النظيم في قصة مولد ومعراج النبي الكريم، منظومة لمحمد أمين الجندي العباسي.

- رحلة الحج منظومة لعلي بن أحمد السوسي الدوقاري.

- رحلة الحج من يلملم إلى بلد الله الأمين منظومة لعلي بن حسن العجيلي التهامي، تحقيق عبدالله محمد أبو داهش.

- الشعر الحديث في الحجاز من ١٩٦١ - ١٩٤٨م لعبدالرحمن بن فيصل المعمر، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

- الشعر في الجزيرة العربية للدكتور عبدالله الحامد، دار الكتاب السعودي، الرياض ١٤٠٦هـ.

- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بالقاهرة.
- الظرف والظرفاء في الحجاز في العصر الأموي، تأليف البشير المجذوب، دار التركي للنشر، تونس.
- قبيلة خزاعة في الجاهلية والإسلام، تأليف عبدالقادر فياض حرفوش، دار البشائر، دمشق.
- قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، تأليف عبدالله عبدالجبار، ومحمد خفاجي، دار مصر للطباعة، القاهرة.
- هديل الحمام في تاريخ البلد الحرام (تراجم شعراء مكة على مر العصور) لعاتق بن غيث البلادي.
- وهناك مقالات وبحوث عديدة حول الموضوعات والأغراض والشخصيات الشعرية التي لها علاقة بمكة المكرمة، سيطول الأمر لو ذكرناها، ولكن العودة إلى الدوريات المتخصصة، والمجلات الأدبية وبخاصة في المملكة العربية السعودية تعطي القارئ فكرة عن طبيعتها وما تناولته بالدراسة.

والغريب في الأمر أن هذه المصنفات على كثرتها ونفاستها، وشموليتها لأدق التفاصيل عن مكة، فإنك لا تكاد تجد كتابًا واحدًا يبحث في الشعر الذي يرتبط بمكة، ويختص بها، سواء في عصر أو عصور، أو فترة من الفترات، ويبدو أن ميدان السباق خال، فأركضتُ جوادي وقديمًا قال العرب (كل مجر في الخلاء يُسر).

وقد أُلّف في فضائل مكة العديد من المؤلفات مثل: فضائل مكة للحسن بن يسار، ولأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، ولرزين بن معاوية، ولعبدالله بن الزبير الأسدي، ولمحمد بن أبي بكر محمد اللباد اللخمي، ولعبدالغني النابلسي، ثم التأليف في فضائل الحرم والكعبة والحجر الأسود وماء زمزم، ثم الجمع بين فضائل مكة والمدينة، أو فضائل المدن الثلاث: مكة والمدينة والقدس.

واستمرّ التأليف في هذا الموضوع حتى عصرنا الحاضر من ذلك ما كتبه عاتق بن غيث البلادي في فضائل مكة المكرمة وحرمة البيت الحرام، وبجانب الكتب ظهر العديد من البحوث والمقالات.

وقد تنازع العلماء والمؤلفون الأفضلية هل هي لمكة على المدينة؟ أم للمدينة على مكة؟ من ذلك كتاب فضل المدينة على مكة لمحمد بن عبدالله صالح الأبهري المتوفى سنة (٣٧٥هـ) (وذكر القاضي عياض أن موضع قبر نبينا صلى الله عليه وسلم أي ما ضمّ أعضاءه الشريفة أفضل بقاع الأرض.. وقال الإمام مالك رضي الله عنه المدينة أفضل من مكة لما روي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال حين خروجه من مكة إلى المدينة: (اللهم إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحبّ البلاد إليّ فأسكني أحبُّ البلاد إليك[1]) رواه الحاكم في المستدرك.

ويبدو أنّ هذا التنازع امتدّ إلى الشعر، فوجدنا الشعراء يناقض بعضهم بعضًا في هذا الفضل، ويتمارون فيه، فقد أورد النجم بن عمر في حوادث سنة أربع وتسعين ومائة (كتب يحيى بن مسكين بن أيوب بن محارب على لسان أهل المدينة إلى داود بن عيسى بن موسى الهاشمي أمير مكة يسألونه التحوّل إليهم، ويعلمونه أنّ مقامه بالمدينة أفضل من مقامه بمكة، وأهدوا إليه في ذلك شعرًا، قال شاعرهم فيه[2]:

أداودُ قد فُزْتَ بالمَكْرُماتِ
وبالعدل في بلد المصطفى

وصرتَ ثِمَالاً لأهلِ الحجازِ
وسرتَ بسيرةِ أهل التُّقى

وأنتَ المهذّبُ من هاشمٍ
ومن منصبِ العزِّ والمرتجى

وأنتَ الرّضا للذي نابهمْ
وفي كلّ ذلك وابن الرضا

(١) الإعلام بأعلام مكة ١٣-١٤
(٢) إتحاف الورى ٢/ ٢٥٠-٢٥٦وفيه القصائد الثلاث وفي أخبار مكة للفاكهي ٢/٢٩٨وهديل الحمام٣/٩٥٩-٩٦٤

وبالفيءِ اغنيتَ اهلَ الخصاصِ
فَعَدْلُكَ فينا هو المُنتَضَى

ومكةُ ليست بارض المقامِ
فهاجِرْ كهجرةِ من قد مَضَى

مقامُكَ عشرين شهرًا بها
كثيرٌ لهم عند اهل الحِجَا

فقم ببلادِ الرسول التي
بها اللهُ خصَّ نبَي الهُدَى

ولا يلفِتَنْكَ عن قربِهِ
مشيرٌ مَشُورته بالهوى

فقبرُ النبيُّ واثاره
احقُّ بقربِكَ من ذي طُوَى

فلما ورد الكتاب والأبيات على داود بن عيسى أرسل إلى رجال من أهل مكة فقرأ عليهم الكتاب، فأجابه رجلٌ منهم يقال له عيسى بن عبدالعزيز بن السعلبوس بقصيدة يردّ عليه، ويذكر فيها فضل مكة، وما خصها الله تعالى به من الكرامة والفضيلة، ويذكر المشاعر والمناقب، فقال:

اداودُ انتَ الإمامُ الرِّضَا
وانتَ ابنُ عمِّ نبي الهُدَى

وانتَ المُهذَّبُ من كل عيبٍ
كبيرًا ومن قبلهِ في الصِّبَا

وانت المُؤمَّلُ من هاشمٍ
وانت ابنُ قومٍ كِرامٍ تُقَى

وانتَ غِياثٌ لاهل الخصاصِ
تُبيدُ خَصاصَتَهُمْ بالغِنَى

اتاك كتابُ حسودٍ جحودٍ
أسَا في مقالتهِ واعتَدَى

يُخـيِّـر يثـربَ في شعـرِهِ
على حرمِ اللهِ حيثُ انبنَى
فـإن كـانَ يصدقُ في مـا يقـولُ
فـلا يُنجِدنَّ إلى مـا هنا
وايّ بـلاد تـفـوق امَّـهَـا
ومكّـةُ مـكـةُ امّ الـقُـرَى
وربي دَحَـا الأرض من تحـتِـهَـا
ويثـرب لا شكّ في مـا دحـا
وبيتُ المهـيـمنِ فـينا مـقـيمٌ
يُصلَّى إليـهِ بـرغـمِ الـعِـدَى
ومـسـجِـدُنا بيّنٌ فـضلُهُ
على غـيـرِهِ لـيس في ذا مِـرا
صـلاة المصلي تُـعـدُّ لـه
مـئين الوفَـا صـلاة الـوفـا
كـذاك اتى في حـديث الـنبيِّ
ومـا قـال حقٌّ بـه يُقـتـدى
واعـمـالُكُم كلّ يـومٍ وفـودٌ
إلـيـنـا شـوارع مـثـل الـقـطَا
فـيـرفعُ منهـا إلـهي الـذي
يشـاءُ ويـتـركُ مـا لا يَشـا
ونـحـن يـحـجُّ إلـيـنـا الـعِـبَـادُ
يرمـون شُـعْـثـا بِوتر الحَـصَـى
ويـاتـون مـن كلِّ فـجٍّ عـمـيقٍ
عـلى أيْـنُـقٍ ضُـمُـرٍ كـالـقـنـا
ليـقْـضُـوا مناسِكَهُم عندنا
فـمنهم شـتـاتٌ ومنهم مَـعَـا

فكم من مُلَبٍّ بصوتٍ حزينٍ
يرى صوتَهُ في الهوى قد علا

وآخر يذكرُ ربَّ العبادِ
ويُثني عليه بحُسنِ الثَّنا

فكلُّهُمُ اشعثٌ اغبَرٌ
يؤمُّ المُعرَّفَ اقصى المَدَى

فظلُّوا به يومَهُم كُلَّهُ
وقوفًا على الجَبْلِ حتى المسَا

حفاةٌ عراةٌ قيامًا له
عجيجٌ يناجون ربَّ السَّما

رجاءً وخوفًا لما قدَّموا
وكلٌّ يسائل دفعَ البَلا

يقولون يا ربنا اغفرْ لنا
بعفوِكَ واصفحْ عمَّن اسَا(*)

فلما دنا الليلُ من يومهم
وولَّى النهارُ اجدُّوا البُكا

وسار الحجيجُ لهم رجَّةٌ
فحلّوا بجمْعٍ بُعيد العِشَا

فباتوا بجَمْعٍ فلما بدا
عمودُ الصَّباح وولَّى الدُّجَى

دَعَوْا ساعةً ثمَّ شدُّوا النُّسوعَ
على قُلُصٍ ثمَّ امّوا مِنًى

فمِنْ بينِهم من قَضَى نُسُكَهُ
وآخرُ يبدا سفكَ الدِّمَا

وآخرُ يهوي إلى مكةٍ
ليَسْعَى ويدعوه في من دعَا

(*) هكذا ورد البيت في الأصل، وفيه خلل عروضي.

وآخــــــرُ يــرمـلُ حــــــالَ الـطـوافِ

وآخـــــرُ مــــاضٍ يوْمُ الـصَّـــــفَــــا

فــــــابـوا بـفــــــضلٍ ممّـا رجَــــوا(*)

ومـــــا طلبــــوا من جـــــزيلِ العَطَا

وحــجَّ الملائـكـةُ الــمُـكـرمـــــــونَ

إلى ارضـنـا قـــبلُ في مــــا مـــضَى

وآدمُ قــــــــد حـجَّ من بـعــــــدهـمْ

ومن بعـــده احــمـــدُ الـمُـصطفى

وحــجَّ إلــيــنــا خــلــيــلُ الإلـــهِ

وهـجَّـــــر بـالـرمـي فـي مـن رمـى

فـــهـــذا لَعَــمْــري لنا رِفْــعَـــةٌ

حَـبَـانـا بـهـــذا شـــديـدُ القِــوَى

ومـنّـا الـنـبـيُّ نـبـيُّ الـهُـــــدى

وفــيـنا تـنَـبَّـــا ومِـنّا ابـتـــدا

ومـــنّـا ابـــو بـكــرٍ ابـــن الـكــرام

ومـنـا ابـو حـــــفصٍ المرتَـجَـى

وعـــثــمــانُ منّا فـــمن مـــثـلُهُ

إذا عـــــدّد الـنـاسُ أهـلَ الـتُّـــقَى

ومـنّـا عـلـيٌّ ومـنّـا الـزبـيـــــــرُ

وطلحـــــةُ فـــينا ومنا انـتــــشَى

ومنّـا ابن عـــبــاسٍ ذو المكرمــــاتِ

نـســـيـبُ الـنـبـيِّ وحـلـفُ الـنَّـدَى

ومـــنّـا قـــــــريشٌ وآبـاؤهــا

فنحن إلى فـــخـــرنا الـمُـنْـتَـمَـى

ومـنّـا الـذيـن بـهـم تَفْـــخَــــرون

فـــلا تَفْــــخَــــرُنَّ علينا بِنَا

(*) هكذا ورد هذا الشطر في الأصل، وبه خلل عروضي.

فـــفــخـــرُ اولاءِ لنا رفـــعـــةٌ
وفـــينا من الـفــخــر مــا قـد كـفَى
وزمـــزمُ والحِـجْـرُ فــينا فـهل
لكم مكرمـــاتٌ كـــمـــا قـــد لـنا
وزمـــــزمُ طُـعمٌ وشـــربٌ لمن
اراد الطعـام وفــيـها الشِّـفَـا
وزمـــزمُ تنفي هـمــومَ الصُّـدورِ
وزمـــزمُ مـن كلّ سُـــقـمٍ دوَا
ومن جـــاء زمــزمَ من جـــائعٍ
إذا مـــا تضلَّعَ منهـــا اكـــتـفى
ولـيـــست كـــزمــزمَ في ارضكمْ
كـــمـــا ليس نحن وانتم سَـــوَا
وفــيــهـا سِـقـايةُ عمِّ الرســولِ
ومنهـــا النبيُّ امـــتــلا وارتوى
وفـــينا الـمــقَــامُ فــاكــرمْ بِهِ
وفــينا الـمُحَـصَّبُ والـمُـجْـتَـبَى
فـفــينا الحَـجُــونُ فــفــاخــرْ بِهِ
وفـــينا كُـــدَيٌّ وفـــيـنـا كَـــدَا
وفـــينـا الأباطحُ والـمَـــروتـانِ
فَـبَـخْـبِـخْ فـمن مِـثْلُنا يا فــتى
وفــينا الـمَـشـاعـرُ مَنْشَـا النبيِّ
واجـــيــادُ والـركنُ والـمُـتَّكَى
وثورٌ فـــهلْ عندكم مــثلُ ثورٍ
وفـــينا ثَبـيـــرٌ وفـــينا حِـرَا
وفــيــه اخـــتــبــاءُ نبيِّ الإلهِ
ومـــعْـــهُ ابو بكرٍ المرتضَى

فكم بين أحد إذا جاء فخرٌ
وبين القبيّس في ما ترى

وبلدتُنا حرمٌ لم تزلْ
مُحَرَّمَةَ الصيدِ فيما خَلا

ويثربُ كانت فلا تكذبنْ
حلالاً فكم بين هذا وذا

فحرَّمها بعد ذاك النبيّ
فمن اجل ذلك ماذا كذا

ولو قُتِلَ الوحشُ في يثربٍ
لما فُدِيَ الوحش حتى اللقا

ولو قُتِلَتْ عندنا نملةٌ
أُخِذْتُمْ بها أو تؤدوا الفدا

ولولا زيارةُ قبرِ النبيِّ
لكنتم كسائر من قد ترى

وليس النبي بها ثاويًا
ولكنَّهُ في جنانِ العُلا

فإن قلتَ قولاً خلاف الذي
اقولُ فقد قلتَ كلَّ الخَطَا

فلا تُفْحِشَنَّ علينا المقال
ولا تَنْطِقَنَّ بقول الخَنا

ولا تَفْخَرَنَّ بما لا يكونُ
ولا ما يَشينُكَ عند الملا

ولا تهجُ بالشِّعر أرضًا حرامًا
وكُفَّ لسانَكَ عن ذي طُوَى

فأجابهما رجل من بني أسد ناسك كان مقيمًا بجدة مرابطًا، فحكم بينهما فقال:

إنّي قــــضـــيتُ على الـلّذين تماريا
في فـــضلِ مكةَ والمدينة فـــاســـالوا
فَلَســوفَ أُخْـــبـــركم بحقٍّ فـــافـــهـــموا
فـــالحكمُ حـــينًا قـــد يجـــور ويَعْـــدِلُ
فـــانا الفـــتى العـــجلي جَـــدَّةُ مَـــسْكَنِي
وخـــــزانة الحـــــرم الذي لا يُجـــــهلُ
وبهـــا الجـــــهـــادُ مع الرباط وإنّهـــا
لَبِـــهـــا الوقـــيـــعـــةُ لا مـــحـــالةَ تنزلُ
معَ آل حـــــــامٍ في أواخـــــــر دهرهـــا
وشَـــهـــيـــدُها بشـــهـــيـــد بدرٍ يعـــدلُ
شـــهـــداؤنا قـــد فُـــضّلوا بســـعـــادةٍ
وبهـــا السـرور لمن يموتُ ويُقْـــتَلُ
يا ايهـــا المَـــدَنِيُّ ارضُكَ فـــضْلُهـــا
فـــوق البـــلادِ وفـــضلُ مكةَ افـــضلُ
ارضٌ بهـــا البـــيتُ المُـــحـــرَّمُ قِـــبْلَةٌ
للعـــالمين له المســـاجـــد تُعْـــدَلُ
حـــرمٌ حـــرامٌ ارضُـــهـــا وصـــيـــودُها
والصَّـــيْـــدُ في كلّ البـــلادِ مُـــحلَّل
وبهـــا المشـــاعـــرُ والمناسكُ كلُّهَـــا
وإلى فـــضـــيلتـــهـــا البـــريةُ تَرْحلُ
وبهـــا المقـــامُ وحـــوض زمـــزم مـــشـــرعًـــا
والحِـــجْـــر والركنُ الذي لا يُجـــهلُ
والمســـجـــدُ العـــالي المحـــرّمُ والصّـــفـــا
والمَـــشْـــعَـــران ومن يطوفُ ويرملُ

هل في البــلاد مَــحَلَّةٌ مــعــروفــةٌ
مــثل الــمُــعــرّف او مــجــمــُـرُ يُحلَلُ
او مـــثلُ جـــمْعٍ في المواطن كلـهـــا
او مـــثلُ خـــيفٍ منًى بـارضٍ منزلُ
فلكم منـازلُ لا يرى بخـــرابهــــا
إلاّ الدمـــاء ومُـــحـــرِمٌ ومـــحلّلُ
شــرفًـــا لمن وافى المعـرّف ضـيـفُــه
شـــرفًـــا لـه ولارضـــهِ إذ يَنْزل
وبمكةَ الحـــسناتُ ضُــعِّفَ أجْــرُهَا
وبهـا المُـسيء عن الخطيـئـةِ يُسالُ
يُجْـزَى المسيءُ عن الخطيـئـةِ مِـثْلَهـا
وتُضـــاعفُ الحـــسناتُ منهُ وتُقـبَلُ
مـــا ينبــغي لك ان تفــاخــرَ يا فــتًى
ارضًـــا بهـــا وُلِدَ النبيُّ المُـــرسلُ
بالشّـعب دون الردم مـــســقطُ راسِــهِ
وبهـــا نشـــا صلّى عليــه المُـرْسِلُ
وبهـــا اقـــام وجـــاءه وحي السَّــمـــا
وسَـــرَى بـه الملكُ الرفـــيعُ المُنْزَلُ
وَنُبُـــوّةُ الرحـــمن فـــيــهـــا أُنزلتْ
والدين فـــيـــهـــا قـــبل دينك اولُ
هـل بـالمدينـةِ هـاشـــمـيٌّ ســـاكنٌ
او من قـــــريشٍ ناشـىءٌ او مُكْـهِلُ
إلاّ ومـكـةُ ارضُـــــهُ وقــــرارُهُ
لكنّهـمْ عـنهـــا نـاوْا وتَـحَــوّلوا

فكذاك هاجَرَ نَحْوكم لمَّا اتى
إنّ المدينةَ هجرةٌ تتحوّلُ
فاجرتُمْ وقَريتمْ ونصرتمْ
خيرَ البريةِ حقكم ان تفعلوا
فضلُ المدينةِ بيّنٌ ولأهلِهَا
فضلٌ قديمٌ نورُهُ مُتَهَلِّلُ
من لم يقلْ إنّ الفضيلةَ فيكمُ
قلنا كَذبتَ وقولُ ذلك ارذلُ
لا خيرَ في منْ ليس يعرفُ فضلكمْ
من كان يَجْهلُهُ فلسنا نجهلُ
في ارضكم قبرُ النبيّ وبيتُهُ
والمِنبرُ العالي الرفيعُ الأطولُ
وبها قبورُ السابقين بفضلهمْ
عمرٌ وصاحبُهُ الرفيقُ الأفضلُ
والعِتْرةُ الميمونةُ اللائي بها
سبقت فضيلةُ كلّ من يتفضلُ
آلُ النبيّ بنو عليٍّ إنّهمْ
امسوا ضياءً للبريّةِ تشملُ
يا من تبضُّ إلى المدينةِ عينُهُ
قبل الصغارِ، وصغرُ خَدِّكَ اسفلُ
إنّا نَهْواها ونَهْوَى اهلَهَا
ووِدادها حقٌّ على من يفعلُ
قل للمديني الذي يزدانُ ذا
ودُّ الأميرِ ويستحثُّ ويعجلُ

قد جاءكم داوُودُ بعد كتابكمْ

قد كان حَبْلُكَ في اميرِك يفتلُ

فاطلبْ اميرك واستزره ولا تقعْ

في بلدةٍ عَظُمَتْ فوعظُكَ افضلُ

ساق الإلهُ لبطنِ مكةَ ديمةً

تُروى بها وعلى المدينة تُسْبِلُ

****

القســم الأول

مكة في عصور الشعر العربي

مكة في عصور الشعر العربي

أولاً: مكة في الشعر العربي القديم

هل كان لمكة شعراء يطاولون شعراء القبائل الأخرى كتميم وقيس وغيرهما؟ ويقفون على قدم المساواة مع شعراء الطبقات الأولى من شعراء الجاهلية: كشعراء المعلقات، أو الشعراء الفرسان، أو من شهروا لسبب أو لآخر؟

وإذا كان الجواب بالنفي، فما هي الأسباب التي جعلت مكة لا تشتهر بالشعر اشتهار القبائل الأخرى؟ أهي حياة مكة الهادئة الوادعة، حياة الرفاه والانشغال بالتجارة؟ فلم تبعث على قول الشعر، قد قيل ذلك، فصرفت بانشغالها بالتجارة صيفًا وشتاءً عن قول الشعر إلى الاستمتاع به وسماعه، وفتح نواديها وأسواقها الأدبية لتكون ميدانًا للتباري بين شعراء العرب في جاهليتهم، كما كان الحال في سوق عكاظ وذي المجنة والمجاز، واكتفت بأن تكون حكمًا لهذا الشعر وعليه، ورضيت بأن يرضاها العرب قاضيًا بين شعرائهم، وكما تروي الرواة فقد (كانت العرب تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردّوه منها كان مردودًا، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي، فأنشدهم قصيدته: **هل ما علمتَ وما استودعتَ مكتومُ**، فقالوا: هذا سمط الدهر.

ثمَّ عاد إليهم العام المقبل، فأنشدهم قصيدته:

طحـا بك قلبٌ في الحسـان طروب

فقالوا هاتان سمطا الدهر[1]

وإذا كانت قريش قد استغلت هذه الوظيفة النقدية في الحكم على الشعر، فقد وظفت هذه المعرفة في تخير اللغة الفصيحة، كما ذكر السيوطي: (كانت قريش أجود العرب انتقاءً

---

(١) الأغاني طبع الهيئة المصرية العامة ٢١/٢٠١-٢٠٢

للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانةً عما في النفس)[1].

ولم تكن قريش حكمًا على الشعر والشعراء فقط، بل كانت حكمًا في اختلافات القبائل، والمنافرات، فهذا عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة يحتكمان إليها في المنافرة التي جرت بينهما في أيهما أحقّ بالسيادة، وفي ذلك يقول مروان بن سراقة:

يا آل قـــــريش بيّنوا الكلامـــا
إنّا رضـــينا منكم احـــلامـــا
فـــبـــينوا إذ كنتمُ حكّامـــا[2]

أقول مع هذه الخاصية لقريش، فإنها لم تظهر في ميدان الشعر ظهور غيرها، ولم يكن لها من المكانة الشعرية ما كان للقبائل الأخرى، وفي ذلك يقول ابن سلام الجمحي: (والذي قلّل شعر قريش انه لم يكن بينهم نائرة، ولم يحاربوا)[3] ولعل ربط ابن سلام الشعر بالحرب هو لما تثيره الحرب من الحماسة في النفوس، وإلا فإنّ دوافع الشعر لا تقف عند هذا السبب، ومع ذلك ففي حديثه عن شعراء القرى العربية يضع مكة ضمن القرى التي لها شعراء في الجاهلية، فيقول: (وبمكة شعراء، فأبرعهم شعرًا: عبدالله بن الزبعرى.. وأبوطالب.. والزبير بن عبدالمطلب شاعر، وأبو سفيان بن الحارث شاعر، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية شاعر، وضرار بن الخطاب الفهري شاعر، وأبو عزة الجمحي شاعر، .. وعبدالله بن حذافة السهمي، .. وهبيرة بن أبي وهب..)[4] ومن النساء الشواعر، ذكرت كتب الأدب : هند بنت عتبة، وهند بنت أثاثة، ورقية بنت عبدالمطلب، وصفية بنت عبدالمطلب، وقتيلة بنت النضر، وصفية بنت مسافر.

ومن المعروفين من شعراء مكة في العصر الأموي: عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وعبيدالله بن قيس الرقيات، وعبدالرحمن الجشمي، والعرجي، ومحمد بن عبدالله النميري، ويزيد بن ضبة، وقيس بن ذريح، وغيرهم كثير.

---
(١) المزهر للسيوطي ١ / ٢١١
(٢) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ٨٠
(٣) طبقات فحول الشعراء ١/٢٥٩
(٤) المصدر نفسه ١/٢٣٣-٢٣٥

ونجد في العصر العباسي عددًا من المشهورين، منهم: سديف بن ميمون وأبوالحسن التهامي، ويظهر في القرن الخامس وما يليه: ابن الحكاك المكي، وأبو الفتوح أمير مكة، والمجاشعي القيرواني شاعر الحرمين، وأبو عبدالله محمد بن إبراهيم الأسدي، وأبوبكر محمد بن عتيق البكري السوارقي، وكافور النبوي، والشريف علي بن عيسى المعروف بابن وهاس، والأمير دهمش بن وهاس الحسني، وأبو الحسن علي بن الحسن المعروف بابن الريحاني، وسالم بن أبي سليمان.

وتتضخم أعداد الشعراء في العصور المتتابعة، وتفرد كتب التراجم لهم صدر صفحاتها، مثل: كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني، ودمية القصر للباخرزي، ونفحة الريحانة وغير ذلك من المصادر الشعرية التي ذكرت لنا أعدادًا كثيرة، نذكر منهم على سبيل المثال: علي بن الحسن الريحاني، وابن وهاس الحسني، وعلي بن محمد العليف، وأحمد بن الحسين العليف شاعر البطحاء، وعلي بن محمد الطبري، وعلي بن أحمد بن معصوم، وعمار بن بركات الحسني، وكثير غيرهم من الذين توزعوا على مدى القرون من القرن السادس وحتى الثاني عشر الهجري.

وفي العصر الحديث يترصع تاريخ مكة الشعري بعدد من نجوم الشعر، مثل: حسن ابن عبدالله القرشي، وحسين سرحان، وحسين عرب، وحمزة شحاتة، وطاهر زمخشري، والغزاوي، والفلالي، وأحمد قنديل، ومحمد حسين فقي، ومحمود عارف، ومحمد حسن عواد، ومحمد علي مغربي، وعدد كبير من المعاصرين الذين ينتمون إلى مكة موطنًا.

ونحن في حديثنا عن مكة في الشعر القديم جملة واحدة، نقصد ما اصطلح عليه في تاريخ الأدب، العصور الثلاثة وهي: العصر الجاهلي، والعصر الإسلامي والأموي، والعصر العباسي، وهذه الحزمة هي التي فرضت نفسها على الدرس لأن الشعر في مكة: موضوعات وأغراضًا يكاد يكون متشابهًا، إذ هو يصب في إناء واحد، ويسيل في أبطح واحد هو أبطح مكة.

وكذلك لأن العصر الواحد قد يرينا جزءًا من الصورة لا تكتمل إلا بضم الأجزاء الأخرى إليها، ولذلك كان تناولنا للشعر في هذه العصور في أضيق مساحة، إذ الحديث

التام الحلقات، المكتمل الهيئة لن نجده في كل عصر على حدة، وإنما نعثر عليه على امتداد هذه العصور، ومن هنا سار البحث في عرض لقطات سريعة لهذه العصور، لتعطي لمحة خاطفة، ويأتي القسم الثاني حيث الحديث المستفيض، والشواهد المتعددة، والتتبع الدقيق.

وقد كانت الرؤية في أن نجعل (مكة في الشعر القديم) شاملة للعصور الأدبية الأولى الثلاثة، وإن كان البعض سيعترض لبعض اختلاف الصورة ما بين الجاهلي والإسلامي، حقًا هو يختلف عقديًا، ولكنه يتفق في كثير من الموضوعات والأغراض، وإذا كان تصور الجاهليين للحج هو المختلف، فإن القسم بغير الله يكثر عندهم، ومع هذا الاختلاف إلاَّ أن بعض الشعراء ممن جاء بعدهم في العصر الإسلامي يشاركونهم في هذا الانحراف، وتبقى البنى الفنية والموضوعية متقاربة، حقًا لقد كان التأسيس لمعظم الموضوعات المذكورة في هذا البحث للعصر الجاهلي، وكذلك الأحداث التي وقعت، ولكن شعراء العصور التالية ساروا على نهجهم سواء في المدح أو الفخر، أو الوصف أو الحنين، كما انهم ذكروا الحوادث التي حدثت كعام الفيل وغيره، ومن هنا فإن الاقتصار على التنويه بهذه العصور ليكون البحث والاستقصاء من خلال الأقسام التالية كي تتضح لنا الدراسة في صورتها المطلوبة، ولكي لا نحتاج إلى إعادة الأدلة والشواهد، والنصوص.

ثانيًا: مكة في الشعر العربي في العصر الوسيط

كان العصر الوسيط يغلي بمراجل الشعر الديني، ويرجع في شدة أواره وغليانه، والحث عليه، إلى أنَّ هذا العصر شهد تراجعًا سياسيًا وعسكريًا ملحوظًا، وتبعثرت القوى الإسلامية، وضعفت وانحلّت، وتسلّط عليها الصليبيون الغربيون والمغول الشرقيون، وكان الصراع لا يمثل صراع نفوذ ومصالح، بمقدار ما كان يمثل صراع بقاء ووجود.

وكان التدمير الذي أحدثته الحروب الصليبية وحروب المغول في بلاد الإسلام هائلاً ومروعًا، دُمِّرَ فيها الإنسان والمكان والحضارة، فقتلت أعداد لا تحصى، ودُمِّرت عواصم زاهرة، وبادت حضارة وثقافة زهت على الدنيا وأغنتها.

كل ذلك عزَّز العودة للجذور والأصول، وكان حرص الشعراء على بث الروح الديني من خلال أشعار تربط المسلم بدينه، بدءًا بالمديح النبوي، ومرورًا بالارتباط بأماكن ومشاعر الإسلام، وانتهاءً بالدعوة للجهاد.

وقد تحمّل الشعر الديني في هذه الفترة مسؤولية قيادة الكلمة، وكان له أثره البالغ في تعزيز الانتصارات التي حققها المسلمون ضد الغاصبين من الصليبيين والمغول.

واشتهر في هذا الباب العديد من الشعراء، منهم: البوصيري، وابن دقيق العيد، وصفي الدين الحلي، وابن جابر الأندلسي، والعفيف التلمساني، وشهاب الدين محمود، وعبدالرحيم البرعي، وابن نباتة المصري، وشمس الدين النواجي.. وتبعهم عدد كبير، مثل: ابن سيد الناس اليعمري، ومجد الدين الوتري، ومحيي الدين الفيروزابادي، والحافظ بن حجر العسقلاني، وابن حجة الحموي، وعبدالغني النابلسي، وغيرهم كثير.

وقد عرفت مكة عددًا من الشعراء من أبنائها أو المنسوبين إليها، أو الزائرين والمجاورين، وقد أورد الفاسي عددًا من الشعراء في القرنين السابع والثامن الهجريين، منهم: نصر الدين بن محمد النهاوندي البغدادي، وعمر بن علي بن مرشد الحموي الملقب بسلطان العشاق، وعبدالصمد بن عبدالوهاب بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر، والشيخ قطب الدين القسطلاني، ويحيى بن يوسف المكي، وأحمد بن موسى المكي، ومحمد ابن يعقوب الفيروزابادي [(١)]، ويورد الباخرزي عددًا آخر من الشعراء في مكة ضمن تناوله شعراء الحجاز حتى عصره.

ويظهر الشعر الصوفي في هذا العصر الذي اختص بالربّانيات، واعتد بالمدائح النبوية، وسلوكه طريق الغزل الرمزي جعله في كثير منه يتطابق موضوعًا وطريقة وشكلاً. من هنا فقد تداول شعراء الصوفية معانيَ وألفاظًا وصورًا تتآلف وتتقارب، حتى أصبحت كأنها طريقٌ مرسومٌ يسيرون عليه، ومنهج محدد يلتزمونه، والاختلاف يكمن في القدرة الشعرية وأسلوب التناول.

ونتيجة لذلك اشتهرت معانيهم التي يتناولها اللاحق عن السابق، وفي ذلك يقول ابن خلدون (وكذلك المعاني المبتذلة بالشهرة فإن الكلام ينزل بها عن البلاغة أيضًا، فيصير مبتذلاً، ويقرب من عدم الإفادة... ولهذا كان الشعر في الربّانيات والنبويات قليل الإجادة

---

(١) أخبار مكة ٢ / ٣٩٢ – ٣٩٧

في الغالب، ولا يحذق فيه إلاّ الفحول، وفي القليل على العسر، لأنّ معانيها متداولة بين الجمهور، فتصير مبتذلة لذلك)[1].

ولسنا بصدد الحديث عن الشعر الصوفي في موضوعاته وخصائصه ورموزه، وإنما نعلق منه بقدر ما يتعلق بموضوعنا. فإذا تحدّث هذا الشعر عن مكة شوقًا أو حنينًا أو غزلاً، فذلك مطلبنا لا نتجاوزه، ومن هنا كان مرورنا على دواوين أعلام الصوفية من: ابن الفارض وابن عربي، وعبدالقادر الجيلاني وغيرهم، لنجلي ما فيها من عشق مكي، وقد ظهر لنا أغلبه في مدائحهم النبوية.

ثالثًا: مكة في الشعر العربي الحديث والمعاصر

ظهر في مكة في الشعر الحديث والمعاصر أعداد من الشعراء من أبنائها، نذكر منهم على سبيل المثال: (احمد إبراهيم الغزاوي، وعبدالوهاب آشي، وحمزة شحاتة، وفؤاد شاكر، ومحمد حسن فقي، وحسين سرحان، وطاهر زمخشري، وحسين عرب، وإبراهيم أمين فودة، وحسن عبدالله القرشي، وإبراهيم خليل العلاف، وأحمد عبدالغفور عطار، وحامد دمنهوري، ومحمد عمر توفيق، وحسين فطاني، وعبدالله بلخير، وإبراهيم نتّو، وعلي ابن عابدين، وغيرهم كثير، وقد ارتبط هؤلاء الشعراء بمكة القداسة، ومكة مسقط الرأس، فكان لها في قلوبهم المنزلة المضاعفة).

وبلا شك فإنّ حب مكة يضيء الجَنان، وتلمس أركانها يهب الأمان، ورؤياها فيض أشواق، ومن خلال اطلاعنا على الكثير من القصائد المعاصرة، وجدنا الشعراء يفردون لمكة قصائد كاملة تتحدث عنها وتصفها، وهذا الأسلوب يبين عن أن المحدثين افترقوا عن الأقدمين في هذا المضمار، صحيح أننا نلقى عند القدماء قصائد الشوق والحنين تتحدث عن لهفتهم لرؤية المشاعر، ولكن القصيدة المعاصرة..تختص أم القرى بقصيدة معبرة عن الشوق والحب، وتجمع إلى ذلك الوصف والإحساس بعظمة المكان، كما يتوضح الحب الخالص، ومن عنوانات القصائد نكاد نستجلي الكثير من المعاني، واقرأ معي هذه

---

(١) المقدمة ١١٠٧- ١١٠٨

العنوانات لتتبين صحة ما أذهب إليه، فهذه (أم القرى لحسن عرب، و لأحمد الشامي، ولأحمد أبو بكر، وعرس النور في أم القرى للدكتور إحسان عباس... ومن القلب إلى أم القرى للدكتور رجاء الجوهري، ومكتي قبلتي لأحمد قنديل، ومكة المكرمة لحسين عرب، ومحمد إبراهيم جدع، وأحمد عبدالسلام غالي، ومفرج السيد، وأحمد موصلي، ومحمود عارف، وحسن عبدالله القرشي، ومحمد حسن عواد، ومحمد حسن فقي، وفرحة العودة إلى مكة لعلي زين العابدين، ومناجاة الرحاب المقدسة لطاهر زمخشري ومن وحي المسجد الحرام لنديم الرافعي، والوحي نبع المحبة لمحمد رائف المعري، وأرض القداسات لمقبل عبدالعزيز العيسى، والمشاعر المقدسة لمحمد بن أحمد العقيلي، ويا بيت الله لياسين قطب الفيل، ومن مكة إلى روما لأحمد الجدع، وأم القرى للدكتور عبدالرزاق حسين).

وما مكة في قصائد الشعراء المعاصرين؟ إنها هدى الحائر وأرض الهدى، والبلاد المشرفة، ومنار العلم ورحاب العز، إنها أم القرى، وأم البطاح، وهي نفحات الهدى، ومطلع المصطفى ومسرح نجواه، منها سطع النور، وفيها تجلّى وحي السماء، إنها مهد الإسلام، وملاذ الإيمان، وموطن النور، إنها كما يقول محمد حسن فقي الجلال والجمال، والعشق والرشاقة، والحسن الذي لا يبلى:

مكتي انتِ لا جلالٌ على الأرض يُداني جلالها او يفوقُ
ما تُبالينَ بالرشاقةِ والسحرِ فمعناكِ ساحرٌ ورشيقُ
سجدتْ عنده فما ثمَّ جليلٌ سواهُ او مرموقُ
ومشى الخلدُ في ركابكِ مختالاً يمدُّ الجديدَ منهُ العتيقُ
انتِ عندي معشوقةٌ ليس يخزى العشق منها ولا يملُّ العشيقُ
ما أباهي بالحسنِ فيكِ على كثرةٍ ما فيكِ من معانٍ تشوقُ
انتِ قدسٌ فليس للهيكل الفاني بقاءٌ كمثلهِ وسموقُ
كل حسنٍ يبلى وحسنكِ يا مكةُ رغم البلى الفتيُّ العريقُ
درج المصطفى عليكِ فاغلاكِ واغلاكِ بعده الصدِّيقُ
وشكولٌ من الرجالِ سبوقٌ جدَّ من خلفه فجلّى سبوقُ[1]

---

(١) مكتي قبلتي ٦٩

وهي مكة الخير، التي يعتز محمد حسن عواد بأنها بلده، ولذلك تتكرر لفظة بلدي في قصيدته (مكة) مرات عدة، وهذا الإصرار على التكرار، هو لون من العاطفية الحريصة المتشبثة، وكأنّ هناك من ينافسه عليها، لذلك يقول:

مكة الخيرِ والهوى والحفيفِ
واللقاءات كالسّنا كالرفيفِ
يا ملاذَ الإيمانِ يا موطنَ النو
رِ تَهادى من الإلهِ اللطيفِ
بَلَدي يا رؤى الطفولَةِ يا مَهْـ
ـدَ القداسات يا لواءَ الزُّحُوفِ
بلدي بالهوى وبالدين والحبْـ
ـبِ، وبالعطفِ من ابرٍّ عَطُوفِ
بلدي يا صحيفةَ المجد من جِبْـ
ـريلَ من امهاتِ تلك الطيوفِ
بلدي أيُّها السّماءُ على الأر
ضِ إذا الأرضُ حُورِبتْ بالعَزيفِ[1]

وأم القرى تلك النفحات القدسية السامية، إنها مرابع المجد، ومنهل الدين، إنها البلد التي أقسم بها الله عز وجل، وباركها وشرفها، هذه مكة عند أحمد موصلي:

سطع النورُ والهدى في رُبَاها
وتجلّى وحيُ السّما في حِمَاها
نفحاتٌ قدسيةٌ قد تَسَامتْ
وسرتْ في القلوبِ تُروي صَدَاها
تلك امُّ القُرى مرابعُ مجدٍ
هي مهدُ الإسلامِ موطنُ طه
هي للدين منهلٌ طابَ وِردًا
هي للعلمِ منبعٌ قد تناهى

---

(١) المرجع نفسه ١١٥

شعٌ منها التوحيدُ في خيرِ نهجِ

رفعَ اللهُ قَدْرَها وحماها

وبها اقسمَ الإلهُ بحقٍّ

باركَ اللهُ أرضَها وسَمَاها[1]

ولا يكاد الخطاب الموجه لمكة في العديد من القصائد يبتعد عن النبرة الوصفية، التي تبين عن عظمة مكة ومكانتها، ولذلك قلما تجد اختلافًا واضحًا عند شعراء مكة في التعبير عن حبهم لمكة، فهم في أغلبهم يتكئون على شرف وسمو وقداسة مدينتهم، وانظر إلى قول محمد إبراهيم الجدع الذي يتوافق مع من سبقه ممن عرضنا لشعرهم:

يا هدى الحائرِ إنْ جارَ الزمنْ

واعترى النفسَ رزايا ومحنْ

يا منارَ العلمِ يا أرضَ الهدى

يا رحابَ العزِّ يا أسمى المدن

يا بلادًا شرَّفَ اللهُ بها

كلُّ منْ عاشَ لديه بالمنن[2]

ويطلعنا حسن عبدالله القرشي على قول مختلفٍ مؤتلف، فما أن نقرأ مطلع قصيدته (مكة) حتى نحس بنفس مختلف، ورؤية مجددة لما عهدناه عند عشاق مكة، فالوصف التجريدي لمكة المحبوبة هو ما يصادفنا في الأبيات الثلاثة الأولى التي يقول فيها:

تَفَتَّقَ عن راحَتَيْها الصَّباحْ

وشعشعَ في شفتيها القمرْ

وازهتْ بها الشمسُ فوقَ البطاحْ

وجُنَّ بها الليلُ حلو الصورْ

عذيريَ هل يبلغنَّ النشيدْ

رؤى مكةٍ او تُحيطُ الفكَرْ[3]

---

(١) المرجع نفسه ١٨٩ – ١٩٠

(٢) مكتي قبلتي ٢١٥

(٣) المرجع نفسه ١٣٣

ولكنه بعد البيت الثالث يسير في الإطار الذي سار فيه من معه من شعراء مكة، حيث يتحدث عن ماضيها ومكانتها، وبعض أماكنها مثل الكعبة وجبل النور. ونجد بعض اللقطات عند طاهر زمخشري لكنه سرعان ما يعود إلى الصفات العامة، من ذلك وصفه لمكة بالعروس، في قصيدته (مناجاة الرحاب القدسية) يقول:

وعروسٌ تميسُ في موكبِ الفتـ
ـنةِ تشدو فتستعيدُ الزهورُ
نائيها لا يني يُغرِّدُ في الكو
نِ ورجعُ الصدى جمالٌ مثيرُ
وَهْوَ ما زالَ في المرابع يختا
لُ فُتونًا به المجالي تمورُ

إلى أن يقول:

يا عروسي التي بها هتفَ القلـ
ـبُ وغنَّى بها الفؤادُ الكسيرُ
يا عروسَ المنَى الطروبِ لمُضنًى
عاشَ فيهِ الشَّجا وعزَّ النَّصيرُ[1]

ويتفق شعراء مكة مع غيرهم من الشعراء سواء انتسبوا لمكة أو كانوا زوارًا أو حجاجًا، فالشوق لمكة يجمعهم، ولذلك نجد عبارات الشوق العامة عند شعراء مكة في العصر الحديث، كما في قول أحمد عبدالسلام غالي:

ما لِقلبي يَهْفُو ويسمو الدّعاءُ
مكةٌ قَصْدُنا ويحلو النّداءُ
نفحاتُ الهدى ترفُّ وتُذْكي
كل شوقٍ ويستفيضُ العطاءُ
بلدٌ حبُّهُ تغلغلَ في النفـ
ـسِ كما انسابَ في الفضاءِ الضياءُ

(١) مكتي قبلتي ٩٦

فـــإذا انداحَ فـــالأمـــاني عِـــذابٌ

وكـــانٌ الشّـــعـــاعَ منهُ رجـــاءُ(١)

ويحن محمود عارف حنين من سبقه، فيقول:

هتفَ الشـــعـــرُ صـــادحًـــا بالحُـــدَاءِ

في هَوَى مكةٍ هوى البَطْحـــاءِ(٢)

وتشـتـعل ثورةُ الحنين في قلب طاهر زمـخشـري، الذي يعـبـر عن لواعج القلب في مناجاة الرحاب المقدسة، يقول:

في دمـي ثورة الحنـين لـهـــيـــبُـــا

ليسَ يُطفـيـــهِ من عـــيـــوني نميـــرُ

وبنفـــسي لـواعجٌ من جـــوى الشّـــجـ

ـوِ على خـــافـــقي لظاها يثـــورُ

واحـــتـــراقُ الضلوعِ في عـاصف الحـبْـ

ـبِ جـــحـــيمٌ يشفُ عنهُ الزفـــيـــرُ

واشـــتـــعـــالُ الهـوى العـتيِّ بانفـا

سي قـــتـــامٌ في الجـــوِ منه قـــتـــيـــرُ

كلّـمـــــا نـاحَ طـائـرٌ فـــوقَ ايْـكٍ

كـــانَ لي من نُواحـــهِ تذكـــيـــرُ

فـــتـــرامتْ خـــوافـــقي أغنيـــاتٍ

من فـــؤادٍ برجـــعـــهـــا مـــخـــمـــورُ

لِحِـــمَـى البـــيتِ عندَ اكـــرمِ وادٍ

غـــيـــرِ ذي الزرعِ وهو روضٌ نضـــيـــرُ(٣)

(١) المرجع نفسه ٢٢٣

(٢) المرجع نفسه ١٤٣

(٣) مكتي قبلتي ٩١

لكن المختلف هو في الحنين إلى مسقط الرأس، ذلك الحنين المشوب بالذكريات الجميلة عن مكة ملاعب الصبا والطفولة، ومسرح الشباب والرجولة، وذكريات الأماسي الرائعة، كما يظهرُ هذا الاختلاف أيضًا في النسبة إليها، ولذلك نجد الإصرار على ذكر الانتساب لمكة موطنًا، أما الأمر الثالث، فهو الشعور بالفخر لكونهم من مكة، وهذه الأمور الثلاثة يفتقدها شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى مكة دينًا لا وطنًا.

ولذلك فإنَّ مسار الحنين عند شعراء مكة، هو مسار من اغترب عن موطنه، فإحساس فقد المكان الذي هو البلد ومسقط الرأس، هو ما يختلف فيه هؤلاء الشعراء عن غيرهم، لذلك نراه أدخل في باب الحنين إلى الأوطان، وهذا ما يستشعره أحمد قنديل بقوله:

إنّنا أهلُهَا وللأهلِ فيها
ميزةٌ لا تُقاسُ حدّاً وقدرا[1]

وقصائد شعراء مكة فيها لقطة الذكريات المتميزة، فهذا أحمد قنديل يجلو لنا ذكرياته، ويحن لأيام الشباب التي قطعها في مكة تلك التي تعد أجمل ذكرى، وأروع أيام حياة، فالحنين يبدأ من مكة، وبها ينتهي:

الشبابُ الذي قطفناهُ زهرا
وقطعناهُ في المسيرة عُمْرًا
فيكِ يا مكةُ الحبيبةُ فينا
لم يزلْ للنفوسِ أجملَ ذكرى
قد مشيناهُ بين واديكِ يومًا
فاقَ عامًا لدى سواكِ وشهرا
مذْ عرفناكِ في الوجودِ حياةً
والفناكِ في حياتِكِ كُبْرى
فاجتليناهُ في مغانيكِ حُبّاً
واجْتَبيناهُ في رحابكِ طُهْرًا

(١) المرجع نفسه ٢٧

وهو يذكّر مكة بهذا الشباب المترع باللهو، الفيّاض بالأماني:

في مغانٍ بها لديكِ عَرفْنَا
والِفنا التراب شبرًا فَشِبْرَا
كم قضينا في حارةٍ في زقاقٍ
خيرَ ايّامنا بها نَتَمَرَى
خيرَ ايامنا التي نتمنّى
كلّما العمرُ من يدِ العمرِ فرّا
كم مشينا بل كم سهرنا وعشنا
فيكِ يا مكتي الأحاسيسَ جَهْرًا
بين مغنًى قد طابَ للنفس مجلّى
بين معنيً قد لذّ للفكرِ فكرا
نترجّى ما كان بالأمسِ حُلمًا
وغدا اليومَ واقعًا جلّ ذكرا
انتِ لا بدّ تذكرينَ شبابًا
بينَ واديكِ لم يكن فيهِ غرّا
عاشَ فيهِ رهنَ الأحاسيسِ نشوى
ورعاهُ نهبَ الأمانيّ خضْرًا
لاعبًا بالحياةِ انّى تبدّى
لاهيًا بالشبابِ اينَ استقرّا

وغيمة الذكرى لا تقف عند حد التذكر، بل تسرد لنا أماكن اللهو والجمال واللعب والتنقل، تلك الأماكن التي كان يعبرها مع رفاقه، متنقلاً بين أفيائها، عابرًا ودیانها، وصاعدًا جبالها، وكأنه عصفور لا يستقر على غصن واحد، وهو في ذلك يعرفنا بهذه الأغصان التي تنقل خلالها غصنًا غصنا، يقول:

مثلَ سربٍ من الطيورِ غدونا
او غدَوْنا صوبَ المناهلِ نَهْرًا

أَفَنْسَاكِ؟ لا، فهل ملّ طيرٌ
من طيورِ الوادي حواليكِ وكْرَا

إلى أن يقول:

عرفتهُ أجيادُ يخطرُ فيها
ملءَ عينٍ إليهِ تنظرُ شَزْرَا
واصطفتهُ النَّقا وقد حلّ منها
بينَ أجبالها العليّةِ صَدْرَا
واحتوتْهُ المَعْلاةُ يهجعُ فيها
بالخريق المعانقِ السُّهدَ فَجْرَا
ودعتْهُ سويقةُ حيثُ يبقى
حيثُ مَهْوى الجمالِ يقطرُ سحْرَا(١)

فأجياد والنقا والشعب والمعلاة وسويقة وغيرها هي هذه الأغصان من شجرة مكة المباركة التي كان يتنقل عليها هذا الشحرور.

ولم يكن أحمد قنديل وحده الذي يطرب لذكر هذه الأماكن، وقص ما كان فيها من ذكريات، بل شاركه العديد منهم في هذه الحكاية، فهذا أحمد الموصلي يقول:

قد قضيتُ الشبابَ غضّاً ربيعًا
في مغانيكِ حامدًا نُعْمَاها
وتضلّعتُ سَلْسَبيلاً نَمِيرًا
من صَفَا زمزمٍ وحلو غِذَاها
مكةُ في بطاحِهَا الرّحبِ نَمْضي
يطمئنُ الفؤادُ من ذِكْرَاها(٢)

ويعيد علي زين العابدين على مسامعنا قصة طفولته البريئة، وذلك اللهو الطفولي الذي كان هو وصحبته يشنون الغارات، ويلهون في الحارات، يقول:

---

(١) مكتي قبلتي ١٩

(٢) المرجع نفسه ١٩٢

فـــوقَ هذا الرملِ من أحـــيـــائهـــا

كـــانَ لَهْـوي واعْــتِـزازي وانـتِـشَـائِي

كم سَــرَحْنا صُــحـبـةٌ مــخـتـــارةٌ

تنشــدُ الألحـــانَ في ســمعِ الفـضـــاءِ

كم شَنَنّا غـــــارةً وهـمـــــيـــــةً

نـتـبـــارى في قـــشـــاعٍ واعـــتـــداءِ

إنّهُ الـلـهــــو الـذي تعـــشــــقـــهُ

فـــتـــيـــةُ الحــــاراتِ ابطالُ اللقـــاءِ

يا لهـــا ذكـــرى بنفــسي مـــا امّـحت

يـا رعـى اللـهُ زمـــــــــانَ الأبـريـاءِ

حـــارةَ البـــابِ اذكـــريني إنني

ذلكَ اليـــافعُ مـــوفـــورُ الإباءِ[1]

وإيراد النماذج يزيد في عدّ الأوراق أكثر مما نحتاجه للتدليل.

أما الانتساب إلى مكة، فهو الآخر يكاد ينطق في كل قصيدة من شعرهم المختص بذكرها، فالشاعر يذكر ياء النسبة أو الملكية، فمكة هي مكته، يقول مكتي، قبلتي ، بلدي، أو يذكر الانتماء صريحًا، وسأورد بعض الشواهد التي لا تحتاج لفضل بيان أو تعليق، ولننظر إلى قول علي زين العابدين:

هذه البلدةُ فـــيـــهـــا اقـــربـائي

وأبي منهـــا وخـــالي وانْتِـمَـــائي[2]

وأحمد عبدالسلام غالي يكرر بلدي:

بـلـدي مكـةُ فـــــدعـني اناجِـــيـ

ـهـــا مـــشـــوقًـــا يـهـــزّني الانتـــمـــاءُ

بـلـدي كم درجـتُ فـي حـــــرم اللــ

ـهِ ســـعـــيـــدًا وللفـــؤادِ ازدهاءُ

(١) المرجع نفسه ٢٣٨

(٢) مكتي قبلتي ٢٣٧

بـلـدي مَـــــــوطِـنـي ودارةُ قَـــــــومِـي

كُـــــرمـــــاءُ يقـــــودهـم كُـــــرَمــــاءُ[1]

ومثله محمد حسن عواد يكرر بلدي:

بـلـدي يـا رُؤى الـطـفـــــولـةِ يـا مــــــهـ

ـدَ الـقـــــداســــاتِ يـا لـواءَ الـزّحـــــوفِ[2]

أما الفخر الذي يلتقي مع الفخر القديم في هذا الانتساب فنكاد نقرأه في كل بيت من هذه الأبيات الدالة على الشوق والحب والانتماء، ونورد نموذجين للشاعرين أحمد قنديل وأحمد عبدالسلام غالي لعلهما يفيان في التدليل على ما نقول، فهذا قنديل يقول مفتخرًا:

قـــــد كَـــــفَــــانـا انّـا بمكّةَ كُنّا

نـحـنُ ابـنـاءَهـا هـوًى ومَــــــقَــــرًا

فـــــزهـانـا بـمـكـةٍ مــــــا زهـاهـا

انّـهــــا مـلـتـــــقى الـعـــــوالـمِ طُـرًا

انّ فـــيـنـا الـتــــاريـخَ عـــشـنـاهُ حـــيّـــاً

بـعـــــيــــونٍ مـن الـمَـــــدامـعِ شـكرى[3]

وأحمد غالي يقول أيضًا:

هـا هـنـا تُـشـــحـــذُ الـعـــزائـمُ لـلـمـــجـ

ـــــدِ وتـــــرقـــــى إرادةٌ وإبــــــاءُ

مـن هـنـا الـمكرمـــــاتُ تُـنـثـــــرُ فـي الأر

ضِ فـــتـــســـمـــو الـشـــمـــائـلُ الـغـــرّاءُ

هـا هـنـا الـيُـــمْـنُ والـحـــضـــارةُ تـرقـى

فـــإذا الـنـاسُ كـلُّـهـم اصْـــفِـــيـــاءُ

(1) المرجع نفسه ٢٢٣
(2) المرجع نفسه ١١٥
(3) مكتي قبلتي ٢٧

دارةُ العـــزِّ والهُــدى حَـــرَمُ اللـ
ـــهِ منـارٌ يَشِـعُّ منــهُ السّنـاءُ[1]

ومقارنة مكة بغيرها من المدن أمر وارد، وقد ورد في ثنايا القصيد كلون من الوان التميز، والتفرد، فمكة لا تقارن بغيرها، كما يقول محمد حسن فقي:

لكِ فـضلٌ على المدائن يا مكة مـا يجـتـويهِ إلاّ المـروقُ
اينَ منهُ فـضلُ المدائنِ يخلبنَ؟ واينَ الإغـراءُ والتـشـويقُ
قـد تركتِ البـريقَ للبلدِ الخـاملِ مـاذا يجـدي عليكِ البـريقُ
وتمخّضتِ عن فـخـارٍ طوى الأرضَ وما احـدبت عليكِ العـروقُ
اينَ منهُ الكِلْدانُ يا مكةَ الخـيـرِ واينَ الرومـانُ والإغـريقُ
والبـلادُ التي تتـيـهُ اجـاءتْ بالذي جئتِ؟ ام هو التلفـيقُ؟[2]

وإذا كانت هذه المقارنة والتفضيل في التاريخ القديم، فلننظر في هذا الراي الذي يفضلها على سائر بقاع الدنيا.

هذا أحد أبنائها يطوف الدنيا ليعود أخيرًا ويقول لنا هذه القولة:

طفتُ بالدنيــا فـــمــا هَدْهَدني
غــيــرُ داري في ربوعِ الانبــيــاءِ
مـا فـرنسـا حيـثُـمَـا عـشتُ بهـا
غــيــرُ سـجنٍ مـرفـدٍ من كلِّ داءِ
كــلُّ اوربّـــا ظـــلامٌ دامـــسٌ
اســودُ الآفـــاقِ مـــوبوءُ الفناءِ
بئسَ ايامي التي ضــيــعــتُــهـــا
في بلادٍ لم يطبْ فــيـــهـــا هوائي
هـا انا قـــد عُـــدتُ يا امَّ القُـــرى
فـابعـثـيني بعـثـةً تُحْـيي ذِمَـائي[3]

(١) المرجع نفسه ٢٢٦
(٢) المرجع نفسه ٧٠
(٣) مكتي قبلتي ٢٤١

وإذا كانت فرنسا وكل أوربا لا تساوي شيئًا في عيني زين العابدين كما يقول، فإنها وإنْ كانت بوادٍ غير ذي زرع، فالشوق إليها زرع دائم الخضرة، وكل خضرة لبنان وجمال جنانها وجبالها، وفتنة غاداتها، لا ينسي حسين عرب رائع مكة، وجمال ربوعها، يقول:

ذكـرتُكِ في لبنانَ والسهلُ مُمرِعٌ
وفوقَ الذرى أسرابُ طيرٍ مغرِّدِ
ولبنانُ جنّاتٌ حِسانٌ تورّدتْ
بسِرْبِ الصَّبايا في جمالٍ مورّدِ
ففاضت دموعُ العينِ منّي صبابةً
إلى كلِّ مَغْنًى في الحِمى مُتَغرِّدِ[1]

وهو يعدد أماكنها واحدًا واحدًا، ويطوّف حسين عرب ببلاد الدنيا، وكأنه بهذا التطواف ما بين لبنان وباريس وفيينا، وبكل بلاد أوروبا جنوبًا وشمالاً، وشرقًا وغربًا، يريد أن يقول لنا: قد تجد الجمال الظاهري في كل هذه البلاد، لكنك لن تجد الجمال الروحي والراحة القلبية إلا في ذرى مكة وأبطحها:

ذكـرتُكِ في باريسَ والجوُّ ماطرٌ
وباريسُ تجلو كلَّ همٍّ مُؤيَّدِ
بلادٌ كأنَّ الجنَّ فيها تماوجَتْ
ورانَ عليها السِّحرُ في كلِّ مِربَدِ
ولكنني لم أدرِ ما الحسن في الذي
رأيتُ ولم أشهدهُ في أيِّ مَشْهَدِ[2]

وتبقى مكة قبلة الدنيا وقمتها:

فيا قمةَ الدنيا ويا ذروةَ المُنَى
أمانًا لقلبِ المُستهامِ المُسَهَّدِ
ويا كعبةَ الآمالِ من كلِّ جانبٍ
ومستقبلَ الأجيالِ من كلِّ موردِ[3]

(١) المرجع نفسه ٥٣
(٢) المرجع السابق ٥٤
(٣) المرجع نفسه ٥٧

لأن الحسن الظاهري يكبل العقل والروح كما يقول محمد حسن فقي:

إنَّ حسنًا يُكبِّلُ العقلَ والروحَ لحسنٌ وإن اناَلَ حنيقُ

وإذا كانت لبنان وفرنسا وسائر بلاد أوروبا لا تنسي حسين عرب مكة، فإنَّ بلاد النيل، وكل روابيها الجميلة، وكؤوس المنى المقطرة فيها تزيد التياع طاهر زمخشري لمكة، يقول:

اهيمُ بروحي على الرابيهْ
وعندَ المطافِ وفي المَروتَينْ
وأهفو إلى ذِكَرٍ غاليهْ
لدى البيتِ والخَيْفِ والأخْشَبَين
فيهدرُ دمعي باماقيهْ
ويجري لظاهُ على الوجنتين
ويصرخُ شوقي باعماقيهْ
فأُرسلُ من مُقْلتي دمعتين
اهيمُ وقلبي بدقَّاتهِ
يطيرُ اشتياقًا إلى المسجِدين
وصدري يضجُّ بآهاتهِ
فيسري صداها على الضفتين
على النيلِ يقضي سويعاتهِ
يُناغي النجومَ بسمعٍ وعين
وخضر الروابي لأنّاتهِ
تُرددُ من شجوهِ انَّتين
اهيمُ وفي خاطري التائهِ
رؤى بلدٍ مشرقِ الجانبين

يطوفُ خيالي بانحائهِ

ليقطعَ فيهِ ولو خطوتين

أُمرِّغُ خدي ببطحائهِ

والمسُ منهُ الثرى باليدين

وأُلقي الرِّحالَ بأفيائهِ

واطبعُ في ارضهِ قُبلَتين

تعيدُ النشيدَ إلى أُذْنِهِ

حنينًا وشوقًا إلى المروتين[1]

والغربة عن مكة فوق طوق الشاعر محمد حسن فقي:

ما نطيقُ الفراقَ عنكِ وهل يَحْـ

ـمل قلبٌ في الحبِّ ما لا يطيقُ

لماذا لا يطيق؟ لأنه:

درجتُ بها طفلاً فكانت طفولتي

تُدندنُ في نُعْمى وتمرحُ في دَدِ

وعشتُ بها غضَّ الشَّبيبةِ ارتوي

من العلمِ عن اشياخهِ خيرَ موردِ[2]

ولعلّ هذا الحب الذي درج معه منذ الطفولة، وشرخ الشباب، امتد إلى الكهولة، وعبر الشيخوخة، وسيستمرُّ إلى ما بعدها، بل إنه يتمنى أن يضم ثراها جسده بعد الموت:

---

(١) مكتي قبلتي ١٠٣ – ١٠٦

(٢) مكتي قبلتي ٧٥

وأرجــو انا الشــيخُ المتــيَّمُ بالـهَــوَى
هواها ثوائي تحت اكـــرمِ فـــدفـــدِ
لعلَّ الذي احــيــا يجــودُ بفــضلهِ
على مـــيِّتٍ عند المعـــلا بمرقـــدِ(١)

وتتكرر هذه الأمنية عند حسين عرب، كما ورد في قوله:

تخـــيــرتُ لي امَّ القُــرى مــوطنًا به
اقــمتُ ومــا فــارقــتُــهُ عن تَعَــمّــدِ
وإني لأرجــو حُــسْنَ خــاتمتي بهــا
يكون بهـا قـبـري كـمـا كـان مـولدي(٢)

ولا شك في أن من يقرأ أشعار شعراء مكة يحس بتحول الشوق والحنين إلى عشق، وهو عشق تليد طارف، هو عشق الحياة كما هو عند قنديل:

مكتـي قـــبلتي هـوايَ تلـيـــدًا
وطـريفًـــا بـالروحِ حـلَّ فَـــقَـــرّا
مكتي قِـــبْلَتي وحـــبّي حـــيـــاةٌ
ذكـــرياتٍ تلوحُ طوعًـــا وقَـــسْــرًا
فـــيكِ يا مكةُ الحــبــيــبـــةُ فـــينا
لم يـزل للنـفـــوسِ اجـــملُ ذِكْـــرى

إنَّ هذا الغرام المشبوب بمكة، يجعله ينشدها أعذب الألحان، ويتغزل بها وكأنها الفتاة المعشوقة:

قـــــد تـغـنَّى بما لـديكِ بما فــــيـ
ـكِ كـمــا فــيكِ مـغــرمًــا يتـقـرّى
او حـــبــيــبًــا إليكِ الهــمــتِــهِ الرشـ
ـدَ غـــرامًـــا حـلـوًا يطيبُ ومُـــرًّا

(١) المرجع نفسه ٧٥
(٢) المرجع نفسه ٦٤

وستبقى حبه الأكبر والأول والأخير، إنها العشق الدائم المتجدد الذي لا تفنيه الأيام، ولا تبليه الدهور:

عشقناكِ أطفالاً صغارًا وفتيةً
وزدناكِ أشْياخًا عظيمَ التَّوجّدِ
رويناكِ بالدمع السَّخينِ محبةً
تنمُّ على الوجدِ المكينِ المؤكّدِ

والعاشق يعتزُّ بمعشوقته، ويفخر بها، ويعترف الفقي بأن عشاقها لا يعدّون:

انتِ عندي معشوقةٌ ليس يخزى العشق منها ولا يضلُّ العشيقُ
لستُ وحدي متيمًا فالملايينُ فريقٌ يمضي فياتي فريقُ
تتوالى عليكِ منهم صَبَاباتٌ فيصغي لها الفؤادُ الرقيقُ

وأخيرًا، فإنَّ صفة هذا العشق أنَّهُ عشق طاهرٌ نقيٌّ، مبرأ من اللهو، إنه عشق العابد الزاهد كما هو عند محمد حسن فقي:

ولكنَّنا نُصْفِيكِ حبّاً مبرأً
من اللهو، حبُّ القانتِ المُتَعَبِّدِ
تجرّدَ مِنْ نَفْعٍ تجرّدَ من هوًى
حقيرٍ، واسمى الحبُّ حبُّ التجردِ(١)

وإذا كانت مكة تمثل هذا التقدير وتلك المكانة في نفوس أبنائها، فإنَّ لها ذات المكانة في نفوس الشعراء من خارجها، فالنظرة إليها تكاد تكون واحدة، ويبقى الفرق فرق المواطنة، والأميري من الشعراء الذين فاضت أشواقهم، وعمرت جوانحهم بحب المشاعر، يقول عنه الدكتور خالد الحليبي: (ويرتبط الشاعر بالحرمين الشريفين ارتباط الإنسان بمسقط رأسه، يجد في البعد عنهما غربة، وفي القرب منهما حياة وطمأنينة.. فها هو ذا بعد طول اشتياق إلى السكينة والصفاء يقف أمام مقام إبراهيم مصليًا، فيحس بأنه استعاد روحانيته المفقودة بين تراكمات الحياة المادية، يقول:

---

(١) مكتي قبلتي ٨٢

وقـــفتُ أصلّي امـــام المقـــامِ
وفـي مـــــقلتـيَّ السّنا والسناءُ
وللبــــيتِ ملءُ جناني جـــلالٌ
ونَشْــوةُ وجــدٍ ووجـــدُ انْتِـشَــاء
يلازمني راكـــعًـــا ســـاجـــدًا
ويكحلُ عــينيَّ منه البَـــهَـــاء[1]

وهو يرى أن قيمة الكعبة ليست في أحجارها، وإنما في جمع هذه الأمة وتوحيدها:

الكعـــبـــةُ الشـــمّـــاءُ في مـــذهبي
قـــيـــمـــتُــهـــا لـيـستْ باحـجـارِهـا
والقـــربُ من خـــالقِـــهَـــا ليس في
تشــــبّث المرءِ باســـتـــارِهـا
قـدسـيــةُ الكعـبـةِ في جـمْـعِـهَـا
امـــــــتـــنـــا مـن كـلّ اقـطـارهـا
وانهـــا مـــحـــورُ امـــجـــادِها
وانهـــا مـــصـــدرُ انوارِها[2]

وينادي حجاج بيت الله الحرام للتوجه إلى فلسطين:

يا حـــجـيـجَ البـيتِ الحـرامِ المفـدّى
وجِّـهـوا حـشـدكم إلى القـدس سَـعْـيَـا
فـي فلسطينَ حــــفنةٌ من يهـــودٍ
تتـــحـدّى الإسـلام حــربًا وبغْـــيَـــا
ايهـا الناحـرون اكـبـاشَ عـيـدِ الـ
ـحجِّ وعـيًـا لخطبـهِ الضـخمِ وعـيَـا
لو نحــرنا تفـــريطنا وبدلنا الـ
ـحجِّ مـــالاً يُســـاقُ للقـــدس هديا

(١) عمر بهاء الدين الأميري حياته وشعره (رسالة دكتوراه) ١/ ٢٣٨ والأبيات في ديوانه إشراق ٦٦-٧٦
(٢) ديوان مع الله ١١٥

فـــإذا مـــا تحـــرّر المســـجـــد الأقـ
ـصى فـــحجٌ حقٌ وعـــيـــدٌ ولُهـــيــا[1]

وأمُّ القرى هذه المدينة المختارة تعلو على كل المدن، ولا تكاد مدينة في الدنيا تدانيها، فسر اختيارها هو سر عظمتها، كما يرى أحمد بن محمد الشامي:

بـــابـــي وبـــي أمُّ الـــقُـــــــــــرى
بـــيـــتُ الـــذي خـــلـــقَ الـــورَى
أمُّ القُـــرى اخْـــتِـــيـــرتْ علـى
عِـلْـمٍ تـقـــــدَّسَ جـــــــوهَـرَا
كم ســـافـــرتْ فـــيـــهِ العـــقـــو
لُ، وكم تـهـــاوتْ حُـــســـّـــرا
الـــلـــهُ مـــن بـــرأ الأوا
دِمَ والشَّـــمـــوسَ وصَـــوَّرَا
ولـهُ مـن الأســـمـــاء احــ
ـسَنُ مـــا يُـقـــالُ ولا يُـرَى
فـي ذلـكَ الـوادي الجـــديــ
ـبِ أمـــازهـا وتـخـــيَّـــرا
لا فـي مـــــرابـعِ أرُجـــا
نَ ولا ســـفـــوحِ ســـويســـرا
ســـرٌ تـعـــالـى كـنـهُـــهُ
وجـــلالـهُ أنْ يـظـهـــرَا
أو أن يُـتـــرجَمَ أو يُـفـــسـ
ـسَـــرَ أو يُـفَـلْـسَـفَ لـلـوَرَى[2]

****

(1) ديوان من وحي فلسطين ١٠٢

(2) ديوان الشامي ٣ / ١٣٠٩

القسم الثاني

من أغراض الشعر في مكة وموضوعاته

من أغراض الشعر في مكة وموضوعاته

جمعنا بين الأغراض والموضوعات التي تعاورها الشعراء في مكة، حتى تلتحم الأجزاء، وتظهر لنا صورة مكة في الشعر واضحة تامة، ومن بين هذه الأغراض والموضوعات التي تناولناها: (الفخر، والمدح، والوصف، والغزل، والحنين، والشعر التعليمي، والشعر التاريخي) وقد جلينا في هذه الأغراض والموضوعات ما يرتبط بمكة فقط، دون النظر إليها كأغراض أو موضوعات شعرية تقليدية، فالمدح لا يكون مدحًا إلا إذا ذكرت مكة، أما إذا مدح أمير من أمراء مكة دون ذكرها، فهذا ليس غرضنا، وقد سرنا على هذا المنهج في بقية الأغراض والموضوعات.

أولاً: الفخر القديم

الفخر بالانتماء للمكان لم يكن ظاهرة واضحة في الشعر القديم، إذ استقر الفخر بالأنساب والقبيلة عرفًا تناوله الشعراء في أشعارهم جيلاً بعد جيل، ومما يلفت النظر أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم وجّه كعب بن مالك توجيهًا نبويًا كريمًا بأن يفخر بدينه، عندما قال:

مدافعنا عن جِذمنا كلُّ فخمةٍ
مُذَرَّبَةٍ فيها القوانِسُ تَلْمَعُ

فقال له: قل عن ديننا.

حتى جاء نهار بن توسعة اليشكري، فقال:

أبي الإسلام لا أبَ لي سواهُ
إذا افتخروا بقيسٍ او تَميمِ

ولكنّ مدّ الفخر بالنسب يستمرّ في غلوائه، ويشتد، وبخاصة في العصر الأموي، والناظر في النقائض وفي دواوين أعمدتها (جرير والفرزدق والأخطل) يجد ذلك واضحًا جليّاً.

ولكن مكة بين بقاع الأرض لها فرادتها وقداستها وعظمتها في القلوب، ومن هنا جاء الفخر بالانتساب إليها مكانًا مبكرًا، حتى أولئك الذين مزجوا في فخرهم بين النسب والمكان، فإنّ هذا المزج نبع من هذه الخصوصية، ولا يهمنا بعد ذلك سريان هذا اللون المكاني من الفخر عندما أرسي بناء المدن الإسلامية الجديدة، وبدأ التعلق بالمكان والانتماء إليه أمرًا مألوفًا.

وحقّ لمكة أن تفخر على غيرها من الحواضر، وحقّ لأهل مكة وشعرائها أن يفخروا بانتسابهم إليها، إذ إنّ قريشًا نالت مكانتها وعظمتها بين العرب كونها تسكن مكة، ولتوارثها حماية البيت، سميت (أهل الله) ويفسّر الثعالبي ذلك فيقول: (لما تميزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم والفضائل والخصائص التي هي أكثر من أن تُحصى.

فمنها مجاورتهم بيت الله تعالى، وإيثارهم سكن حرمه على جميع بلاد الله، وصبرهم على لأواء مكة وشدتها، وخشونة العيش بها.

ومنها ما تفرّدوا به من الإيلاف والوفادة والرفادة والسقاية والرياسة واللواء والندوة.

ومنها كونهم على إرث من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.. ومنها كونهم قبلة العرب، وموضع حجهم الأكبر)[1].

قال بعض السلف: حسبك من قريش أنهم أهل الله، وأقرب الناس بيوتًا من بيت الله، وأقربهم قرابة من رسول الله، ولم يسمّ الله تعالى قبيلة باسمها غير قريش، وصارت فيهم ولهم الخصال الأربع التي هي أشرف خصال الإسلام: النبوة والخلافة، والشورى، والفتوح[2].

---

(١) ثمار القلوب ١٠– ١٢

(٢) المصدر السابق ١٢

وقال الأعشى يعاتب رجلاً ويخبره أنه مهما بلغ فلن يبلغ مبلغ قريش:

فمـا أنتَ من أهلِ الحَجـونِ ولا الصَّفَا
ولا لكَ حقُّ الشُّـربِ من مـاءِ زمـزمِ[1]

وفي تسميتها بآل الله، يقول محمد بن عبدالملك بن صالح الهاشمي:

أنـا ابـنُ آل الـلـهِ مـن هـاشـمٍ
حـيثُ نما خـيـرٌ وإحـسـانُ
من نبـعـةٍ منهـا نبي الهُـدى
مُـونِقَـةٍ والفـرعُ فَـيـنانُ[2]

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله في فضل كنانة وقريش «إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى هاشمًا من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[3].

وقال دغفل النسابة: (فاخر بكنانة، وكاثر بتميم، وحارب بقيس)[4]

قال الشاعر:

وقـد عَلِمَ الـنـاسُ عند الفَـخـا
رِ أنّ كـنـانـةَ أنـفُ الـعـربْ[5]

وهذا قصي بن كلاب أول زعيم لمكة من قريش يتسلم حجابة الكعبة، وأمر الرفادة والسقاية والندوة والقيادة، يفاخر بأرومته، ويعتدّ بنسبه، ويشعر بالاعتزاز كونه من مكة وبها تربّى:

أنـا ابـنُ الـعـاصـمـين بنـي لـؤيٍّ
بمـكـةَ مـولـدي وبـهـا ربـيـتُ

---

(١) ديوان الأعشى وثمار القلوب ١٥
(٢) ثمار القلوب ١٥
(٣) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي كتاب الفضائل ١٧٨٢/٤
(٤) العقد الفريد ٣٢٩/٣
(٥) البرصان للجاحظ ٣٠١

ولي البطحاءُ قد علِمتْ مَعَدٌّ
ومروتُها رضيتُ بها رضيتُ
وفيها كانت الآباءُ قَبْلي
فما شُويَتْ اخيَّ ولا شُويتُ
فلستُ لغالبٍ إن لم تأثَّلْ
بها أولادُ قَيْدَرَ والنَّبيتُ[1]

كما يفتخر حذافة بن غانم الجمحي بأن كانت مكة دار إقامة له، تلك البيئة القاسية القليلة المياه، ومن هنا فإنه يفتخر كذلك بحفر الآبار، ويجعل ذلك مما يفتخر به، فيقول:

اقمنا بها والناسُ فيها قلائلٌ
وليس بها إلاَّ كهولُ بني عمرِو
هُمُ ملأوا البطحاء مجدًا وسؤددًا
وهم طردوا عنها غواةَ بني بكرِ
وهمْ حفروها والمياهُ قليلةٌ
ولم يستقى إلا بنكدٍ من الحفرِ[2]

بل إن الفخر بالانتساب لمكة والنزول فيها يختلف من مكان لآخر، فمن ينزل بالبطاح غير الذي ينزل بالظواهر، قال القرشي:

هلاَّ سألت عن الذين تبطَّحوا
كرم البطاح وخيرَ سرّة وادِ
وعن الذين أبَوْا فلم يُسْتَكْرهوا
ان ينزلوا الولجاتِ من اجيادِ
يخبرْك اهلُ العلمِ انّ بيوتَنا
منها بخيرِ مضارب الأوتادِ[3]

---

(١) اخبار مكة للازرقي ١/١٠٧
(٢) اخبار مكة للازرقي ١/ ١٠٨
(٣) الكامل للمبرد ١/ ١٤٧

قال البكري: (الأبطح بمكة معلوم، وهي البطحاء [1] وجاء في اللسان: (بطحاء مكة وأبطحها معروفة لانبطاحها، ومنى من الأبطح، وقريش البطاح الذين ينزلون ما حول مكة، قال:

فلو شَهِدَتْني من قُريشٍ عصابَةٌ
قريشِ البطاحِ، لا قُريشِ الظواهِرِ[2]

وعن الأزهري، قال ابن الأعرابي: (قريش البطاح الذين هم ينزلون الشّعب بين أخشبي مكة، وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج الشعب، وأكرمهما قريش البطاح) ولذلك كان الشعراء يمدحون الرسول عليه الصلاة والسلام، بالأبطحي، يقول عبدالرحيم البرعي:

الأبطحيّ المنتقى من غالبٍ
والطاهرِ الطُّهرِ البشيرِ المنذرِ[3]

وتتنوع مظاهر الفخر، ولا تقف عند حد الانتساب لمكة والسكنى فيها، فالفخر بولاية مكة له وقع في نفوس من ولي أمرها، فهذا الحارث بن مضاض الجرهمي يتغنى بهذه الولاية قائلاً:

ونحن وَلِينا البيتَ من بعد نابتٍ
بعزٍّ فما يَحْظَى لدينا المُكاثرُ
مَلَكْنا فَعَزَّزْنا فأعظمْ بمُلْكِنا
فليس لحيٍّ غيرِنا ثمَّ فاخِرُ[4]

وبالولاية نفسها يفتخر عمرو بن الحارث الغبشاني أحد بني خزاعة، فيقول:

نحن وَلِيناه فلم نغشّهْ
وابنُ مُضاضٍ قائمٌ يهشّهْ
يأخذ ما يُهدى له يفشّهْ
نتركُ مالَ اللهِ ما نمسّهْ[5]

---

(١) لسان العرب مادة (بطح)
(٢) لسان العرب مادة (بطح)
(٣) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٢ / ٨٠
(٤) سيرة ابن هشام وأخبار مكة ١/ ٩٧-٩٨
(٥) أخبار مكة للأزرقي ١/ ١٠٢

وكانت الأعمال التي تناط بأبناء قصي في خدمة البيت الحرام مثار اعتزاز وافتخار، كقول أبي طالب مفتخرًا بالسقاية:

وكــان لنا حــوضُ السِّقــايةِ فــيــهمُ
ونـحن الكُدَى من غــــالبٍ والكواهلُ

ويفتخر سوّار بن أوفى القشيري بما اعطاه نهيك القشيري وكان جوادًا لحجاج بيت الله من ماله، فيقول:

ومـنّا نُـهــــيكٌ انهب الناسُ مــــالَهُ
مــــئين الوفــا لا جـــرادٌ يَرومُـــهَـــا
فطارتْ على ايدي الحــجــيجِ واحــفظتْ
قــريشًــا وظنّتْ انّ ذاكَ يُليــمُــهَـــا[1]

ويقول فهد الجريوع: (ولعلَّ من أبرز المعاني الغريبة التي افتخر بها الشاعر الكناني ما يُعرف بالنسيء، وهو أمر اختصت به كنانة، فكان بنو مالك بن كنانة ينسئون الشهور، فيؤخرون المحرم ويبيحون القتال في الأشهر الحرم، وهذا ما حرّمه الإسلام وجعله توغلاً في الكفر، ولكن شعراء كنانة الجاهليين كانوا يرونه مفخرة لهم و يتباهون به بين قبائل العرب، فمن ذلك قول عمير بن قيس بن جذل الطعان:

لقــــد علمتْ مــــعـــــدٌ انَّ قـــومي
كــــرامُ النَّاسِ إنَّ لـهم كِـــــرامَــــا
السنْا الناسِــئين على مـــعـــدٌ
شــــهــورَ الحِلِّ نَجْــعلُهَـــا حَــرامَــا

وكان افتخارهم بالنسيء منطلقًا من إحساسهم بقيمة قبيلتهم، وبمكانتها الدينية، ويؤكد القلمس الكناني أنَّ من كان هذا شانه، فإنّه موفور الحظِّ والنصيب، حيث يقول:

وانّــا اريــنــاهــمْ مــنــاسـكَ ديــنــهـم
وحُـــزنا لـهم حظّاً من الحظِّ اوفـــرًا[2]

---

(١) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ٣٥٠

(٢) شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي (رسالة ماجستير) وانظر الاوائل لأبي هلال العسكري ١ / ٩٢

و يقول عبدالله بن وداعة مفتخرًا بابن عمه سعد بن سهم الذي يُعدُّ أول من بنى بيتًا بمكة، ويثني عليه أيضًا بتوثيق عهود مكة وأحلافها وإشاعة الود بينهم بحصافة رأيه وعميم فضله، وكرم أصله:

وسعدُ السّعودِ جامعُ الشّمل إنّهُ
بدا الحِلْفَ والأحْلافُ أهلُ خلافِ

فأوثقَ عهدَ الحلفِ والودَّ بينهمْ
بأمرِ حصيفٍ فيهمُ ونصافِ

وذلك ما أرسى ثبيرُ مكانَهُ
وما بلَّ بحرٌ صوفةً بنطافِ

وأولُ من بوّا بمكةَ بيتَهُ
وسوّرَ فيها مسكنًا بأثافي

وأكرمُ مَنْ تحت السّماءِ أبوةً
وأمجد امّا عطّفتْ بعطافِ

وذاك ابن عمٍّ سادَ غيرَ مُكَلّفٍ
ولكنْ بإفضالٍ وفضل عفافِ(١)

ويفخر ذو الرمة بجذوره وأصوله، فجرثومة الشجرة التي ينتمي إليها هي مضر أبو العرب العدنانية، وساكن مكة، وهذا الفخر كما ترى فخرًا عامًّا، فهذا الشاعر عدوي يستظل بشجرة تميم التي هي من غرس الجد الأكبر أُدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر، يعتد بهذا الفخر، ويمتدّ ليحوز البدايات منذ سيدنا إبراهيم عليه السلام، وبنائه الكعبة، وتنقل في فخره من جرهم إلى معد وعدنان، ثمَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلائف من بعده، ولا يكتفي بالأنساب بل إنّ المكان أيضًا هو الذي قوّى فيه روح هذا الفخر، فمواقف الحجاج في المشاعر ومنى والمزدلفة ومكة بكل ما فيها تبعث هذا الفخر، كما في هذا الشعر الفاخر:

لنا الهامةُ الكبرى التي كلُّ هامةٍ
وإنْ عَظُمَتْ منها أذلُّ وأصغرُ

---

(١) الأوائل ١ / ٩٤ والنطاف: جمع نطفة وهي الماء

إذا ما تَمَضَّرْنا فما الناسُ غيرُنا
ونُضْعِفُ إضعافًا ولا نَتَمَضَّرُ
إذا مُضَرُ الحمراءُ عبَّ عُبَابُها
فمن يتصدّى مَوْجَها حينَ تَطْحَرُ
انا ابنُ النَّبيينَ الكرام ومن دعا
ابًا غيرهمْ لا بُدَّ انْ سوفَ يُقْهَرُ
الم تعلموا اني سموتُ لمن دَعَا
لَهُ الشيخُ إبراهيمُ والشيخُ يُذكرُ
ليَاليَ تحتلُ الاباطحَ جُرْهُمٌ
وإذْ بابينا كعبةُ اللهِ تُعْمَرُ
نبيُّ الهدى منّا وكلُّ خليفةٍ
فهل مثلُ هذا في البَرِيَّةِ مَفْخَرُ
لنا الناسُ اعطاناهمُ اللهُ عَنوةً
ونحنُ لهُ واللهُ اعلى واكبرُ
انا ابن معدٍّ وابنُ عدنانَ انتمي
إلى من له في العزِّ وِرْدٌ ومَصْدَرُ
لنا موقفُ الدّاعينَ شُعْثًا عشيةً
وحيثُ الهدايا بالمشاعر تُنْحَرُ
وجمعٌ وبطحاءُ البطاحِ التي بها
لنا مسجدُ الله الحرامُ المُطَهَّرُ
وكلُّ كريمٍ من اناسٍ سَوائنا
إذا ما التقينا خلفنا يتاخّرُ
إذا نحنُ سَوَّدْنا امرءًا سادَ قومَهُ
وإنْ لم يكنْ من قبلِ ذلك يُذْكَرُ
هل الناسُ إلاّ نحنُ ام هل لغيرنا
بني خندفٍ إلاّ العواريَّ مِنْبَرُ

ابونا إياسٌ قَدَّنا من اديمهِ
لوالدِ تُدهي البنينَ وتُذكِرُ
ومنّا بُناةُ المجد قد عُلِمتْ بهِ
مَعَدٌّ ومنّا الجوهرُ المُتخيَّرُ
انا ابنُ خليلِ اللهِ وابن الذي له الـ
ـمَشاعرُ حتى يَصْدُرَ الناسُ تُشْعَرُ

وينشد الفراء شعرًا يفتخر فيه صاحبه بكرامة قومه على الإنس والجن، وأنهم يشعلون نيران القرى للأضياف في حراء:

ألَسْنا اكرمَ الثقلينِ رحلاً
واعظمَهم ببطن حِراءَ نارا(١)

ويفتخر الحريش بن هلال القريعي، وتروى للعباس بن مرداس، بحضوره غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وشهود خيله يوم فتح مكة، فيقول:

شهدتُ مع النبيِّ مُسوماتٍ
حُنينًا وهي داميةُ الحوامِي
ووقعةَ خالدٍ شهدتْ وحكّتْ
سنابكَها على البلدِ الحرامِ(٢)

وهذا الشريف المرتضى يفخر وفخره تليد وموروث وطارف وحديث، وهل هناك فخر أعلى وأرقى في سلم الأمجاد من كون البيت الحرام وما يحويه هو للمفتخر وله فيه الدرجة العليا والصدارة، يقول:

امَّا الطريفُ من الفخارِ فعندَنا
ولنا من المجد التَّليدِ سنامُهُ
ولنا من البيت المُحَرمِ كلّمَا
طافتْ به في موسمٍ اقدامُهُ

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٨
(٢) شرح ديوان الحماسة ١ / ١٤٠

ولنا الحطيمُ وزمزمٌ وتراثنا
نِعْمَ التراثُ عن الخليلِ مقامُهُ
ولنا المشاعر والمواقفُ والذي
تُهدى إليه من منًى انعامُهُ
وبجدنا وبصنوه دُحيتْ عن الـ
ـبيت الحرام وزُعزِعتْ اصنامُهُ[1]

ويفتخر بأن بيوت آبائه وأجداده هي البيوت التي نزل فيها الوحي، ويكرر الفخر بكون المشاعر لهم، فيقول:

وبيوتُهم مأوى الرشادِ وبيتُهمْ
سُطِرَ الكتاب ونُزِّل التنزيلُ
وتراهمُ صُبْحًا وكلَّ عشيةٍ
ياتيهمُ ميكالُ او جبريلُ
فهمُ عن الأمر الدّني جوامدٌ
وهمُ إلى الأمر العليِّ سيولُ
بيتٌ اقام دعامَهُ وقبابَهُ
إمّا إمامٌ أو اخوهُ رسولُ
بيتٌ يناجي اللهَ حلاّلٌ به
وعليهمُ الأملاكُ فيه نزولُ
ومساكنٌ ما غاب عن افواههمْ
فيهنّ تقديسٌ ولا تهليلُ
لهمُ منًى والموقفان وزمزمٌ
والبيتُ والتطوافُ والتجويلُ
والحِجْرُ والحَجَرُ الذي لصفاته
ابدَ الزمانِ الضمُّ والتّقبيلُ[2]

---

(١) ديوان الشريف المرتضى ١ / ١٦١
(٢) المصدر نفسه ٣ / ٣١

وهذا جرير بن عطية الخَطفَى يفتخر بوراثة النبوة، وأنّ منهم من كان يجيز جمع الحجيج، يقول:

لنا حوضُ النبيِّ وساقياهُ
ومَنْ ورثَ النبوّةَ والكتابَا
ومنّا من يجيزُ حجيجَ جمعٍ
وإنْ خاطبتُ عزّكمُ خطابا[1]

ويعير جرير تغلبًا، ويفاخرهم بالبيت الحرام والمشاعر، فيقول:

إنّ الذي حرمَ المكارمَ تغلبُا
جعلَ النبوّةَ والخلافةَ فينا
هل تملكون من المَشاعِر مَشْعَرًا
او تشهدون مع الأذانِ اذينا
مضرُ ابي وابو الملوكِ فهل لكم
يا خُزْرَ تغلبَ من ابٍ كابينا[2]

والفرزدق كذلك يفتخر بوراثة بيت خليل الله، يقول:

ورِثْنا عن خليلِ اللهِ بيتًا
يُطيِّبُ للصلاةِ وللطهورِ
هو البيتُ الذي من كلِّ وجهٍ
إليهِ وجوهُ أصحابِ القبورِ
خيارَ اللهِ للإسلامِ إنّا
إليكَ نشدُّ انساعَ الصُّدورِ[3]

ويمتد فخر الفرزدق ليفتخر بملكية البيتين بيت الله الحرام في مكة وحمايته، وبيت المقدس في إيلياء، يقول:

---

(١) ديوان جرير ٧٩

(٢) المصدر نفسه. الأذين: الأذان. الخزر: شعب من الترك يسكن حول بحر قزوين.

(٣) ديوان الفرزدق ١ / ٣٥٠

لنا العزةُ الغلباءُ والعددُ الذي
عليهِ إذا عُدَّ الحَصَى يَتَخَلَّفُ
وبيتانِ: بيتُ اللهِ نحنُ حماتُهُ
وبيتٌ بأعلى إيلياءَ مُشرَّفُ
لنا حيثُ آفاقُ البريَّةِ يلتقي
عميدُ الحصى والقسوريُّ المُخَنْدِفُ
إذا هبطَ النَّاسُ المُعَرَّفَ من منًى
عشيةَ يومِ النَّحرِ من حيثُ عرَّفوا
ترى الناسَ ما سِرْنا يسيرون خَلْفَنا
وإنْ نحنُ أومَأْنا إلى النَّاسِ وقَّفُوا[1]

ويتكرر فخره، فيقول:

ورثنا كتابَ اللهِ والكعبةَ التي
بمكةَ محجوبًا عليها سُتُورها[2]

ويتكرر الفخر بالطريقة نفسها عند ذي الرمة الذي يرى ملكية المواقف المقدسة والمشاعر الكريمة، فيقول مفتخرًا:

أنا ابنُ النبيينَ الكرام ومن دعا
أبًا غيرهم لا بدَّ أن سوف يُقْهَرُ
ألمْ تعلموا أنّي سموتُ لمن دعا
له الشيخُ إبراهيمُ والشيخُ يُذكرُ
لياليَ تحتلُّ الأباطحَ جُرْهُمٌ
وإذْ بابينا كعبةُ اللهِ تُعْمَرُ
نبيُّ الهُدى منا وكلُّ خليفةٍ
فهل مثلُ هذا في البَرِيَّةِ مَفْخَرُ

---

(١) ديوان الفرزدق ٣٨٣ – ٣٩٤ وفي شرح الديوان للصاوي ٢ / ٥٥١ – ٥٦٩
(٢) ديوان الفرزدق ١٩٧ وشرح الديوان للصاوي ١ / ٢٧٤

لنا الناسُ أعطاناهُمُ اللهُ عنوةً

ونحنُ لهُ واللهُ أعلى وأكبرُ

لنا موقفُ الداعينَ شُعْثًا عشيةً

وحيثُ الهدايا بالمشاعرِ تُنْحَرُ

وجمعٌ وبطحاءُ البطاحِ التي بها

لنا مسجدُ اللهِ الحرامُ المُطهَّرُ[1]

ويفتخر عبدالله بن قيس الرقيات بحجابة البيت في قصيدة همزية جميلة، يفاخر فيها بني أمية، ويهددهم، فيقول:

ليسَ للهِ حرمةٌ مثلُ بيتٍ

نحنُ حُجّابُهُ عليهِ الملاءُ

خصَّهُ اللهُ بالكرامةِ فالبا

دونَ والعاكفونَ فيهِ سواءُ[2]

وقال النعمان بن بشير مفاخرًا بفتح مكة ومهددًا معاوية بن أبي سفيان:

ضَرَبْناكُمُ حتى تفرَّقَ جَمْعُكُمْ

وطارت أكفٌّ منكمُ وجماجمُ

وعاذت على البيتِ الحرامِ عوانسٌ

وأنتَ على خوفٍ عليكَ تمائمُ[3]

وفي الموضوع نفسه يأتي رجل من اليمن بعد قرون، فيفخر الفخر نفسه، يقول محمد ابن أحمد الأوساني اليمني مفتخرًا بأن أجداده هم الذين فتحوا مكة:

ونحنُ جَدَعْنا أنفَ قَيسٍ ولم ندعْ

بمكةَ من يَنْثُوا ومن يَتكَلَّمُ[4]

---

(١) ديوانه ١ /١٦٢

(٢) ديوانه ٨٧ . الملاء: القائمون

(٣) شعرالنعمان بن بشير ١٥٥

(٤) المحمدون من الشعراء ٨٢

ويظهر الفخر المعكوس، فهذا عمر بن أبي ربيعة يعكس طرفي الفخر، فبدل أن يفتخر بانتسابه لمكة، فإنّ مكة وبقاعها تفخر بهم، فيقول:

فــهــلاّ تَسْــألي أفْنَاء سَــعْــدٍ
وقــد تَبْــدو التّــجــاربُ للّبــيـبِ

سَــبَــقْنَا بالمكارمِ واسْــتَــبَــحْنَا
قُــرَى مــا بينَ مــاربَ فــالدّروبِ

ونحن فــوارسُ الهَــيْــجــا إذا مــا
رئيسُ القــوم اجــمــعَ للهــروبِ

نقــيمُ على الحِــفَــاظ فلن ترانا
نَشُلُّ نخــافُ عــاقــبــةَ الخُطُوبِ

ويمنعُ سِــرْبَنَا في الحــربِ شُمٌّ
مــصــاليتٌ مَــسَــاعــرُ للحــروبِ

ويامنُ جــارُنَا فــينا وتلْقَى
فــواضلنا بمحــتــفظٍ خَــصِــيبِ

ولوسُــئلتْ بنا البطحــاءُ قــالتْ
هُمُ اهلُ الفــواضلِ والسّــيــوبِ

ويُشــرقُ بطن مكة حينَ نُضــحي
بـه ومناخُ واجــبــة الجُنوبِ[1]

وتفتخر مكة بشيخ العلماء الشيخ محمد صالح كمال، كما ورد في مدح عبدالمحسن الصحاف له، حيث يقول:

كــمــالُ علمكَ قــد زانتْ به الرتبُ
ومكةُ عَــمَّــهــا من فَــخْــرِهَا الطَّربُ[2]

---

(١) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٣٧٩-٣٨٠

(٢) نشر الرياحين ٢/ ٦١٧

الفخر الحديث:

وكما افتخر القدماء بالانتماء لمكة، فإنَّ المحدثين هم كذلك يفخرون بمكة القداسة والعظمة والشرف والتاريخ، ويعتزون بمشاعرها، ويزدهون بمكانتها، يقول أحمد قنديل:

انت ابصرتنا بواديك نحيا
كِ حياةً مليئةً بكِ فَخْرًا

ويفخر محمد حسن فقي بأنّها مسقط رأسه، وأنّه فتح عينيه فوق الثرى الذي درج عليه سيد الخلق، وصحابته الأماجد:

لقد عشتُ فيها منذ ستينَ حجةً
فَاطربني اني بمكّةَ مولدي
لقد ولد المختارُ فيها فاشرقتْ
دياجيرُها بالنّورِ من خيرِ محتدِ
وقد وُلِدَ الامجادُ من كلِّ ملهمٍ
بشقٍّ يراعٍ او بحدٍّ مُهَنَّدِ[1]

وبماذا تفخر مكة؟ إنّها تفخر بميلاد سيد ولد آدم وصفوة الخلق، وبها نزل القرآن الكريم، وفيها الكعبة المشرفة، وهي قبلة المسلمين، وفيها المقام والحطيم وزمزم، وكل المشاعر التي تهوي إليها أفئدة المسلمين، أفلا يحق لأم القرى أن تفخر بكل هذه المزايا، يقول الشاعر أحمد قنديل على لسانها:

امهاتُ القُرى لديكُمْ وإنّي
انا أمُّ القُرى على الدهرِ كُبْرى[2]

ولهذه المزايا حُقَّ لها أن تفخر على سائر بقاع الدنيا، كما يرى محمد حسن فقي:

قد تركتِ البريقَ للبلد الخَا
ملِ ماذا يُجْدي عليكِ البريقُ[3]

(١) مكتي قبلتي ٧٣
(٢) المرجع نفسه ٣٨
(٣) المرجع نفسه ٧٠

ولماذا نفتخر بها؟ لأنها كما يقول زين العابدين:

هي أغلى البلادِ عندي وأسمَى
أمةٍ في صعيدِهِ نتباهَى
هي مني الحياةُ والرّوحُ والحِسْ
سُ ونجْوى الفؤادِ ما أغلاها[1]

ويفخر محمد هاشم رشيد ومنبع هذا الفخر أن أرض الحجاز تضم كل شيء، يقول:

وقفتُ عليكِ وفي أضلعي
أحسُّ بأنّي أضمُّ الجزيرةْ
وأسمعُ صوتكِ في مسمعي
يُدمدِمُ بالذكرياتِ النّضيرةْ
فذكرى أراها بأرضِ الحجازِ
ترفرفُ فوقَ السهولِ الفِسَاحْ
فأشعرُ بالفخرِ والإعتزازْ
وألثمُ كلَّ الرُّبى والبِطَاحْ[2]

ثانيًا: المديح

لا يعنينا هنا المديح على إطلاقه، ولا يظن القارئ أننا نريد المدح المتعلق بالأشخاص الذين حكموا مكة أو تولوا أمرها، فنكرر ما قاله من عرضوا للشعر في بيئة مكة في عصورها المختلفة، لأن خطتنا كما أوردنا ذلك في مقدمتنا للكتاب أننا لا نريد تطويل البحث بما لا يرتبط به ارتباطًا وثيقًا، وإنما نقصد هنا المدح المتعلق بمكة، فإذا ذكرت مكة في مدح الشخص سواء أكان من مكة أو من خارجها، فهذا ما يعنينا هنا، إذًا هو ذلك المديح المرتبط بمكة حديثًا عن صفاتها، أو ذكرًا لأماكنها وما حدث فيها، ولعلنا نبدأ بالمديح النبوي.

(١) المرجع نفسه ٢٤٧
(٢) الشعر الحديث في الحجاز ٦

• المديح النبوي

والبداية به تشريف، وسنقتصر في مديحه صلى الله عليه وسلم على ما ارتبط بمكة ارتباطًا وثيقًا، كالحديث عن حال مكة عند ولادته، أو في مبعثه، أو عند فتحها.

والمديح النبوي بدأ مع بداية تأسيس الدولة، فكان شعراء الدعوة: حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك، هم نواة هذا المديح، ثم بدأ يتسع ليشمل الشعراء المنضوين تحت لواء الإسلام، أو الذين تابوا وأنابوا، مثل كعب بن زهير، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وعبدالله بن الزبعرى، ولسنا بصدد ذكر كل الشعراء الذين مدحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن غايتنا مقصورة على الحديث عن مكة حتى لا نخرج عن شرط البحث وخطته وتكييفه، ومن هنا فالمدح النبوي المتعلق بمكة هو مطلبنا.

وما أطلق عليه من غرض المديح النبوي بعد وفاة النبي عليه السلام اشتدَّ اشتدادًا عارمًا في قرون الضعف، وفي الفترات التي كانت فيها الدولة أو الدول الإسلامية تواجه أعتى الحملات، كما في عصر الحروب الصليبية، والحروب المغولية والتترية، ولذلك نرى أن هدير هذا المدح بدأ يشتد في القرن الخامس واستمرَّ مريره حتى القرنين الثامن والتاسع، ولا يعني هذا أن القرون القبلية والبعدية خلت من مدحه عليه الصلاة والسلام، لا لم يخل عصر بل فترة من مدحه، فمدحه غاية وشرف، ولكن أقول: إن المدائح النبوية كانت في تلك الفترة في أظهر حالاتها، وفي هذا الصدد يقول الدكتور شوقي ضيف: (وانبثقت من الشعر الصوفي منذ ابن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري مدائح نبوية عطرة بالسيرة الزكية، وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح، ويزدهر، ونظن ظنًا أنه كان للحروب الصليبية أثر في ذلك) وقراءة قصائد المديح النبوي تطلعنا على ثلاث حلقات أو مفاصل تربط ما بين شخصية الرسول الأعظم عليه السلام ومكة المكرمة، وهي:

الميلاد والبعثة والهجرة هذه الوحدات الثلاث التي تعاورها الشعراء في مدحه عليه السلام هي قصدنا، ويمر الشعر المدحي من خلال البعثة على بعض الحوادث التي حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، كنقض الصحيفة، وحادثة الإسراء والمعراج،

وبعض معجزاته عليه السلام، ولقد تتبعتُ المجموعة النبهانية في المدائح النبوية فوجدت اتفاق الكثير من القصائد المدحية على عرض هذه الإضاءات ، ولذلك فإنني سأقتصر على إيراد بعض النماذج اختيارًا لا تفضيلاً.

فميلاد المصطفى عليه السلام وارتباطه بمكة التي حازت الفخار بمولده، وضجت سرورًا وفرحًا، هذه الأرض التي بها نشأ، وعليها درج تعلن فرحها ومسرتها بميلاده العظيم ، فالشاعر الإمام يحيى الصرصري من شعراء القرن السابع الذي يُعدُّ من أكثر الشعراء مدحًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، يمزج ما بين الولادة وعام الفيل يقول معلنًا أنّ ميلاده كان من أسرار رد حملة ابرهة، وبه أشرقت عرصات الأرض:

ثمَّ استقلّتْ به الزهراءُ آمنةُ الـ
حصانُ لمْ يلْقها في الحملِ تثقيلُ
حتى بدا عامُ سارتْ نحوَ مكةَ او
شابُ الأحابيشِ يحدو جيشَها الفيلُ
فكانَ من سرِّهِ المكنونِ انْ دَفعَتْ
عنها أعاديها الطيرُ الأبابيلُ
فأشرقتْ عَرَصاتُ الأرضِ حينَ بدا
نورٌ لهُ في الطباقِ السّبعِ تجويلُ[1]

والشيخ عبدالعزيز الزمزمي من شعراء القرن العاشر يرى ازدهاء الليل والنهار لمولد النبي عليه الصلاة والسلام، وتبتهج مكة سرورًا بمقدمه :

يوم ميلادهِ وليلة مَسْرا
هُ ازدهى الليلُ والنهارُ ازدهاءَ
وسما القدرُ منهما بفخارٍ
طبَّقَ الأرضَ سؤددًا والسَّماءَ
وامتلتْ مكةُ سرورًا ولِمْ لا؟
يملأ البِشْرُ قُطرها سرّاءَ

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٣ / ٢٣

هي أرضٌ فيها ولادةُ طه
وهو منها قد ابتدا الإسراءَ

كان تردادُهُ ومرباهُ فيها
فجلا نورُ شمسه البطحاءَ

وعلا الأنسُ والبهاءُ جبالاً
راسياتٍ بها خصوصًا حراءَ[1]

وذكر الإسراء وانتقال الرسول الكريم من مكة إلى القدس يعرض له الشعراء ويراه البرعي فوق كل فخر، وأكرم من كل كرامة كما في قوله:

تناهى فخرُ كلَّ أخي فخارٍ
ولن تلقى لمفخرهِ انتهاءَ

كَفَتْهُ كرامَةُ المعْراجِ فضْلاً
بها في القُربِ سادَ الأنبياءَ

سرى من مكةٍ ببراقِ عزٍّ
لأقصى مسجدٍ وعلا السماءَ[2]

وكما ذكر البرعي في النموذج السابق عن الإسراء من البيت الحرام، يشير إليه الحافظ بن حجر في مدحته فيقول:

سرى للمسجدِ الأقصى بليلٍ
من البيتِ الحرامِ إلى السماءِ

رفيقُ الروحِ بالجسم ارتقى في
طباقٍ حُفَّ فيها بالهناءِ

عَلا ودَنا وجازَ إلى مَقامٍ
كريمٍ خُصَّ فيهِ بالاصْطِفَاءِ[3]

---

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ١ / ١٦٠
(٢) المصدر نفسه ١ / ١١١
(٣) المصدر نفسه ١ / ١٤٨

وعرض الشاعر يوسف النبهاني جامع المدائح النبوية في قصيدته الهمزية (طيبة الغراء في مدح سيد الأنبياء) لحادثة الإسراء والمعراج، وينهيها بتكذيب كفار مكة لهذه الرحلة السماوية، فيقول:

ثمَّ عادَ الضيفُ الكريمُ إلى الأهـ
ـلِ وتمَّتْ مِنْ ربِّهِ النَّعماءُ
عادَ قبلَ الصباحِ فارتابَ في مكْـ
ـكَةَ قومٌ من قومِهِ بُلَداءُ
اعظموا الأمرَ وهْو فعلٌ عظيمٌ
لمْ تُشابهْ صِفاتِهِ العظماءُ[1]

أمّا حصار الشعب ونقض الصحيفة، فهو من جملة ما تحدث عنه الشعراء في مدائحهم، من ذلك قول شرف الدين البوصيري:

خمسةٌ طُهِّرتْ بقطعِهمُ الأر
ضُ فكفُّ الأذى بهم شلاَّءُ
فُديتْ خمسةُ الصحيفةِ بالخمـ
ـسةِ إنْ كانَ بالكرامِ فداءُ
فتيةٌ بيَّتوا على فعلِ خيرٍ
حَمِدَ الصبحُ أمرَهم والمساءُ
يا لأمرٍ أتاهُ بعدَ هشامٍ
زَمْعَةُ إنَّهُ الفتى الأتَّاءُ
وزهيرٌ والمُطْعِمُ بنُ عديٍّ
وأبو البَخْتريِّ من حيثُ شاؤوا
نَقَضُوا مبرمَ الصحيفةِ إذْ شدْ
دَتْ عليهم منَ العدا الأنداءُ
أذْكَرتنا بأكلِها أكلَ مِنْسا
ةِ سليمانَ الأرْضَةُ الخَرْسَاءُ

(١) المصدر نفسه ١ / ٢٠٢

وبهـــا اخــــبـــرَ الـنبيُّ وكم اخْـ
ـرَجَ خَــبْــأً لـهُ الـغــيــوبُ خِـبــاءُ[1]

ويذكرون بعض معجزاته عليه السلام في مكة، مثل انشقاق القمر، يقول الصرصري:

ولـهُ بـالأباطـحِ الـقـــمـــرُ انشــقْـ
ـقَ بنصــفينِ ليسَ فــيـــهِ خَــفَــاءُ[2]

ويوصف الرسول عليه السلام بالأبطحي، كما في قول البرعي:

نـبـيٌّ هــاشـــــمـيٌّ ابْـطَـحِـيٌّ
شـمــائلهُ الـسّـمــاحــةُ والـوفــاءُ[3]

وتتكرر هذه الصفة عند جمال الدين بن نباتة، فيقول:

ومـــا انتــقـــبت مناقبُ ابطحيٍّ
وعنهــا الأرضُ تفـصحُ والسّـمــاءُ[4]

ويذكـر المادحـون هـجـرة المصطفى عليـه السـلام، ومـا حـدث فـيـهـا من نوم علي في فـراشـه، وخروجـه من بينهم، ووضـع التراب على رؤوسـهم، وتوجـهـه عليـه السـلام للغـار بصحبة أبي بكر الصديق، ولعل التشـابه يفرض علينا عرض نموذج لما أورده شرف الدين البوصيري في همزيته، حيث يقول:

لـلـه يـومُ خـــــروجِــــــهِ من مـكّـةٍ
كـــخــروجِ مــوسى خـــائفًــا يتــرقّبُ
والجنُّ تُنشــدُ وحـــشـــةً لفــراقـــهِ
شـــعــرًا تـفــيضُ بـهِ الـدمـــوعُ وتسكبُ
والـغـــارُ قـــد شَنّتْ عليـــهِ غــارةً
أعــداؤهُ حـــرصًــا عليــهِ واجلَبُــوا[5]

(١) المصدر نفسه ١ / ٨٢- ٨٣
(٢) المصدر نفسه ١ / ١٠٩
(٣) المصدر نفسه ١ / ١١٤
(٤) المصدر نفسه ١ / ١١٧
(٥) المصدر نفسه ١ / ٣٠٢

وأخيرًا يعبر المديح النبوي فتح مكة، هذا الفتح الأعظم الذي يذكره يوسف النبهاني في مدحيته المطولة، فيقول:

مـــا شـــفى النفسَ بعـــدَ هذا وهذا
غـيــرُ فـتـحٍ بهِ اســتـمـرَّ الشّـفـاءُ

فـــتـحُ امِّ القُـــرى وســـيـــدةِ الكُلْـ
ـلِ ســـوى طيـــبـــةٍ فكلٌّ إمـــاءُ

ايُّ فـــتـحٍ للمـــصطفى كـــان فـــيـــهِ
فـوقَ عـرشِ البـيـتِ الحـرامِ اسـتـواءُ

ايُّ فـــتـحٍ للمـــصطفى كـــانَ عُـــرسًـــا
ولامُّ الـقُـــــرى عـلـيـــــهِ جـــــلاءُ

اشـــرقتْ شـــمـــسُـــهُ ببـــرجِ كَـــداءٍ
فـــاســـتـنارتْ عـلى الـبطـاحِ كَـــداءُ

حَـسَـدتْهـا كُـدىً فلمّـا اسـتـشـاطتْ
هـاجَ فـيـهـا الـغـواةُ والـغَـوغَـاءُ[1]

وفي مقصورة الإمام عبدالرحمن المكودي من شعراء القرن الثامن والمتوفى في بداية القرن التاسع وصف حرفي ودقيق لفتح مكة، فقد جاءها بالكتائب الجرارة، فملأ بطاحها خيلاً ورجالاً، بعشرة آلاف فارس من مختلف القبائل، وأقبل الرسول عليه الصلاة والسلام في كتيبته الخضراء، تصحبها الركائب، ويظل مستمراً في وصفه ودخول مكة، وتحطيم الأصنام، والعفو عن الطلقاء[2].

• المديح العام

كما نجد في مديح ابن الزبِعْرى لقريش وعبدمناف، حيث يقول:

كـــانت قـــريشُ بيـــضـــةً فـــتـــفلّقتْ
فـــالمحُ خَـــالِصُـــهـــا لعـــبـــدِ منافِ

(١) المصدر نفسه ١ / ٢١٦

(٢) انظر المصدر السابق ١ / ٢٨١ – ٢٨٢

الرّايشينَ وليس يُوجَـدُ رايشٌ
والقـائلينَ هَلُمَّ للأضْيـافِ
والخـالطينَ غنيَّهم بفقيرهم
حتى يعود فقيرُهُمْ كالكافِي
والضّـاربينَ الكبشَ تَبْرقُ بيضَـةُ
والمانعينَ البيضَ بالأسْيـافِ
عمرُو العُلا هَشَمَ الثّريدَ لمعشرٍ
كانوا بمكةَ مسنتين عجافِ[1]

ويمدح الحطيئة ابن شماس مقسمًا بكل السارين إلى بيت الله قائلاً:

إليكمُ يا ابنَ شَمّاسٍ شَجَجْتُ بها
عُرْضَ الفَلاةِ إذا لاحَتْ فيافِيها
حتّى انَخْتُ قَلوصي في دياركمُ
بخيرِ من يَحْتذي نعلاً وحافيها
إنّي لعَمْرُ الذي يَسْري لكعبتِهِ
عُظْمُ الحَجيجِ لميقاتٍ يُوافيها
لقد تداركَني منه ولاحَمَني
سَيْبٌ كسا أعْظُمًا قد لاحَ عاريها
فليجزهِ اللهُ خيرًا من أخي ثقةٍ
وليَهْدِهِ بهُدَى الخيراتِ هاديها[2]

ويبدأ العصر الإسلامي بمدح أكرم الناس وصفوتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولعل العرض لمدح سيد الخلق على عمومه يخرج بنا عمّا التزمناه من ارتباط الموضوعات بمكة، ولذلك لنا من مدحه عليه الصلاة والسلام ما تذكر فيه مكة، من ذلك قول كعب في قصيدته المشهورة (البردة):

---
(١) أخبار مكة ١/ ١١٢ وإتحاف الورى ١/ ٣٧
(٢) ديوان الحطيئة ٢٨١

في فـتـيـةٍ من قـريشٍ قـال قـائلهُمْ
ببطن مكةَ لـمّـا اسْلَمُـوا زُولـوا
زالـوا فـمـا زال انكاسٌ ولا كُـشُـفٌ
عندَ اللقـاءِ ولا مـيلٌ مَـعـازيلُ(١)

ويقول أبو الأسود الدؤلي في مدح علي بن أبي طالب، وأنه ثالث العابدين بها، يوم لم يكن بها عابد لله:

امـا انـهُ ثـالـثُ الـعـابـديـ
ـن بمكة واللـهُ لا يُعـبـدُ(٢)

ويمدح عبيدالله بن قيس الرقيات عبدَ الله بن الزبير بأنه ابن مكة، فيقول:

انـتَ ابـنُ مـعـتـلِـج الـبـطـا
حِ كُـدَيِّـهـا فـكَـدائِـهـا
فـالـبـيـتِ ذي الأركـانِ فـالـ
ـمُـسْـتَـنِّ من بَـطْـحـائِـهـا (٣)

ويمدح الأحوص الخليفة الزاهد عمر بن عبدالعزيز بإرثه في مكة، فيقول:

ولـه إذا نُـسِـبَـتْ قـريشٌ منهـمُ
مَـجْـدُ الأرومَـةِ والـفَـعـالُ الأفـضلُ
ولـهُ بمكّةَ إذ امَـيَّـةُ اهـلُـهَـا
إرثٌ إذا عُـدَّ الـقـديمُ مُـؤثَّـلُ(٤)

وسقاية الحاج هي ما يُتمدَّح بها المرء، فمروان بن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى الذي ولي خراسان سنة ١٧٨هـ فأحسن السيرة، واتخذ جندًا من العجم سمّاهم العباسية، وجعل ولاءهم لهم، وإنّ عُدَّتهم بلغت خمسمائة ألف رجل، فيمدحه بحسن ولائه لبني ساقي الحجيج الذين ورثوا ذلك وراثة، فيقول:

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ١٩ – ٢٣
(٢) ديوانه ١٥٢
(٣) ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات ١١٧س
(٤) شعر الأحوص الانصاري ١٦٩

مـــا الـفـــضـلُ إلاّ شـــهـــابٌ لا أُفُـــولَ لـهُ
عند الحـــروبِ إذا مـــا تَأفُلُ الشُّـــهُبُ
حـــامٍ على مُلْك قـــومٍ عـــزَّ ســـهـــمُـــهُمُ
مـن الـوراثـةِ فـي ايـديـهـمُ ســـــبـبُ
امـــستْ يدٌ لبني ســاقي الحَـجـيـجِ بهـــا
كـــتـــائبُ مـــا لهـــا في غَـــيـــرِهِمْ اربُ
كـــتـــائبٌ لبني الـعـــبـــاسِ قـــد عَـــرفتْ
مـا ألّف الفـضلُ منهـا العُـجْمُ والعَـرَبُ[1]

وفي هذا المعنى يمدح معن بن أوس المزني حمزة بن عبدالله بن الزبير الذي له بطحاء مكة والسقاية، فيقول:

فـــــإنّك فـــــرعٌ من قـــــريشٍ وإنّمـــــا
تمدُّ النّدى منهـــا الفـــروعُ الشـــوارعُ
غَـنُوا قـــــادةٌ لـلناس بطـحـــــاءُ مكـةٍ
لـهم وسِـقـــايـاتُ الحَـجـيـجِ الدَّوافعُ[2]

ويمدح أبو دهبل الجمحي عبدالله الأزرق أحد ولاة عبدالله بن الزبير، لأنه أزهر من سكن البطحاء، يقول:

لا يـبـــعـــد اللـهُ عـــبـــدَالله لـيس لـه
عـنـدي مـــــزايـلـةٌ مـــــا هـبّت الريحُ
أزْهَرٌ من ســـاكنِ البـطحـــاء الحَـــقّـــهُ
بالمجـد والسـؤددِ البـيضُ المسـامـيحُ[3]

ومن مشهور المدح، ما ورد من مدح الفرزدق في علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، حيث الممدوح هو المعروف من جميع الأماكن في مكة، ويجعل

(١) شعر مروان بن أبي حفصة ١٨
(٢) جمهرة نسب قريش ٤٧ وشعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ١٦١
(٣) ديوان أبي دهبل الجمحي ٤٥

الشاعر العلاقة التي تربط الممدوح بهذه الأماكن علاقة ود ومحبة متبادلة حيث يمد الحطيم يده ليمسك يد الممدوح، يقول:

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتهُ
والبيتُ يعرفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كلهمُ
هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلمُ
إذا رأتهُ قريشٌ قالَ قائلُهَا
إلى مكارمِ هذا ينتهي الكرمُ
يُنْمى إلى ذُرْوَةِ العزِّ التي قَصُرتْ
عن نيلها عَرَبُ الإسلامِ والعجمُ
يكادُ يُمْسِكُهُ عرفانُ راحتهِ
ركنَ الحَطيمِ إذا ما جاءَ يَسْتَلِمُ[1]

ويمدح دعبل الخزاعي آل البيت لكونهم أهل مكة، فيقول:

يا آلَ بيتِ المصطفى
يا أهلَ مكةَ والصَّفَا
يا خيرَ مَنْ قد حَجَّ للْـ
ـبيت الحرامِ وعرّفَا[2]

ويمدح الشافعي آل البيت قائلاً:

يا راكبًا قِفْ بالمُحَصّبِ من مِنًى
واهتِفْ بقاعدِ خيفِهَا والناهضِ
سَحَرًا إذا فاضَ الحجيجُ إلى منًى
فَيْضًا كمُلْتَطِمِ الفُراتِ الفائضِ

---

(١) ديوان الفرزدق ٢/ ١٧٨

(٢) شعر دعبل الخزاعي ٣٤٣

إنْ كـــان رفْـــضًـــا حبُّ آل مـــحـــمـــدٍ

فَلْيــشْــهَــدِ الثَّــقــلانِ أنّي رافـضِي[1]

ويهتز البيت طربًا وشوقًا لقدوم الممدوح، كما أحسّ بالوحشة لبعده عنه، والمدح بصيانة مكة، وتطهيرها من المارقين، كما في قول شهاب الدين المرشدي في مدح الشريف مسعود بن الشريف إدريس:

وصنتَ مكةَ إذْ طـهّــرتَ حـــوزتَهـــا

من ثـلّـةٍ أهـلِ تـثـلـيثٍ وإلحــــــادِ[1]

وبدر الدين العليف يمدح حسن بن عجلان أمير مكة بالطريقة ذاتها، فعودته إلى إمارة مكة بعد عزله عنها تمثل عودة للفتح المبين، وتجديد لفتح النبي عليه السلام، وقد تطهّرت مكة من الرجس، كما في هذا المدح:

حـسـبي مـجـاورةُ المشـاعـرِ والصّـفـا

والمروتَيْنِ وتلك خــيــرُ شَــعَــائِري

وجـنـــاب مــلْــكِ الأبــطــحــين بمــكــةٍ

بدرِ الهُــدَى القــمــرِ المنيــرِ الزاهرِ

سلطان مكةَ والمشـــاعــــرِ كلّهـــا

وإمـــامـــهـــا النـاهي المطاع الآمــرِ

ومُـــجَـــدِّدِ الفَـــتْحِ المبين بهـــا ومَنْ

أحــيـــا بهـــا فَـــتْحَ النبيّ الحـــاشــرِ

وغـــدتْ شـــعـــابُ الأبطحين كـــأنما

ســـــالتْ بسَــــيْلِ أسنّـةٍ وبواتـرِ

ودخـلـتَ فـي يـومِ الـثــــلاثـا مـكـةً

يومًـــا على الأعـــداء منك قـــمـــاطرِي

(١) معجم الأدباء ٦/ ٢٤٠٨ ديوان الشافعي ١١٧

(٢) السلافة ٩٢

وَتَطَهَّرَتْ بك مكةُ من رِجْسِهَا
تطهيرَ مُغْتَسِلٍ بماءٍ طاهرِ
واختاركَ اللهُ العظيمُ لبيتِهِ
ولساكنِ البيتِ العَتيقِ وحاضرِ

ويمدح عبدالقادر الطبري الشريف حسن بن أبي نمي بن بركات بأنه قد ورث حكم مكة أبًا عن أب:

خليفةُ اللهِ في ام القُرى شرفًا
ما زال وارثَهُ فيها ابًا فأبَا
إمامُ قبلتِنا الغرّاء افضل من.
حَمَى حِماها لوجهِ الله مُحْتَسِبًا[1]

وهم يمدحون لأنهم أهل تلك المشاعر كما يقول موفق الدين علي بن محمد الحنديدي في مدح الشريف حميضة بن أبي نُمي:

ومِنْ بَنِي نجمِ نُميٍّ انجمُ
طَبَّقَتِ الارضَ سناءً وسَنَا
أهل المساعي والصَّفا وزمزمٍ
والمَشْعَرَيْنِ والمُصلّى ومِنَى[2]

والمدح بوراثة الوقوف بالحجيج وإمارتهم، والقيام على الرفادة والسقاية، والرفادة هو ما يمدح به إدريس الحسني، تماما كما قال الرضي سابقًا:

له وقفاتٌ بالحجيجِ شُهودُها
إلى عَقِبِ الدنيا مِنًى والمخَيَّفُ[3]

وأبو نواس يمدح العباس بن عبيدالله بن جعفر بكونه يقوِّمُ للناس حجهم، ويقوم بإطعامهم حتى لا يجد الأكل من يأكله، لصدور الناس وشبعهم من موائده، يقول:

---

(١) السلافة ٤٧

(٢) هديل الحمام ٣ / ٩٠٤

(٣) ديوان الرضي ٢ / ٢٠

لقدْ قومَ العبّاسُ للنّاسِ حجَّهُمْ
وسارَ برهبانيةٍ ووقارِ
وعرّفهُمْ أعلامَهُمْ وأراهمُ
منارَ الهُدى موصولةً بمنارِ
وأطعمَ حتّى ما بمكةَ آكلٌ
وأعطى عطايا لم تكنْ بضمارِ
وحُملانُ أبناءِ السبيل تراهمُ
قِطارًا إذا راحوا أمامَ قطارِ[1]

والعمل من أجل مكة هو ما يُتمدّح به، فالشريف بركات يمدح قانصوه الغوري، فيدعو له بالعودة سالمًا لأن ذلك منة على مكة، فيقول:

وامننْ على مكةَ الغرّا وساكنِهَا
بعودِهِ سالمًا في أشرفِ الرّتبِ[2]

وتثني أم الغوث بن أخزم على ابنها الذي خدم الكعبة طويلاً، ثمّ تولّى الإجازة بالناس لمكانه من الكعبة، فقالت:

إنّي جعلتُ ربِّ من بَنيَّهْ
رَبيطةً بمكةَ العَليّهْ
فَباركنْ لي بها من اليَّهْ
واجعلهُ لي من صالحِ البَريهْ[3]

ومُدح أهل مكة بالثناء عليهم لمكانة بلدهم، فهم غرس الدين، وصفوة المولى، وقد ارتفعت صفاتهم، وسموا قدرًا، كما نجد في رد الإمام زين العابدين بن عبدالقادر الطبري المكي على بيتين من الشعر قالهما الشيخ غرس الدين الخليلي في أهل مكة عندما نزلها فلم يلتفت إليه أحد، فقال:

---
(١) ديوان أبي نواس ٤٣٥- ٤٣٦
(٢) بلوغ المرام ١٥٨/٣
(٣) أخبار مكة للأزرقي ١٨٧/١

جـيـرانُ مكةَ جـيـرانُ الإلهِ لذا
لا يَعْبـؤون بمن قـد غـابَ او حـضـرا
لولا الطبـيـعـةُ عـاقـتـهـمْ لكان لهُ
إسـراءُ روحٍ بسـرِّ السـرِّ قـد ظفـرا(1)

فردَّ عليه قائلاً:

واهلُ مكةَ غـرسُ الدين فـاجْـتَنِ من
اغـصـانِهِ ثمـر الـتـقـوى وكُن ثمـرا
فـإنهمْ صـفـوةُ المولى وخـيـرتُهُ
من خلقهِ ولهم في الفضلِ مـا اشـتـهـرا
سَمَـوْا فـخـارًا وطابوا مـحـتـدًا وزكـوا
اصـلاً وعلمًـا وطالوا مُـرتقًى وذُرا
وكلُّ فـضـلٍ فَـعَـنْهم قـد رُوي ورُؤي
وكلّ سِـرّ فـمنهم في الوجـودِ سَـرَى
وكـيـف لا وهـمُ اهـلُ الإلـهِ وفـي
جِـوارهِ وقـد امـتـازوا بما ذكـرا
لا يشـهـدون سـوى مـولاهـمُ فلذا
لا يعـبـؤون بمن قـد غـاب او حـضَـرا
وحـيـث كـانوا كـمـا قـد قلتُ حُقّ لهم
إسـراءُ روحٍ بسـرِّ السـرِّ قـد ظفـرا
وإن يكونوا مـع الامـلاكِ في قـرَنٍ
لولا الطبـيـعـةُ اعني كـونَهُم بشـرا
فـخـذْ حـديثًـا قـديمًا مـسندًا لهمُ
عنهم صـحـيـحًـا صـريحًـا واقـتفِ الأثرا
والـقـطْ فَـرائدَ دُرٍّ من فـوائـدهـمْ
فـإنـهم بحـرُ عليمٍ يلفظ الدُّررا

(1) سلافة العصر ٥٠

أمـــا تراهُ بجيـــدِ الدهر مُنْتظمًـــا
وفي ذُرا المجـدِ والعليـاءِ مُنْتَـثـرا
ولـو نشــاءُ نظمـنَا من جـواهرِهِ
قـصـائدًا في مـعـاني فـضـلهمْ غُـرَرا
تفـوقُ نظمَ اللآلي من بلاغـتِـهَـا
لكن يقـول لسـان الحـالِ والشُّـعَـرا[1]

ويمدح الشعراء بالحج، كما مدح أشجع السلمي هارون الرشيد الذي جمع بين الحج والغزو، يقول:

أَلِفَ الحَجَّ والجِـهـادَ فـمـا ينْـ
ـفكُّ من سَـفْـرتـينِ في كلِّ عـامِ
سَـفَـرٌ للجـهـادِ نحـو عـدوٍّ
والمطايا لسـفـرة الإحـرامِ
طلبَ اللهَ فـهْـو يسـعى إليـهِ
بالمطايا وبالجِـيـادِ السَّـوامِ
فَـيَـدانِ يدٌ بمكةَ تدعـو
هُ وأخـرى في دعـوةِ الإسـلامِ[2]

ويكرّر أشجع السلمي مدحه لهارون الرشيد بالمزاوجة بين الحج والغزو، وتكرار الحج في كل عام، وهو من كثرة حجه استأنس به الحرمان، يقول:

اسـتـأنسَ الحَـرَمَـانِ منـ
ـكَ بـزورةٍ فـي كـلِّ عـامِ
والحِـجْـرُ والحَـجَـرُ الأصـمْـ
ـمُ بطولِ مَسٍّ واسـتـلامِ

(١) سلافة العصر ٥٠
(٢) شعر أشجع السلمي ١١١

قَضَيْتَ نُسْكَكَ وانْصَرَفْـ
ـتَ بخيرِ ظعنٍ أو مقامِ[1]

ويمدح ابن مناذر البرامكة على الطريقة ذاتها التي مدح بها أشجع الخليفة الرشيد، فهم كذلك يقرنون الجهاد بالحج، يقول:

أتانا بنو الأملاكِ من آلِ بَرْمكٍ
فيا طيبَ أخبارٍ ويا حُسنَ منظرِ
لهم رحلةٌ في كلِّ عامٍ إلى العِدا
وأخرى إلى البيتِ العتيقِ المُستَّرِ[2]

وهذه المزاوجة بين الفعلين نجدها تتكرر عند أبي المعالي الكلابي الذي قال في الرشيد بعدما اتخذ قلنسوة كتب عليها (غاز حاج):

فمنْ يطلبْ لقاءَك أو يُردْهُ
فبالحرمين أو أقصى الثُغُورِ[3]

ولعل من جميل المشابهة ما بين الحج ومناسكه والقتال وآثاره، والربط بينهما على طريق المقابلة والتشبيه هو ما مدح به أبو تمام أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري، الذي كان يتولى حرب الروم، وحفظ الثغور، فالتلبية هنا في الحج، مثلها هناك في المعركة، ونداء الواجب، والإحرام وسفك دم البُدْن شبيه بسفك دم الأعداء والملحدين، ورمي الجمرات كإشعال نار الحرب، والسعي والإرقال بين الصفا والمروة شبيه بسرعته نحو عدوه، كل ذلك يتتابع في مشهدين جميلين ينقلنا فيهما أبو تمام ما بين مشاعر الحج في مكة، وأرض المعركة في بلاد الروم، حتى أنه في النهاية يقرن الحج والجهاد، ويجعلهما في إطار واحد يجمعهما كما في قوله:

سَلْني عن الدينِ والدنيا أُجِبْكَ وعن
أبي سعيدٍ وفقديهِ فلا تَسَلِ

---

(١) المصدر نفسه ١٠٤

(٢) طبقات ابن المعتز ١٢٥

(٣) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٦٥٢

حُطَّتْ إلى عُمْدةِ الإسلامِ أرْحُلُهُ
والشمسُ قد نفضتْ ورسًا على الأُصُلِ

مُلَبِّيًا طالما لبّى مُناديَهُ
إلى الوغى غيرَ رِعْديدٍ ولا وَكِلِ

ومُحْرِمًا احرمتْ ارضُ العراقِ لهُ
من النّدى واكتستْ ثوبًا من النخلِ

وسافكًا لدماءِ البُدْنِ قد سُفِكتْ
به دماءُ ذوي الإلحادِ والنِّحَلِ

وراميًا جَمَراتِ الحجِّ في سنةٍ
رمى بها جمراتِ اليوم ذي الشُّعَلِ

يردِي ويُرقِلُ نحو المروتينِ كما
يردي ويرقلُ نحوَ الفارسِ البطلِ

لمّا تركتَ بيوتَ الكفرِ خاويةً
بالغزو آثرتَ بيتَ اللهِ بالقَفَلِ

والحجُّ والغزوُ مقرونانِ في قَرَنٍ
فاذهب فانتَ زعافُ الخيلِ والإبلِ[1]

ويشبه أيامه في معاركه ضد الروم بأيام النحر والتشريق، يقول:

إنّ أيامَكَ الحِسانَ من الرُّو
مِ لَحُمرُ الصَّبوحِ حمرُ الغَبُوقِ

مُغْلَماتٍ كأنها بالدم المُهـ
ـراقِ أيّامُ النّحرِ والتّشريقِ[2]

ويستمرُّ مريرها مع أبي تمام، فيمدح خالد بن يزيد الشيباني الذي ولاّهُ المعتصم الحرمين ثمَّ عزله، ، بالطريقة السالفة ذاتها، فيقول:

(١) ديوان ابي تمام ٣ / ٨٨ – ٩٣
(٢) المصدر نفسه ٣ / ٢٤٣

أَقري السَّلامَ مُعَرّفًا ومُحصَّبًا
من خالدِ المعروفِ والهيجاءِ

سيلٌ طما لو لمْ يَذُدْهُ ذائدٌ
لتبطَّحتْ أولاهُ بالبطحاءِ

وغدتْ بطونُ مِنىً مُنىً من سَيْبهِ
وغدتْ حَرىً منهُ ظهورُ حِراءِ

وتعرَّفتْ عَرَفَاتُ زاخرَهُ ولمْ
يُخْصَصْ كَداءٌ منه بالأكداءِ

لا يُحرمِ الحَرمانِ خيرًا إنَّهم
رامُوا بهِ نوءًا من الأنواءِ[1]

ويقول في مدح الأفشين:

فتركتَ أرشقَ وهْيَ يُرقَى باسْمِهَا
صُمُّ الصَّفا فتَفيضُ منهُ عُيونُ

لو تستطيعُ الحجَّ يومًا بلدةٌ
حجَّتْ إليها كعبةٌ وحَجُونُ[2]

وعلى الطريقة ذاتها يمدح ابن حيّوس سابق بن محمود إذ يجمع بين الحج والغزو، يقول:

ولقد شَفَعْتَ الحجَّ بالغزوِ الذي
لولاك أعْجَزَ أهلَهُ إمكانُهُ

وبذلتَ حُمْرَ المالِ في تنفيذهمْ
أيَّامَ عَزَّ عليهمُ وجدانُهُ

فمُعَجَّلٌ لكَ من إلهكِ نصرُهُ
ومؤجَّلٌ لكَ عندهُ رضوانُهُ

---

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي١/٨-١١ ومعرَّف: الموضع الذي يقف الناس فيه يوم عرفة.والمحصّب: الموضع الذي تُرمى فيه الجمار. وحَرىً: أي خليقة وجديرة، أو بحرا الدار: أي بفنائها.

(٢) ديوان أبي تمام ٣/٣١٨

هي مِنّةٌ يبقى عليك ثناؤها
في الناس ما صَحِبتْ حِراءَ رعانُهُ
فالبيتُ يشكرها إذا طافتْ بهِ
زمنَ الحجيجِ وقُبِّلتْ اركانُهُ
فاجابَ فيكَ اللهُ دعوةَ قارئٍ
يتلو هناك قرانَهُ قُرّانُهُ[1]

وينال وفد الحجيج أيضًا قسطه من المدح، فهذا صدقة بن الحجاج، يمدح وفدًا قدموا للحج، فيقول:

اكرمْ بهم وفدًا يطيبُ بنشرهمْ
ظُهرانُ مكةَ كلُّها والأبطحُ
ما مثلُهمْ احلى ندًى وشمائلاً
غُرّاً واعطى للجميل واسمحُ
وبهمْ أُباهي كلَّ من وافى منًى
في عَصْرنا ولهم اودُّ وانصَحُ[2]

وإذا كان المادح يمدح الممدوح لتشرفه بانتسابه لمكة، أو لكونه من آل البيت، أو لحكمه لها ورعايته وصيانته لمرافقها، فإن بعضهم يرى أن مكة أضاءت بوفود الممدوح إليها، كما يقول ابن مناذر في مدح يحيى البرمكي وأولاده:

سَتُظلِمُ بغدادٌ ويجلو لنا الدّجَى
بمكةَ ما عِشْنا ثلاثةُ ابحرِ
إذا وَرَدوا بَطْحاءَ مكةَ اشرقتْ
بيحيى وبالفضلِ بن يحيى بن جعفرِ[3]

(١) ديوان ابن حيوس ٢ / ٦٥٢
(٢) تكملة خريدة القصر للعماد الأصفهاني قسم شعراء العراق ٧٩٠
(٣) معجم الأدباء ٦ / ٢٦٤٩

وفي مدح أمير الجيوش يقول ابن حيّوس في مبالغة بعيدة:

وقــــدْ ســــمعَ اللهُ الكريمُ لأمّــــةٍ
تيـمّمت البـيتَ العـتيقَ المُـحـرَّمَـا

ولـولاك لـم يـنـزلْ غـــــريـبٌ بمـكـةٍ
ولا وردت تلك الخـــلائقُ زَمْــــزَمَـــا

ومــــوســمُــهـــا في كلِّ عــامٍ وإنّنا
نرى كلَّ يومٍ في جنابِكَ مــوسِـمَـــا[1]

وتأنس أم البلاد كما يسميها الشاعر يحيى النشو بأميرها عطيفة بن أبي نمي:

اضــــحتْ به امُّ البــــلادِ انيـــسـةً
فـــالعــدلُ منهــــا بالمسَـــرّةِ مـــوثقُ[2]

ويجرِّد الشعراء من أماكن مكة أشخاصًا يبشون لمقدم الممدوح، فالمشاعر تسلّم عليه، والبيت يهتزُّ ركنه اشتياقًا، وها هو المصلى والحطيم وزمزم يسجع كما يسجع الحمام، وترحب به الأركان، وتسر به الجبال، كل هذه الاحتفالية نلقاها في مدح الشريف علي بن حسن بن عجلان، من قصيدة قالها فيه قطب الدين أبو الخير محمد بن عبدالقوي المكي، ومما قاله يمدحه:

ثغــــورُ الهَنا لـمُـــا قَــــدِمْتَ بَواسِمُ
ســــرورًا وكلُّ الكائنـاتِ مَــبَـــاسِمُ

ولمّــا تراءتكَ المَـشـاعـرُ مُـحْـرِمًـا
اشـــارتْ بتـسـليمٍ عليكَ المَـحــارِمُ

ولـمّـــا راكَ البـــيتُ اقـــبلتَ هزّةً
إليكَ اشـــتـيـــاقٌ إنّهُ بكَ عـــالمُ

كـــذاكَ المُـصلّى والحَطيمُ وزمـــزمٌ
وقـد سـجـعتْ من حـولهنَّ الحـمـائمُ

ورحّـــبت الأركـــانُ لـمُـــا رايتَـهـــا
كـــانَّ المُـــثنّى قـــد اتاها وكــاظمُ

(١) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٥٦١

(٢) الإشراف في تاريخ الأشراف ١٠٧

وسُـرَتْ جـبـالُ الأبطحين كـأنّهـا
عليـهـا أبو النفس الزكـيـّةِ قـادمُ
وكـادَ الصّـفـا يـخـتـالُ لـمَّا صـعـدْتَهُ
ومـاسـتْ سـرورًا إذ راتكَ الـمَـعـالمُ
مـهـابطُ وحي اللهِ والحـرمُ الذي
نماكَ ببطحـاه الوصيُّ وهاشمُ[1]

وإذا كانت الكعبة هي كعبة البطحاء والحرم تاتيها الوفود للحج، فالممدوح هو كعبة اخرى، والشاعر ما سار من حرم إلاّ إلى حرم، كما يقول عمارة بن أبي الحسن اليمني من شعراء القرن السادس في مدح خليفة مصر الإمام الفائز بن الظافر، وكان أمير مكة قد أرسل الشاعر في سفارة إليه، يقول في مدحه:

الحـمـدُ للعـيسِ بعـدَ العـزمِ والهـممِ
حـمـدًا يقـومُ بما اوليتَ من نِعَمِ
لا اجْـحَـدُ الحقَّ عندي للرِّكـابِ يدٌ
تمنَّتِ اللُّجمُ فـيـهـا رتبـةَ الخُطُمِ
قـرَّبْنَ بُعْـدَ مـزارِ العِـزِّ من نظري
حـتى رايتُ إمـامَ العـصـرِ من امَمِ
ورُحْنَ من كـعـبـةِ البطحـاءِ والحـرمِ
وفـدًا إلى كـعـبـةِ المعـروفِ والكرمِ
فـهلْ دَرى البـيـتُ انّي بعـد فـرقـتِـهِ
مـا سِـرتُ من حـرمٍ إلاّ إلى حـرمِ[2]

ويغـدو المدح بأن يكون المـدوح ركنًا من أركـان مكة، بل الركن الأيمن من أركـان الكعبة، كما في قول الشاعرعفيف الدين علي بن عبدالله بن جعفر في مدح أمير مكة رميثة:

---

(1) الإشراف في تاريخ الاشراف ١٢٨ -١٢٩

(2) النكت المصرية في اخبار الوزارة المصرية ٣٢

أَمُـيَـمِّمَ الحـرمِ الشّـريفِ وقـاصـدًا

آلَ النبيِّ ظفـرتَ غـايـاتِ المُنى

لا تحـسبنَّ ابا نُميٍّ غـائبًـا

فـرمـيـثـةُ بنُ ابي نُميٍّ ها هُنا

ضَـرَبَ السّـرادقَ حـولَ كـعـبـة مكةٍ

وغـدا لهـا ركنًا وكـان الأيمنا[1]

ويملك الشريف مبارك بن عطيفة سواكن، فيمدحه الشاعر يحيى بن يوسف المكي المعروف بالنشو، ويستحثه على العودة لمكة، فما سواكن هذه بدار إقامة لشريف مثله، يقول:

فـمـا سِـواكُنَ ارضٌ او تُقِـيم بـهـا

ومـا مـقـامكَ إلاّ الركنُ والحَـجَـرُ

فَـسِـرْ إلى مكةٍ وانزلْ بسَـاحَـتِـهـا

فـانتَ باللهِ ربِّ العـرشِ تنتَـصِـرُ

أمِـثْلُ مكّةَ تَسلوها وتَتْـرُكُـهَـا

عَـجِـبْتُ منكَ فَـعَلْـهـا كـيفَ تصْطَبِـرُ[2]

ويمدح الممدوح بأنه سلطان مكة، وفي عجلان بن رميثة يقول يحيى النشو:

سلطان مكة والمشـاعـر والصّـفَـا

من لا يخـافُ من الزّمـانِ نزيلُه[3]

والممدوح هو فرحة البلد الحرام، كما يقول القاسم بن علي بن هتيمل في مدح السلطان الملك المظفر ملك اليمن في القرن السابع الهجري:

يا فـرحـةَ البلدِ الحـرامِ ويا ضِيـا

جـوِّ العـراقِ وفـرحـةَ الأمـصـارِ[4]

(١) الإشراف في تاريخ الاشراف ٢١٧

(٢) الإشراف في تاريخ الاشراف ١٢٨ -١٢٩

(٣) الإشراف في تاريخ الاشراف.١٥٠

(٤) كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ١ / ١٩٧

وفي الشعر الحديث:

نجد المدح يرتبط ارتباطًا واضحًا بمن يقدم خدمات لهذه البلدة المقدسة، ولعلَّ أولهم هو الملك عبدالعزيز آل سعود، ذلك الملك الذي استطاع أن يجمع البلاد بالقوة، فهذا أحمد الغزاوي يمدح الملك عبدالعزيز بوصف بطولاته، وإنجازاته الحربية، وهو بذلك قد جاور البيت العتيق، كما في قوله:

ملكتُمْ فِجاجَ الأرضِ بالسيفِ عنوةً
وجاورتمُ البيتَ العتيقَ المُحرَّما(١)

وبهذا النصر تغمر البهجة قلوب كل الناس، حتى حَمَام البيت العتيق، يقول الغزاوي أيضًا:

في كلّ دارٍ مهرجانٌ ساهرٌ
لكَ فيهِ عينُ الحبِّ ليس تنامُ
وبكلّ قلبٍ فرحةٌ غنّى بها
في جانبِ البيتِ العتيقِ حَمَامُ(١)

ومن صور المدح في الملك عبدالعزيز تهيئة مكة لحجاج بيت الله، وتأمين الطرق لهم، ويتساءل فؤاد شاكر تساؤل العارف عن الرجل والزعيم الذي أمَّن الحرم:

انهضْ إلى البيتِ وارفعْ فوقهُ العَلَما
واسألْ هنالكَ عمَّنْ أمَّن الحرَمَا
اسألْ تُجبْكَ وفودُ البيتِ عن ثقةٍ
لا غروَ في من عرفناهُ ولا جَرَمَا
إنَّ المَليكَ المُرجّى المُرتَضَى أبدًا
عبدَالعزيزِ المُفدّى المُفردَ العَلَمَا(١)

وإذا كان فؤاد شاكر يسأل ويجيب، فإنَّ الغزاوي يكرر السؤال تلو السؤال، ويلح في ذلك، لأنه يرى الانقلاب الواضح، فمن بعد الخوف والاضطراب والقلق، حلَّ الأمن والطمأنينة، وأصبح الحاج يغدو ويسير آمنًا لا يخشى على نفسه شيئًا، كما في هذه الأبيات:

---

(١) ديوان الغزاوي ٢ / ١ / ٦٠٦

(٢) نفسه ٢ / ٢ / ١٥٦٨

(٣) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى١٤٣

فَمنْ كان مِنْ قَبْلِ السُّعودِ وباسهِ
يطيقُ بُلوغَ الحَجِّ دونَ تَزَلْزلِ
ومن كان يَستطيعُ المَناسكَ آمنًا
على نفسهِ ما بينَ جمعٍ وجرولِ
ومن كان في الرؤيا يُصَدِّقُ انَهُ
يروحُ ويغدو في امانٍ مخوَّلِ
ومن كان ياتي للحجاز وقلبُهُ
يُرجّي نجاةً مِنْ حِمَامٍ مُعَجَّلِ
ومن كان لا تُغري الثيابُ بحتفِهِ
ولو هِيَ ساوتْ نصفَ حبّةِ خَردلِ
ومن هو هذا الزاعمُ اليومَ انَهُ
يُقاسي الذي قد كان زعم المُضلّلِ
ومن يَبْغني الأ اقولَ الذي ارى
فكل لسانٍ غير عضبي مقولِ
ومن ذا الذي لا يشكر اللهَ نعمةً
تحدّثَ عنها كلُّ شاكٍ واعزلِ
فهل انا إلا مؤمنٌ لحقيقةٍ
هي الشمسُ لا تَخْفَى على متأمِّلِ
وهل يجحدُ الفضلَ الذي هو ظاهرٌ
سوى اكمهٍ عن منهجِ الحقِّ معدلِ[1]

يذكر فؤاد الخطيب ذلك، فيقول:

وأنتَ مهّدتَ للحجّاجِ مَوطِئَهمْ
في البحر لا خطرًا يخشون او عطَبا
تصونُهمْ فيهِ ابراجٌ موطّدةٌ
من المرافئ اعيتْ لُجّةُ اللُّجبا[2]

(١) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة ام القرى ١٢٧-١٢٨
(٢) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة ام القرى ١ / ١٧٨

ولتفرح مكة ما شاء الله لها أن تفرح بابن فيصل الملك عبد العزيز، وبهذا الأمن والاطمئنان الذين أرخاهما عليها، كما يقول ابن بليهد:

فبشراكِ يا أمَّ القُرى بابنِ فيصلٍ
وبشراكِ إذْ آبَ المليكُ السَّمَيْدَعُ
وكانت به امُّ القرى مطمئنةً
بامنٍ واهلوها سُجودٌ وركَّعُ
كانٌ عليها حُلَّةٌ عبقريةٌ
تُناطُ باركانِ امِّ صبحٍ وترفعُ
واصبحَ باديها مقيمًا بنعمةٍ
بعيشٍ انيقٍ والسَّوائمُ رُتَّعُ
حماها من الأعداءِ من كلِّ جانبٍ
وامَّنها والسيفُ بالسيفِ يُقرَعُ[1]

ويتكرر المدح بنشر الأمن والأمان، فهذا رشيد أيوب يقول مادحًا:

ايُّها الناشرُ اعلامَ الأمانِ
في ربوعِ الحرمِ
يا نصيرَ الحقِّ يا ثبتَ الجنانِ
يا كريمَ الشِّيمِ[2]

ويؤكد ذلك خليل مطران قائلاً:

نعْمَ الأمينُ لبيتِ اللهِ يوسعهُ
براً ويرعاهُ في تقوى وإيمانِ
اقرُّ حاضرهُ امنًا وباديَهُ
ما انفعَ العدلَ مقرونًا بإحسانِ[3]

---

(١) الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر ٩٢ وأم صبح اسم من اسماء مكة

(٢) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء الشام ١٣٣

(٣) نفسه ٢٠

وشاعر هو عبدالعزيز بن شعبان يطرق هذا المعنى، وينهي بالشكر لمن جعل الحج ميسورًا:

بِعَزْمَتِكِ ازدهى البيتُ الحرامُ
وسادتْهُ السكينةُ والسلامُ
حبوتَ حجيجَهُ أمنًا ويُسرًا
فطابَ لهمْ بمَغْناهُ المقَامُ
واضحى الحجُّ ميسورًا وزالتْ
بلا مهلٍ مصاعبُهُ الجِسَامُ
وكنتَ لنا الكفيلَ بذَا فشكرًا
لفضلكَ أيُّها الملكُ الهُمَامُ[1]

وتكاد هذه النغمة تسيطر على كثير من معاني المدح في الملك عبدالعزيز، وأغلب قصائد المدح، تظهر هذا المعنى، لأنها ترى فيه ما يدعم وجهة نظرها، والأمثلة على ذلك كثيرة، وقد عرضنا لنماذج منها، وذلك كاف في التدليل عليها لأنها متشابهة، وطرائق التعبير عنها متقاربة.

وفي ذلك يقول الدكتور حسن بن فهد الهويمل: «والقارئ لهذا الشعر يدرك أنه جاء عفويًا وصادقًا أثارته تلك الشخصية، وما أنجزتة في مدة قصيرة من متغيرات غيرت ملامح الجزيرة العربية، ويكفي أن نقرأ تركيز الشعراء على الأمن والاستقرار، وجمع الشمل الذي حققه الملك عبدالعزيز بعد الفوضى، والخوف، والذين يفدون إلى الديار المقدسة لأي غرض ثم لا يجدون منّاً ولا أذًى، ويؤدون حجهم أو عملهم بكل راحة، يتذكرون ما كانت عليه البلاد، وما يلاقيه الحجاج من قتل ونهب وأوبئة.

هذه المتغيرات المفاجئة أثارت كوامن مشاعرهم، وفجرت ينابيع شعرهم، فسجلوا إعجابهم وشكرهم لهذا المنقذ الذي أمَّن السبل، ويسَّر الطرق إلى الحج، وطهَّر البيتَ للطائفين والعاكفين والركع السجود» [2].

---

(١) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى ٢٣٠

(٢) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى ١٤

ويظهر خير الدين الزركلي إعجابه بإلغاء الرسوم عن الحجاج، ويراها منحة من الملك عبدالعزيز في التخفيف على حجاج بيت الله، يقول:

منحتَ ضيوفَ الله في حجٍّ بيته
فَخَفَّ إلى ابوابِ مكةَ مُجْهَدُ
رجعتَ بهم عبرَ القرونِ فاصبحوا
يُعَلُّونَ ما عَلَّ النبيُّ محمدُ
إذا جاءها جارٌ فاهلاً ومرحبًا
وفي ظلِّكَ الممدودِ نُزْلٌ مُمَهَّدُ[1]

وهذا المعنى نجده عند محمد أحمد العقيلي الذي يقدم إلغاء الرسوم عن الحجاج كبشرى لهم، يقول:

واباحَ الحجَّ لا رَسْمًا لهُ
رَهَقًا يَغْشَى وفودَ المسلمينْ
اكبرَ العَالمُ في تصريحهِ
خطةً قَصَّرَ عنها المُصلِحونْ
وسرى البرقُ بهِ مُؤتلقًا
يحملُ البُشْرى إلى اكرمِ دينْ[2]

ومن صور مدح الملك عبدالعزيز استغلال المناسبات الدينية، وبخاصة في أيام الحج، يقول الشاعر جعفر عوض في مدحه بأداء مناسك الحج:

يا مليكًا بهِ الكوارثُ زالتْ
وأُزيحتْ بَوادرُ الحَدَثانِ
فُزتَ بالحجِّ في عُلا عرفاتٍ
ثمَّ لبَّيتَ خالقَ الأكوانِ
وازدلفتَ المنى لمزدلفاتٍ
واقفًا عندَ مَشْعرٍ في تَهانِي

(١) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء الشام ٢٠
(٢) المجموعة الشعرية الكاملة ٢٣٩

وبها قد لقطتَ شُهبَ جِمَارٍ
للشياطينِ وهْي كالنيرانِ
وحباكَ الجليلُ كُسْوةَ بيتٍ
قِبْلةِ الناسِ من قديم الزمانِ
وبلغتَ المنى بأبهجِ عيدٍ
هو عيدُ الأضحى وتاجُ التهاني(1)

ومن صور المدح في الملك عبدالعزيز في ما يرتبط بموضوعنا هو ما يراه الشعراء في عهده من تجديد عهد النبوة، كما يقول محمد أحمد السياغي الصنعاني:

يا جيرةَ البيتِ العتيقِ سلامُ
يهديكموهُ الشرقُ والإسلامُ
جَددتمُ عهدَ النبوةِ مُشْرقًا
فزهتْ بما جددتمُ الأيّامُ
من يَرْعَهُ عبدُالعزيز يصلْ به
في المجدِ أُفْقًا في الهوى وغرامُ(2)

وآنًا آخر يبدو عهد الفاروق عمر، كما يقول الغزاوي:

أفي أمِّ القُرى قد عاد عهدٌ
بهِ الفاروقُ يلتثمُ الصِّحَابَا
كذلكَ قد رأيتُ ولستُ أخشى
على ما قلتُ في الأخرى حِسَابَا(3)

أمّا صور فرح مكة بالممدوح وسعيها للقائه، تلك الصور التي تكررت عند القدماء نجده أيضًا في الشعر الحديث، فالغزاوي يمدح الملك عبدالعزيز من خلال نعمه التي حلّت على مكة، وها هي تفرح وتهش لقدومه، ولو استطاعت الصعود إليه لسمت رياحها، فمكة تشعر بعظيم المنن التي قدمها لها، يقول:

(1) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى ١٠٣
(2) نفسه ١٧٤ – ١٧٥
(3) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية ٦٨٧/١/٢

نَعِــمَتْ بـاوْبِكَ مكةُ وبطاحُــهَــا
واخـضـرّ واديهـا وشحّ شـحـاحُـهَـا
حـنَّتْ إليكَ فلـو اطـاقتْ مُـرْتَـقًى
لَسَـمَتْ إليكَ بهـا الغَـدَاةَ رياحُـهَـا
أوْلَيـتَـهـا مِنَنًا تقلّدَ جـيـدُها
بعـقـودِها وبهـا اسـتـدارَ وشاحُـهَـا
امّنْتَ خـائفَـهَـا وشِيدْتَ صـروحَـهـا
وبهـا اسـتـنارَ غُـدوُّها ورواحُـهَـا[1]

وهذه أم القرى تختال بحلل الفخار، ويطل السناء من أجياد لقدوم الملك سعود بن عبدالعزيز، كما يقول الغزاوي:

لِـمَنِ السّنـاءُ أطلّ مـن أجـيـادِ
فَـهَـفتْ إليـهِ طوالعُ الأجـيـادِ
شِـبْلُ المليكِ سـعـودُنا الشّـهمُ الذي
شـرُفتْ بهِ قـدرًا حُـمَـاةُ الضّـادِ
امـستْ بهِ امُّ القـرى تخـتـالُ في
حُللِ الفـخـارِ بِطَارفٍ وتـلادِ[2]

وتتكرر هذه النغمة في مدح الملك فيصل بن عبدالعزيز، فهذا النور والجلال يملأ أرجاء مكة حيث يؤم الملك فيصل أقطاب الملوك في الحج، وهذه مكة تزدان به، ويزهو به البيت، ويفخر به المقام، حتى الحجر يبدو سعيدًا، كما في قول محمد بن أحمد العقيلي:

جـلالٌ على البـيـتِ الحـرامِ يسـودُ
يـرفُّ علـى الإسـلامِ مـنـهُ بُـنُـودُ
وَيـغْـمُـرُ ارجـاءَ المشَـاعـرِ من مِنى
ومكـةَ انـوارُ الهـدى ويجـودُ

(١) احمد الغزاوي وآثاره الأدبية ٢/١ / ٦١٦
(٢) المصدر نفسه ٢ / ١/ ٦١٠

يُضيءُ كنورِ البَدرِ مُنْطَلِقَ السَّنَا

وفي افْقِهِ زهرُ النجومِ وفودُ

ملوكٌ واقطابٌ إلى البيتِ وانبروا

لتجديدِ حبلِ الودِّ وهْو اكيدُ

تؤمُّهُمُ في موقفٍ بعدَ موقفٍ

وانتَ إمامٌ للورى وعميدُ

وإنّكَ راعي البيتِ والبيتُ قِبْلةٌ

ولِلّهِ يعنو ركَّعٌ وسجودُ

زها البيتُ وازدان المقامُ بِكُسْوةٍ

من الوشي قد هفَّتْ عليهِ بُرودُ

تَبَدَّى يميسُ الركنُ فخرًا واشرقَ الـ

ـمقامُ ومادَ الحِجْرُ وهْو سعيدُ

هنا عاهلُ الإسلامِ غيرِ مدافعٍ

ترفُّ لهُ في المازمينِ وفودُ[1]

والملك فهد بن عبدالعزيز يُمدح لأنه خادم الحرمين الشريفين، فنسبته إليهما نسبة تشريف، كما يقول حمزة بن أحمد الشريف:

ولخدمةِ الحَرمينِ اخلصَ إسمهُ

فغدا بتاريخ العصورِ مُسَطَّرا

في مكةَ التنزيلُ في بيت الهدى

أعمالهُ الجُلَّى يُشيدُ بها الوَرَى[2]

ويؤكد هذا المعنى إبراهيم المالكي، فيقول:

خدمتمُ الحرمين الطاهريْن وقد

هيأتموا عرفاتِ اللهِ ثمَّ مِنَى

---

(١) المجموعة الشعرية الكاملة ٥٥٣ – ٥٥٦

(٢) خادم الحرمين الشريفين في الشعر السعودي المعاصر ٨٤

كلُّ المشاعرِ قد اضحتْ مهيّأةً
حتى غدا الحجُّ سهلاً ليس فيه عَنَا[1]

ويرتبط اسمه بخادم الحرمين في الشعر الحديث، فيقول يوسف بن عبدالظاهر:

يا خادمَ الحرمين جودُكَ غامِرٌ
وسخاءُ فضلِكَ مُشْرِقٌ وَضَّاءُ[2]

والمعنى نفسه عند الشاعرة إنصاف علي البخاري:

يا خادمَ الحرمين كفّكَ امطرتْ
فاعشوشبتْ أممٌ من الخيراتِ[3]

ثالثًا: الوصف (وصف الأماكن والبقاع المكية)

وصف مكة بصفاتها القدسية والمكانية، ووصفها ببيئتها ومما تتميز به، أو تفتقر إليه، هو ما نجده في الأشعار التي تعرض لمكة في مختلف العصور، وانظر إلى هذا الوصف لشاعر جاهلي، حيث يبين لنا في وصفه لها عن اتصافها بقلة الماء، وبخاصة قبل إعادة تأهيل بئر زمزم:

همُ نزلوها والمياهُ قليلةٌ
وليس بها إلاّ كهولُ بني عمرِو[4]

ويقول آخر:

بَنَوْها ديارًا جَمَّةً وطَوَوْا بها
بئارًا تَسُحُّ الماءَ من ثَبَجِ البَحْرِ[5]

ويرد ذكر الأماكن في الشعر العربي على مختلف عصوره، فهذا المتوكل الليثي يذكر ذا المجاز في شعره فيقول:

(١) خادم الحرمين الشريفين في الشعر السعودي المعاصر ١٦٧
(٢) المرجع نفسه ١
(٣) المرجع نفسه ٢٨
(٤) اخبار مكة للأزرقي ١٠٨/١
(٥) سيرة ابن هشام ١٧٤/١

للغانيات بذي المجاز رسومُ
في بَطنِ مكة عهدهنّ قديمُ(1)

● وصف الحج والمناسك والمشاعر

يكاد شعر ما قبل الإسلام ينضوي في: الحديث عن مكة، وتصوير الحج، والحلف والقسم بالبيت الحرام، والحديث عن أحداث مكة، وبعض مظاهر المدح والفخر، والوصف.

وفي قصيدة أبي طالب اللامية نجده يذكر حركة الناس في مشاعر الحج دون أن يقصد قصدًا في وصف الحج في الجاهلية، فالقصيدة في معرض تبيان موقف الشاعر من الأحداث التي تجري حوله، كما يبدو في هذا الحديث، فهو يتعوذ بهذه الأماكن، ولكنه من خلال ذلك يوضح تنقلات الحجاج ما بين المشاعر، فمن الطواف، ولثم الحجر، إلى موقف إبراهيم عليه السلام، ثم السعي بين الصفا والمروة، والوقوف عند المشعر الحرام، وعرفة، ثم تجمعهم في المزدلفة ومنى، ثم رمي الجمرات:

واحضَرتُ عند البيت رَهْطِي وإخوتي
وأمْسَكتُ من أثوابِهِ بالوَصَائِلِ

قياما معًا مُستقبلينَ رتاجَهُ
لدى حيثُ يقْضي حَلْفَهُ كلّ نافلِ

وحيثُ يُنيخُ الأشْعَرون رِكابَهمْ
بمُفْضَى السّيول من إسَافٍ ونائلِ

موسَمةَ الأعْضَادِ أو قَصَراتُها
مُخَيَّسةً بين السَّديس وبازلِ

ترى الوَدْعَ فيها والرّخامَ وزينةً
بأعناقِها مَعْقُودةً كالْعَثاكِلِ

أعوذُ بربِّ الناسِ من كلّ طاعنٍ
علينا بسُوءٍ أو مُلِحٍّ ببَاطلِ

(1) شعر المتوكل الليثي ٧٤

ومن كَـــاشحٍ يَسْـعَى لنا بمَعِيـــبـــةٍ
ومن مُلْحِقٍ في الدين مـــا لم نُحـــاولِ
وثَـوْرٍ وَمَنْ ارسَى ثَبِــــيـــرًا مكانَهُ
وراقٍ لِـيَـــــرْقى في حـــــراءَ ونـازلِ
وبـالبــيت، حقٌ البــيت ، من بطن مكّةٍ
وبـالـلـهِ إنّ الـلـهَ لـيسَ بـغـــــافِلِ
وبالحَـجَـر الـمُـسْـوَدّ إذ يمســحـونَهُ
إذا اكـــتنفـــوه بالضُّـحى والأصــائلِ
ومـوطىءِ إبراهيمَ في الصّـخـر رَطْبـةً
على قـدمـيـهِ حـافـيًـا غـيـرَ ناعلِ
واشـواطِ بين الـمَـروتيْن إلى الصّـفـا
ومـا فـيـهـمـا من صُــورةٍ وتماثُلِ
ومَـنْ حَـجَّ بـيـتَ الـلـه مـن كـلّ راكـبٍ
ومِـنْ كـلّ ذي نَـذْرٍ ومـنْ كـلّ راجـلِ
وبـالـمَـشْـعَـرِ الأقـصَى إذا عَـمَـدوا لهُ
إلالّ إلى مُـفْـضَى الشّـراجِ القَـوابل
وَتَوْقـافِـهِمْ فـوقَ الجـبـالِ عَـشِـيَّـةً
يُقـيـمـون بالأيدي صـدورَ الرواحلِ
ولـيـلـةِ جَـــمعٍ والمنـازلِ من مِنًى
وهلْ فـوقـهـا من حُـرْمـةٍ ومنازلِ
وجـمْعٍ إذا مـا الـمُـقْـرَباتُ اجـزْنَهُ
سِـراعًـا كـمـا يَخْـرُجْنَ من وَقْعِ وابِلِ
وبالجَـمْـرة الكُبْـرَى إذا صَـمَـدوا لهـا
يؤمُّـون قَـذْفًـا راسَـهـا بالجَنادِلِ
وكِنْدة إذ همْ بـالحِـصـابِ عـشـيَّـةً
تُجِـيـزُ بهم حُـجّـاجُ بَكْرِ بنِ وائلِ[1]

(١) ديوان أبي طالب ٦٣ – ٧٠

وإذا كان أبو طالب قد ذكر الأماكن التي يسير فيها الحاج، فإنّ ضباعة بنت عامر تبين لنا الكيفية التي كان الناس يطوفون بها، ويبدو أنهم كانوا يقومون بذلك عراة، كما تقول:

اليوم يبدو بعضُهُ او كلّهُ
وما بدا منه فلا احلُّهُ[1]

وهذا ميمون بن عامر القشيري يقسم بالذي حجّت قريش بناءه، وهم يركبون الإبل، ويعلون أصواتهم بالتلبية، ويبدون من كثرتهم كنجوم السماء عددًا:

اما والذي حجّتْ قريشٌ بناءَهُ
على كلِّ مَوّارِ اليدينِ طَليحُ
ينادون لَبَّيْ ذي الجلالِ كأنّهمْ
نجومٌ بدتْ بين السّماء تلوحُ[2]

إنّ وصف مناسك الحج ومشاعره يملك على الشعراء ألبابهم وخيالاتهم، ذلك النسك العظيم الذي يبدأ بوفود الحجيج من كل فج إلى مكة، يستأثر في كل العصور حتى ما قبل الإسلام في عديد القصائد باهتمام بالغ، وهذا ابن دريد من شعراء القرن الرابع يذكر لنا ما يقوم الحاج به من مناسك في مقصورته المشهورة، فيتحدث بدءًا عن النية للتوجه لمكة ثم يتحدث عن كل منسك من مناسك الحج قائلاً:

ينوي التي فضّلها ربُّ العُلَى
لمّا دحا تُربتَهَا على البُنى
حتّى إذا قابلَهَا استعبرَ لا
يملكُ دمعَ العينِ من حيثُ جَرَى
ثُمّتَ طافَ وانثنى مُستلِما
ثمّتَ جاءَ المروتيْنِ فسَعَى
واوجَبَ الحجَّ وثَنّى عُمْرةً
من بعدِ ما عجَّ ولبَّى ودعا

---

(١) المستدرك في شعر بني عامر ١٢١

(٢) المستدرك في شعر بني عامر ٢/٣٧٦–٣٧٧، وموّار اليدين: والطليح من الإبل: الذي جهده السير.

ثُـمَّـتَ راحَ فـي الـــمُـلَـبّـينَ إلـى
حـــيثُ تحــجُّى المـازمـــانِ ومِنَى
ثمَّ إلى الـتـعـريفِ يقـرو مُـخْـبِـتًـا
مـــواقِـــفًـــا بينَ ألالِ فـــالـنَّـقَـــا
ثمَّ اتى الـمَــشْــعَــرَ يدعـــو ربَّهُ
تَضَـرُّعًـا وخُــفـيــةً حـتى همَى
واسـتـانفَ السَّبعَ وسَبْـعًـا بعـدها
والسَّـعيَ مـا بينَ الـعـقـابِ والصُّوى
وراحَ لـلـتـــوديعِ فِي منْ راح قـــدْ
احـــرزَ اجـــرًا وقلى هُجْـــرَ اللَّغَــا[1]

وهذا عبدالرحيم البرعي يذكر لنا وفد الحجيج، ويصف لنا حركتهم وطوافهم وسعيهم، فيقول:

وفي امِّ الـقُـــرى قـــرّتْ عـــيـــونٌ
عَـــشـــيـــةَ لاحَ زمـــزمُ والحَطِيمُ
اولاكَ الـوفــــــدُ وفْـــــدُ الـلـهِ لاذوا
إلـيـــهِ بفَـــقــــرهِمْ وهْـو الكريمُ
وطـافـــوا قـــادمينَ ببـــيـتِ ربٍّ
فــتـمَّ لهمْ طـوافُـــهمُ الـقـــدومُ
وبـين المروتـينِ سَـعـــوا سـبــوعًـــا
لكي يمحـــو شَـقــاءَهمُ النَّعـــيمُ
وقـــامـــوا في تمام الحَجِّ فـــرضًـــا
ونـدْبًـا طـالـبـينَ رضًـــــا يـدومُ
وادّوا فــي المـشَـــــاهـدَ كـلَّ حـقٍّ
ومـــا ســمـــعـــوا مـــلامَـــةَ من يلومُ

---

(١) ديوان ابن دريد ١٢٠ – ١٢١ دحا: بسط . البنى: جمع بنية والمقصود مكة. استعبر: بكى. التعريف: عرفات. يقرو: يتتبع المواضع. الال: موضع بعرفات. العقاب والصوى: موضعان.

وراحُـــوا بعـــدُ للتـــوديع لَـمّـــا
قَـضَـوْا تَفَـثًـا هناكَ ولم يُقـيـمـوا[1]

وهذا الوصف الذي يورده البرعي هنا إيجازًا، يأتي به في قصيدة أخرى تفصيلاً، فيذكر كلّ أمور الحاج حتى من الاغتسال والإحرام والتلبية، يقول:

حـتى انتـهـيتُ إلى الميـقـاتِ في زُمَـرٍ
من وفــد مكةَ يا طوبى لهـــا زُمَـــرا
ثمَّ اغــتَــسلْنَا واحْـرَمْنَا وسَــارَ بنا
حـادي المَطيِّ يخـوضُ الـهولَ والخَطَرا
ولم أزلْ رافـــعًـــا صـــوتي بتلْبِـيَـــتي
معَ الملبّين ممنْ حجَّ واعـــتَـــمَـــرا
حـــتى أناخت مطايانا بذي كـــرمٍ
لكلِّ وفـــدٍ لديهِ زُلْـفـــةٌ وقِــــرى
من ريفِ رأفـةِ ربِّ الحِـجْـرِ والحَـجَـرِ الـ
ـميمونِ لمَّا وصلنا الحِجْرَ والحَـجَرا
طُفْنا القُـــدومَ وصلّينا لنُدرِكَ مـــا
رُمنَا وجِـــئنا بركنِ السَّـــعي إنْ شَكُرا
ثمَّ اطمـــانَّ بنا التَّـــعـــريفُ بعـــدئذٍ
في مـــوقفٍ جـــمعَ الســاداتِ والكُبَـــرا
وفي الـمُـفـيـضينَ عـدنا حين تمَّ لهمْ
رميُ الجِـمَـــارِ وهاجَ النَّفْـــرُ مَنْ نَفَـــرا
حـــجّـــوا وراحـــوا يزورون ابن آمنةٍ
وعُـدْتُ في الفـرقـةِ الجـافينَ مُنْتظرا[2]

(١) شرح ديوان البرعي ١٠٥-١٠٦، والتفث في المناسك: ما كان من قص الأظفار والشارب وحلق الرأس ورمي الجمار، ونحر البدن، وما شابه ذلك.

(٢) نفس المصدر ١٠٩ وانظر في وصف مناسك الحج العديد من القصائد في العصر الوسيط والقرون الممتدة من القرن الخامس وحتى العاشر في المجموعة النبهانية في المدائح النبوية في المواضع التالية: ١ / ٩٤، ١٢٦، ٢ /١٠٥، ١١١، ٣٠٤، ٤ / ٣٩

والشعر الحديث هو الآخر وقف عند مناسك الحج، وأوفاها حقها من الوصف والتبيان، يقول الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي: «وفي الشعر الحديث أخذ الحج نصيبًا موفورًا من الذكر... وعرف شعر الحج ملاحم الحج وينبغي هنا أن أذكر بالاعتزاز أن الحفلات الحولية التي وضع تقليدها الملك عبدالعزيز رحمه الله كان لها الأثر الكبير في ملاحم الحج، فقد كانت المائدة السنوية التي كان يقيمها لكبار الحجاج، تحفل بالقصائد الجياد، وكذلك الشأن في حفلة الاستقبال الكبرى التي تقام في منى، وقد شارك في ذلك شعراء محليون من المملكة العربية السعودية، وشعراء من خارجها، فاستمعنا إلى شعراء فحول من خارج المملكة، من أمثال: عمر أبو ريشة، وأبو الإقبال اليعقوبي شاعر فلسطين، وحسين بستانه، وهادي خفاجي، وغير هؤلاء كثيرون من شعراء مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين والمغرب العربي.. وللأستاذ عمر أبو ريشة ملحمة إسلامية كبرى.. وقد سجلت حوليات الحج الكثير من الشعر الرائع الذي اشتمل على وصف الحج ومشاعره، وتأثيره في نفوس المسلمين»[1]. ولعل الكتابين اللذين أُلِّفا عن الملك عبدالعزيز، وهما: الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى، والملك عبدالعزيز في عيون شعراء الشام يوردان العديد من المقاطع التي تتحدث عن الحج، وتصفه من بداية الرحلة إلى ختامها، وسنأخذ بعض اللقطات المعبرة، لأن أخذها جميعًا، معناه أنّ كتابنا هذا سيتضاعف مرات ومرات، ولذلك سأقتصر على نماذج محدودة لشعراء من المملكة، وبعض النماذج لشعراء من خارجها، حتى نتبين كيفية الوصف والمعالجة.

ففؤاد شاكر يصف لنا الحجيج وقد مشوا في مواكبهم الخاشعة يدعون الله عز وجل ويلبّون:

هَتفَ الحَجِيجُ واشْرَقَ الحَرَمَانِ
وَهَفَتْ على كَنَفِ القلوبِ امَاني

وتَطلّعتْ زمرُ الحَجِيجِ تَشَوّقًا
للبيتِ في حُلَلٍ من الإيمانِ

ومَشتْ كتائبُها تروحُ وتغْتَدي
تَخْتَالُ في امنٍ وبينَ امَانِ

(١) الحج في الأدب العربي ١٧

في موكبٍ خشعتْ لهُ أبصارُها
غضّاً بكلِّ جوارحٍ وجنانِ
فاضتْ بهِ خُلَلُ الشِّعابِ مَسالِكٌ
فيَّاحةُ الأرباضِ والوديانِ(١)

والغزاوي يصف لنا هذه الجموع، فيقول متسائلاً:

لمنِ الجموعُ تنشَّرتْ بالوادي
متخشِّعينَ على هدىً ورشادِ
ولمنْ تَحدَّرتِ المدامعُ خِيفَةً
وتضرُّعًا في لهفةٍ وتنادي
ولمن عَنتْ هذي الوجوهُ كريمةً
وتجرَّدتْ في الموقفِ المعتادِ
ولمن مَشتْ كلُّ الفِجَاجِ واقبلتْ
بالوفدِ يهتفُ باسمهِ وينادي
للّهِ للرحمنِ جلَّ جلالهُ
هذا الخضوعُ يلجُّ بالعبَّادِ(٢)

وفي لقطة أخرى للغزاوي، يصف مسيرهم، فيقول:

سُبْحانَ من جمعَ الحجيـ
ـجَ فلا فُسُوقَ ولا جِدالْ
لبَّى خلائقُكَ الدّعا
من كلِّ فجٍّ بامتِثَالْ
وتَتابَعُوا زُمَرًا على
مَتنِ البحارِ أو الجبالْ
شُعْثَ النواصي حُسَّرًا
لم تُلْهِهم دنيا ومالْ

---

(١) الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى ١١٠
(٢) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية ٢/١/٨٩٧

يتسابقون لموقفٍ

خلتِ القرونُ وما استحال

لا فرقَ بينَ عظيمِهِمْ

وحقيرهِمْ بين التلالْ

كلُّ امرئٍ منهُمْ تَسَا

وى في اللباسِ وفي الظِّلالْ(١)

وهذا شاعر معاصر هو حبيب معلا المطيري يصف سير الركبان إلى البيت المحرم، ودموعهم تجري، وأصواتهم تلبي، يقول بعد تحية البيت الحرام:

الا ايُّها البيتُ العتيقُ تحيةً

إليكَ على الأيام ما ناحَ نائحُ

سَرتْ نَحْوكَ الركبانُ من كلِّ وجْهةٍ

قد ابيضَتِ الأثوابُ والقلبُ صالحُ

يَؤُمّونَ نحوَ البيتِ تَهْمي عُيونُهمْ

كأنَّ مدارَ العينِ فيهنَّ ناضحُ

ينادون يا لبَّيْكَ للهِ سعيُهُمْ

فَتَسْمعُهمْ تلكَ الجبالُ النواطِحُ

لكَ الحمدُ يا ربّاهُ ما طافَ طائفٌ

ومَسَّحَ بالركنِ اليمانيِّ ماسحُ

ويتصور نفسه مع الحجاج فيقول:

كأنّيَ في تلكَ الربوعِ مُلبِّيًا

معَ القومِ حتى يبلغَ القربَ طامحُ

لدى الكعبةِ الْغرّاءِ طابَ مَزارُها

أتاها من الناسِ الكرامِ الحجاجحُ

---

(١) ديوان نوافذ الشمس ٧

فـفي عـرفـاتِ الله يَمْـحُـونَ حُـوبَةً
لهـا في صَـمـيمِ القلبِ لَذْعٌ يُراوِحُ
وفي المَشْعَرِ القُدسيِّ مَدّوا اكفَّهُمْ
ايا ربِّ في الأعْـتـابِ تاتي المنائحُ[1]

وإذا كان الشعراء في العصر الحديث من المكيين وغيرهم قد ترنموا بحب مكة، فإنَّ من شعراء الوطن العربي في كلِّ بقاعه، من كانت لهم مكة طموحًا وغاية، والوصول إليها أمنية ورغبة، والحديث عنها تقربًا وطاعة، ولعل أمير الشعراء أحمد شوقي كانت لديه الرغبة الأكيدة في الوصول إليها، وما قصيدته إلى (عرفات الله) إلاّ تعبير عن ذلك الشوق الأكيد، فشوقي يعبر عن شوقه من خلال هذه القصيدة المدحية، حيث يؤكد على ذكر التفاصيل، فيقول:

إلى عَرَفاتِ اللهِ يا خيرَ زائرٍ
عليكَ سلامُ اللهِ في عرفاتِ
ويومَ تولّي وجهةَ البيتِ ناضرًا
وسيمَ مجالي البِشْرِ والقَسَمَاتِ
على كلِّ أُفْقٍ بالحجازِ مَلائكٌ
تزفُّ تحايا اللهِ والبركاتِ
وفي الكعبةِ الغرّاءِ ركنٌ مُرحِّبٌ
بكعبةِ قُصّادٍ وركنِ عُفَاةِ
وما سَكَبَ الميزابُ ماءً وإنّما
افاضَ عليكَ الأجرَ والرَّحماتِ
وزمزمُ تجري بينَ عَينيكَ اعْيُنًا
من الكوثرِ المعسولِ مُنْفَجِراتِ[2]

وهذا إحسان عبّاس يخاطب مكة ويهنئها بمولد الرسول الأعظم في قصيدته (عرس النور في أم القرى) يقول:

(١) ديوان نوافذ الشمس ٧ – ٩
(٢) الشوقيات ١ / ٩٨

حَـــركي مـــزهرَ المَـــبَـــاهجِ إنَّ الْـ

ـلَيلَ يصـحـو على اهتـزازِ النَّشـيـدِ

واسْكُبي في الشّـعـابِ ترنيـمـةَ النُّو

رِ وناغي الأطيــارَ بـالـتـغـريدِ

واغْـمُـري الكونَ بالهـتـافِ فـقـدْ هبْـ

ـبَ على الكونِ نفـحـةٌ من خلودِ

بشّــري الدهر فـالـغـيـوبُ تجلَّتْ

عن سناءٍ في وجـهِ خَـيـرِ ولـيـدِ

انـتِ يـا مـنـزلَ المـلائـكِ والـوَحـ

ـيِ ومَـهْـوَى الإيمانِ والتَّـوحـيـدِ

احـــرمتْ حَـــوْلَكِ القلوبُ وراحتْ

تَنْهَلُ الأمنَ من لَـمَــاكِ البَــرُودِ

النُّبـــواتُ من جـــبـــينكِ فـــاضتْ

وجَـثَـا الكونُ في عـمـيقِ السُّجُـودِ

غـــادةُ البِـــيـــدِ انتِ في كلِّ قلبٍ

مـعـبـدٌ طائفٌ بعـيـدُ الحدودِ

انتِ تسـبـيـحـةٌ يظلُّ الحَـيَـارى

حَـوْلَهـا حُـوَّمًـا ليـومِ الورودِ[1]

● ذكر الأمكنة والبقاع

فهذا أبو طالب يذكر لنا في لاميته التي مدح بها نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام العديد من أمكنة مكة مثل: (جبل ثور وحراء والبيت الحرام وما فيه من الحجر الأسود، ومقام إبراهيم والصفا والمروة، والمشعر الحرام، وجبل عرفة، ومزدلفة، ومنى والمحصب)، ولا يكاد يترك مكانًا أو مشعرًا إلا وأتى به في هذه اللامية الرائعة في مدح سيد البشر، يقول:

---

(١) ديوان إحسان عباس ٢٥٧

ولَمّا رايتُ القَومَ لا وُدّ فيهمُ
وقدْ قطَعوا كلّ العُرَى والوسائلِ
صَبرتُ لهم نفسي بسمراءَ سَمْحةٍ
وابيضَ عَضْبٍ من تُراثِ المَقاولِ
واحضرتُ عند البيتِ رَهْطي وإخوتي
وامسكتُ من اثوابهِ بالوَصَائلِ
قيامًا معًا مُستقبلينَ رتاجَهُ
لدى حيثُ يَقْضي حلْفَهُ كلُّ نافلِ
اعوذُ بربِّ النّاسِ من كلّ طاعنٍ
علينا بسُوءٍ او مُلِحٍّ بباطلِ
وثَوْرٍ ومَنْ ارسى ثَبِيرًا مكانَهُ
وراقٍ ليَرْقى في حِراءَ ونازلِ
وبالبيتِ، حقُّ البيتِ من بطنِ مكةٍ
وباللهِ إنّ اللهَ ليسَ بغافلِ
وبالحَجرِ المُسْودِّ إذْ يمسحونهُ
إذا اكتنفوهُ بالضُحى والأَصَائلِ
وموطئِ إبراهيمَ في الصَّخرِ رطبةً
على قَدَميهِ حافيًا غيرَ ناعلِ(١)

وهذا الأعشى يذكر عددًا من الأماكن في قوله يهجو عمير بن عبدالله بن المنذر بن عبدان، فيقول:

فما انتَ من اهل الحَجُون ولا الصَّفا
ولا لكَ حقُّ الشَّربِ من ماءِ زَمْزمِ
وما جَعلَ الرحمنُ بيتَكَ في العُلا
باجياد غربيّ الصّفا والمُحرّمِ(٢)

---
(١) ديوان أبي طالب ٦٣ – ٧٤
(٢) ديوان الأعشى الكبير ١٧

وذكر الأماكن في الشعر الحديث يلتقي مع القديم، وإن كان بعض المسميات قد تغير، يذكر مفرج السيد الكعبة الشريفة، والمقام والحجر وحطيم وزمزم والمنارات وحراء، يقول:

وبكِ الكعبةُ الشّريفةُ تزهو
بِسَناها وطِيبِهَا الفَوّاحِ
والمقامُ الكريمُ والحجرُ فيهِ
يجدُ الصّدرُ لذّةَ الإنشراحِ
وحَطِيمٌ وَزَمْزمٌ وهْو أحلى
لفؤادي من الزُّلالِ القَرَاحِ
والمناراتُ في دُجَى الليل أهْدَى
من مَنَارِ البِحارِ للمَلّاحِ
وحِراءُ أعْظِمْ بغارِ حراءٍ
منزلِ الوحي والهُدى والصَّلاحِ[1]

ويعدد حسين عرب هذه الأماكن، فيقول:

وحراءٌ وزمزمٌ والمصلّى
ومِنًى والمقامُ والمروتانِ
والمحاريبُ والمشاعرُ كونٌ
ناطقٌ بالتُّقى وبالإيمانِ
هذه مكةٌ فحيِّ المغاني
بينَ أرجائها بعذبِ الأماني
فإذا ما نظرتَ للكعبةِ الغُرْ
راءِ فاسجدْ لفاطرِ الأكوانِ
فهنا بيتُهُ وهذا حماهُ
فازَ فيهِ الحجيجُ بالغفرانِ
والمناراتُ حولهُ شامخاتٌ
رجّعتْ في السماءِ صوتَ الأذانِ[2]

(١) مكتي قبلتي ٢٠٦
(٢) المرجع نفسه ٤٥

ويذكر الغزاوي هذه الأماكن من خلال القصيدة المدحية، ففي مدحه للملك فيصل يقول:

في رُبى الخَيفِ من مِنىً شِمْتُ برقًا
ثمّ وَدْقًا هو السّحابُ الثّقالُ
ربعتْ منهُ ذاتُ عِرقٍ وَوَجٌّ
وعكاظٌ وكبْكبٌ والآلُ
وبِنَعْمَانَ ذي الأراكِ تَهَادَى
موكبُ النصرِ وانْبَرَى الأبطالُ[1]

ويقول في أخرى مادحًا الملك فيصل وذاكرًا العديد من الأماكن:

هذا ثَبِيرُ في البِجَادِ مُزَمّلٌ
وشِغَافُهُ تَعلو بها الأنسامُ
إنّ المَشَاعِرَ ما ازدهتْ إلاّ لأنْـ
ـنَ بها الفرائضَ والحدودَ تُقامُ
وحِرا وجمعٌ والبطاحُ ومكةٌ
والخَيفُ والتّنعِيمُ والأعْلامُ
لَهَجَتْ بفيصلَ إنّهُ الملكُ الذي
يزهو الرشيدُ بعصرهِ وهشامُ[2]

ويحظى غار حراء أو جبل النور من الشعراء المحدثين والمعاصرين بلفتات وصفية جميلة، تؤكد على مكانة هذا الجبل في النفوس، وما كان له من أثر، حيث المكان الأول الذي احتوى تعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه أشرق النور، يقول حسين عرب متسائلاً عن ذاك العهد الرائع، عهد الوحي والقرآن، هذا العهد الذي جعل الغار مكللاً بالغار:

(١) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية ٢ / ٢ / ١٥٦٨
(٢) أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية ٢ / ٢/ ١٦٧٥

جبلَ النورِ كيفَ عَهْدُكَ بالوحـ

ـي وعهدُ الربوعِ والقرآنِ

أيُّ سرٍّ أحاطَ بالغارِ حتى

صار غارًا على جبينِ الزمانِ

أشْرَقَ الفجرُ منهُ فاشْتَعلَ الليْـ

ـلُ ضياءً وهلّلَ المشْرِقانِ

وصلَ الأرضَ بالسماءِ حديثٌ

عبقريُّ الظلالِ والألوانِ

آيةٌ بعدَ آيةٍ بعدَ أخْرى

يَتَوارى من نورِهَا النَّيِّرانِ

سُوَرٌ كالنّجوم بل هي أسْمَى

بالمعاني وبالهدى والبَيانِ(١)

وجبل النور الذي شهد المعجزات عند حسن عبدالله القرشي، منه شع اليقين، وهو قمة الخلود، كيف لا وقد تعبد فيه سيد البشر؟ يقول:

هَيَا جبلَ النورِ كم ذا شَهِدْتَ

من المعْجِزاتِ وكَمْ ذا ظَهَرْ

تحدَّثْ ففي الغارِ شعَّ اليقينُ

وقد تُنْطِقُ الذِّكْرياتُ الحَجَرْ

أيا قِمَّةً فوقَ هامِ الخُلودِ

سمتْ بِسَناها الشّذيُّ العَطِرْ

إذا ما ارتَقيتُ إليكَ انطوى

بحسّي الزمانُ وَكَلَّ البَصَرْ

وخَفَقْتُ وطئيَ أنْ يستقرّ

أما سارَ فيكَ نبيُّ البَشَرْ

---

(١) مكتي قبلتي ٤٧

وكَم قـــدْ تعـــبَّــدَ نبتَ الجنانِ
يزينُ مُـــحَـــيَّـــاهُ اسْـــمَى اثرْ
إلـــى ان اطـلَّ عـلـى الـكـائـنـاتِ
كـإطلالةِ الفـجـرِ بعـدَ السَّـحَـرْ[1]

الأقحوانة: موضع بمكة ما بين بئر ميمون إلى بئر ابن هشام قديمًا، وحديثًا تشمل أحياء الروضة والششة وما جاورهما. وقد ذكرت في الشعر، فمن ذلك ما ورد في شعر يفتخر فيه الحارث بن خالد المخزومي بانتمائه وانتسابه لمكة، وبالذات إلى مكان بعينه في مكة هو الأقحوانة، فيقول:

من كـــان يَسْـــالُ عنّا اين مَنْزِلُنَا
فـــالأقْـــحُـــوانةُ منّا مَنزِلٌ قَـــمِنُ
إذ نلبسُ الـعَـــيْشَ غَـــضًـــا لا يكدِّرهُ
قَـــولُ الوشَـــاةِ ولا يَنْبـــو بنا الزمنُ[2]

ابو قبيس: جبل من جبال مكة، ومكة تقع بين جبلين هما: أبو قبيس وقعيقعان، ويتصل بأبي قبيس الخندمة، وقال فيها حماس بن قيس البكري:

إنّكِ لو شَـــهِـــدْتِ يومَ الخَنْدَمَـــهْ
إذْ فـــرَّ صـــفـــوانٌ وفـــرَّ عِكْرِمَـــهْ[3]

يقول علي بن محمد التنوخي القاضي يذكره:

قـــد قَـــدِمَ الـعُـــجْبُ على الرُّويسِ
وشـــارفَ الوهدُ ابا قُـــبَـــيْسِ[4]

بئر ميمون: بئر بمكة بين البيت والحَجُون بأبطح مكة، وفيه قال عمر بن أبي ربيعة:

نـزلتْ بمكةَ من قَـــبـــائلِ نوفلِ
ونزلتُ خلفَ البـــئـــرِ ابعـــدَ مَنْزِلِ[5]

---

(١) المرجع نفسه ١٣٤
(٢) غاية المرام ١ / ١٣٠
(٣) كتاب المناسك ٤٧٣ - ٤٧٤
(٤) المحمدون من الشعراء ٢٢
(٥) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٤٩٨

وقيل:

وهم حفروا البئرَ التي طابَ ماؤُهَا
بمكةَ والحُجَّاجُ ثَمَّ شُهُودُ[1]

بطن مكة: بطحاؤها وداخلها. وقريش قسمان: قريش البطحاء وهم الذين يسكنون أباطح مكة، وهم أشرافها، وقريش الظواهر وهم الذين ينزلون ما حول مكة، يقول أمية بن أبي الصلت الثقفي في رثاء عبدالله بن جدعان:

الا تَرَوْنَ كما ارى
ولقد ابانَ لكلِّ لامِحْ
انْ قد تغيَّرَ بطنُ مكْ
كَةَ فهْيَ مُوحِشَةُ الأباطِحْ[2]

ويقول مرة أخرى في رثاء ابن جدعان ذاكرًا أنه من قريش الأباطح الأشراف، لا من الظواهر:

نَزلوا البِطَاحَ وفُضِّلتْ
بهِمُ البواطنُ والظّواهِرْ
فَحَلَلْتَ منها بالبطا
حِ وحلَّ غيرُكَ بالظواهر[3]

وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

فلو شَهِدتْنِي من قريشٍ عِصَابةٌ
قريشِ البطاحِ لا قريش الظواهرِ[3]

ويقول أبو دهبل ذاكرًا بطن مكة:

ولا توعدْ لتَقْتُلَهُ عليًا
فإنْ وعيدَهُ كلأٌ وبيلُ

(١) معجم ما استعجم ٤ / ١٢٨٥
(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٤٧
(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ٤١٤
(٤) هامش ديوان أمية ٤١٤

ونـحـن بـبـطـنِ مـكـةَ إذ تـداعـى
لِرهطِكَ من بني عـمـروٍ رَعِـيلُ[1]

الحَجون: بفتح أوله على وزن فَعول: موضع بمكة عند المُحَصَّب هو الجبل المشرف بحذاء المسجد الذي يلي شعب الحرارين، على ما بين الحوضين اللذين في حائط عوف..
قال أبو ذؤيب الهذلي:

الكِني إليـهـا وخَـيْـرُ الرَّسـو
ل أعْلَمُـهُمْ بنواحي الخَـبَـرْ
بآيةِ مـا وقَـفَـتْ والركـا
بُ بينَ الحَـجُـونِ وبين السُّـرر[2]

ويذكر الأسدي متشوقًا:

ديـارَ الـحـيِّ أيـنَ هـمُ قـطـونُ
انعـمـانُ الأراكِ أمِ الحَـجُـونُ[3]

ويقول محمد بن جعفر:

فـصلّى عليـه اللهُ مـا ذرَّ شـارقٌ
ووافتْ حَـجـونَ الـبـيـتِ اركُبُ مُـحْـرِمِ[4]

ويدعو ابن المقرب، فيقول:

أنْعِمْ علينا بالـدّعـاءِ إذا الْـتَـقَى
بحَـجُـونِ مكةَ مَـشْـرِقٌ وشَـآمُ[5]

الحِجْر: حطيم الكعبة، وهو المدار بالبيت كأنه حجْرُه، مما يلي المشعب[6] (ويقع في شمال الكعبة، وهو ما حُطم من الكعبة وكُسر، وهو بناء مستدير على شكل نصف دائرة..

(١) ديوان أبو دهبل ٩٨
(٢) معجم ما استعجم ١/ ٣٣٦
(٣) المحمدون من الشعراء ١٤١
(٤) المصدر نفسه ٢٥٠
(٥) ديوان ابن المقرب ٢ / ٩٩٤
(٦) معجم ما استعجم ٢/ ٤٢٧

وهذا البناء مغلّف بالرخام، وأحد طرفيه محاذ للركن الشامي، والآخر محاذ للركن الغربي)[1] وقال ابن دريد: (كانوا يحلفون عنده، فيحطم الكاذب) [2].

وقد ورد ذكر الحطيم كثيرًا في الشعر العربي، ويقرن بزمزم دائمًا، يقول عروة بن أذينة:

لو كان حَيّا قبلهنّ ظَعائنًا
حيّا الحطيمُ وجُوهَهُنّ وزمْزمُ
وكأنّهُنّ وقد حسرنَ لواغِبًا
بيْضٌ بأكنافِ الحَطِيمِ مُركَّمُ[3]

ويقول الشريف المرتضى معلنًا ملكيته للحطيم:

ولنا الحَطِيمُ وزمزمٌ وتُراثُنا
نِعْمَ التّراثُ عن الخليلِ مقامُ
والحِجْرُ والحَجَرُ الذي لِصِفَاتِهِ
أبدَ الزمانِ الضمُّ والتّقْبيلُ[4]

وفي مثله يقول أشجع السّلمي:

والحِجْرُ والحَجَرُ الأصـ
ـمُ بطولِ مسٍّ واستلامِ[5]

حراء: جبل يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة مكة، ويسمى جبل النور، ويحتوي على غار حراء الذي كان النبي عليه الصلاة والسلام يتعبد فيه قبل الرسالة، وفيه كان أول نزول الوحي، ويلفظ بكسر أوله، ممدود على وزن فعال، جبل بمكة، قال الأصمعي: بعضهم يذكّره ويصرفه، وبعضهم يؤنّثه ولا يصرفه، قال عوف بن الأحوص في تأنيثه:

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب ١٦٤ – ١٦٥
(٢) كتاب الأمكنة والمياه للزمخشري ٦٨
(٣) شعر عروة بن أذينة ٣٦٨
(٤) ديوان الشريف المرتضى ٣ / ٣١
(٥) شعر أشجع السلمي ١١١

فإنّي والذي حَجَّتْ قريشٌ
مَحَارمَهُ وما جَمَعتْ حِراءُ[1]

وأنشد الفراء:

ألَسْنا أكْرمَ الثَّقَلَيْن رَحْلاً
وأعظمَهُم ببطنِ حِراءَ نارا

قال ابن الأنباري: إنما لم يجر حراء لأنه جعله اسمًا لما حول الجبل، فكأنه اسم لمدينة، وأنشد لابن هرمة في التأنيث:

وخيلتْ حِراءُ من ربيعٍ وصيْفٍ
نعامة رملٍ وافرًا ومُقَرْنصَا

وأجراها لضرورة الشعر، وقال أبو حاتم التذكير في حراء أعرف الوجهين[2] .

ويشبهه أحد الشعراء برأس الفارسي المتوج، كما في قوله:

تَفَرَّجَ عنها الهَمُّ لما بدا لها
حراءُ كراسِ الفَارسيِّ المُتَوَّجِ
مُنَعَّمَةٌ لم تدرِ ما عيشُ شِقْوةٍ
ولم تَغْترد يومًا على عودِ عَوسَجِ[3]

وورد في شعر حسان بن ثابت يشبه جمع الكفار يوم بدر بجبل حراء، يقول:

غداةَ كانَّ جَمْعَهُمُ حِرَاءُ
بَدتْ أركانُهُ جُنْحَ الغروبِ
فَلاقَيْنَاهُمُ منّا بِجَمْعٍ
كَأُسْدِ الغابِ مُرْدَانٍ وشِيبِ[4]

---

(١) معجم ما استعجم ٢/ ٤٢٦

(٢) معجم ما استعجم ٢/٢٤٧ والبيت في ديوانه ١٣٤ والمقرنص: الذي سقط ريشه

(٣) انظر المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٨

(٤) ديوان حسان بن ثابت ٧٠

الخيف:

ويذكره عبدالله بن قيس الرقيات، فيقول:

لَيتَ شِعري أفاحَ رائحةَ المس
ك وما إنْ إخالُ بالخَيف أَنْسِي[1]

ويقول كُثَيِّر:

توهَّمتُ بالخَيف رسمًا محيلا
لِعَزَّةَ تَعْرِفُ منهُ الطُّلُولا[2]

ولمهيار يقول:

ليتَ بيتًا بالخَيْفِ امسِ استضفنا
هُ قَرانا ولو غرامًا ووَجْدًا[3]

ويقول الشريف الرضي:

وإذا مَرَرْتَ بالخَيفِ فاشْهَدْ
انَّ قلبي إليهِ بالأشواقِ[4]

ثبير: جبل بمكة.. كانوا يقولون في الجاهلية: (اشرق ثبير كيما نُغير) وهو الذي صعد فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فرجف به، فقال: «اسكن ثبير، فإنَّما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيد[5] » وقد روي هذا في حراء.

ويقول العرجي ذاكرًا ثبيرًا في غزله:

وما انسَ مِ الأشياء لا انسَ موقفًا
لنا ولها بالسَّفحِ دونَ ثَبِيرِ

(١) ديوانه ٥٨
(٢) معجم ما استعجم ٣ / ٧٨٧
(٣) مثير العزم الساكن ٣١٨
(٤) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٧٩
(٥) سنن النسائي رقم ٣٣٧٤

ولا قـولَهـا وَهْنًا وقـد سَـمَـحَتْ لنا
سـوابقُ دمعٍ لا تجفُّ غـزيرِ
ألنتَ الذي خُـبِّـرتُ أنّكَ باكـرٌ
غـداةَ غـدٍ أو رائحٌ بِهَـجـيـرِ
فـقلتُ: يسـيـرٌ بعضُ يومٍ بغَـيْـبَـةٍ
ومـا بعضُ يومٍ غَـيـبـةً بيـسـيـرِ[1]

دار الندوة:

أنشأها قصي بن كلاب لتكون مركزًا وناديًا يجتمع فيه زعماء قريش، لتبادل المشورة في ما يخص مصالح مكة الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية والعسكرية، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام من ناحية الجهة الشامية من الكعبة، وكانت فسيحة وسيعة، وفيها كانت قريش تقضي شؤونها العامة، وقد سُمّيت الندوة لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر ندُّوا إليها للتشاور [2].

قال ابن سلام:

ألْهَى قُـصَـيّـاً عن المجـدِ الأسـاطيـرُ
ورشـوةٌ مـثل مـا تُرشى السَّـفَـاسـيـرُ
وأكلُهـا اللحمَ بحـتًـا لا خليطَ لهُ
وقـولُها رحلتْ عِـيـرٌ مَـضتْ عـيـرُ[3]

الريان: وفي ظهر دار العجلة جبل الريان، قال الشاعر:

يا حـبّـذا جـبـلُ الريّانِ من جـبلٍ
وحـبّـذا سـاكنُ الريّان من كـانـا

ويذكر حمد الجاسر: والبيت لجرير، ومن المستبعد أن يقصد جبلاً بعيدًا من بلاده[4] ولا أدري سبب استبعاد حمد الجاسر ذلك، فجبل نعمان أيضًا بعيد عن كل من ذكروه، ولم يكن ذلك مما يستبعد.

---

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٣
(٢) انظر الأغاني ٤ / ٣٨٤، وياقوت الحموي١٩ / ٢٧٩
(٣) طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٣٥ – ٢٣٦
(٤) كتاب المناسك ٤٧٦

ذو المجاز:

سوق من أسواق العرب، وهو عن يمين الموقف بعرفة، قريبًا من كبكب[1]، وورودها في الشعر يدل على أهميتها، يقول أبو ذؤيب الهذلي:

وراحَ بـهـا من ذي الـمَـجَـازِ عَـشـيَّـةً
يُبَـادرُ أولى السَّـابقـاتِ إلى الحَـبْلِ[2]

ويقول المتوكل الليثي:

للغـانيـاتِ بذي المجَـاز رسُـومُ
في بطنِ مكةَ عَـهْـدُهُنَّ قَـديمُ[3]

ويرى الأستاذ سعيد الأفغاني أن ذا المجاز الذي ورد في معلقة الحارث بن حلّزة اليشكري في قوله:

واذكـروا حِلْفَ ذي الـمَـجَـاز ومـا قُـدْ
ـدِمَ فـيـهِ العُـهُـودُ والكُفَـلاءُ

أنها التي في شمال الجزيرة لأن مقام قبيلته يشكر والأحداث بينها وبين غيرها كانت هناك[4]، ولا أتصور أنّ هناك ما يمنع أن يكون هذا الحلف قد عقد في هذا السوق قرب مكة تأكيدًا على الالتزام به، وبخاصة أن قبيلة يشكر كانت من القبائل التي ترد هذه الأسواق كما ذكر هو نفسه قبل قليل في حديثه عن ورود القبائل موسم الحج، وسوق عكاظ.

ويبدو أنّ إقامة هذه السوق في وقت الحج ما يدعم القول بأنها هي المقصودة في هذا الشعر.

السِّرَر: بكسر أوّله موضع مذكور في رسم الحجون، كما في بيت أبي ذؤيب:

بِـايـةِ مـا وقَـفَـتْ والـرِّكَـا
بُ بـين الحَـجُـونِ وبَيْنَ السِّـرَرِ[5]

---

(١) معجم ما استعجم ٤ / ١١٨٥
(٢) أسواق العرب ٣٤٧
(٣) شعر المتوكل الليثي ٧٤
(٤) أسواق العرب ٣٤٨
(٥) معجم ما استعجم ٣ / ٧٣٢

الطوي:

يقول الحطيئة:

يا دارَ هندٍ عَفَتْ إلاّ أثافِيهَا
بينَ الطّويِّ فَصاراتٍ فَواديهَا

قلهى: موضع قريب من مكة، وفيه يقول زهير بن أبي سلمى:

إلى قَلَهَى تكونُ الدّارُ منّا
إلى أكْنافِ دَوْمةَ فالحَجُونِ[1]

عكاظ: وعكاظ مشتق من قولك: عكظت الرجل عكظًا إذا قهرته بحجتك، لأنّهم كانوا يتعاكظون هناك بالفخر، قال ياقوت الحموي: (عكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة، ويتفاخرون بها، ويحضرها شعراؤهم، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر، ثم يتفرقون)[2] (وقيل: عكاظ ماء، قال: إنّ عكاظًا ماؤنا فخلّوه، وقيل: عكاظ ما بين نخلة والطائف إلى بلد يقال له الفتق، كانت سوق تقام هلال ذي القعدة فلا تزال قائمة عشرين يومًا)[3] ويذكر المرزوقي في شرح الحماسة فيقول: (عكاظ : واد للعرب فيه سوق لهم يجتمع فيه طوائف الناس من جميع الأحياء، فيتعارفون فيها، ويتعلقون بالأخبار بعد التذاكر بها، والتنسم لها، وبينهم المواعدات، والمقايضات، والإحن والتِّرات، والمنافرات، والمناقضات)[4] ويصفه الأستاذ سعيد الأفغاني بقوله: (عكاظ هي المعرض العربي العام أيام الجاهلية، معرض بكل ما لهذه الكلمة من مفهوم لدينا نحن أبناء هذا العصر، فهي مجمع أدبي لغوي رسمي، له محكمون تُضربُ عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم)[5] وكانت بعكاظ وقائع مرّة، وفي ذلك يقول دريد بن الصمة:

تَغَيَّبْتُ عن يَومَيْ عُكاظٍ كِلَيهِمَا
وإنْ يكُ يومٌ ثالثٌ أتغيَّبُ

(١) معجم ما استعجم ٣ / ١٠٩٣
(٢) معجم البلدان: عكاظ
(٣) كتاب الأمكنة للزمخشري ١٥٤
(٤) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١٥١٤
(٥) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ٢٨٥

وإنْ يكُ يومٌ رابعٌ لم اكنْ بهِ

وإنْ يكُ يومٌ خامسٌ اتجنّبُ[1]

ويشير حاتم الطائي إلى مكانة عكاظ الشعرية، وأن الشعر من عكاظ ينتشر بقوله:

فلا اعرفنَّ الأُدمَ والدُّهْمَ تَغْتَلِي

يَزُرْنَ عُكَاظًا بالذي انا قائلُ[2]

ويذكر النابغة الذبياني عكاظ، وكان فيه شيخ النقاد والمحكمين، فقد أشار عليه زُرعة ابن عمرو بن خويلد وقد لقيه في عكاظ بأن يشير على قومه بقتال بني أسد وترك حلفهم، فأبى النابغة الغدر وقال بعد أن توعده زرعة:

نُبّئت زرعة والسَّفاهةُ كاسمها

يُهْدي إليَّ غرائبَ الاشْعَارِ

فَحَلَفْتُ يا زَرْعَ بن عمروٍ إنّني

رجلٌ يَشُقُّ على العَدُوِّ ضِراري

ارايتَ يومَ عكاظَ حين لَقِيتَنِي

تحت العَجَاج فما شَقَقْتَ غُبَارِي

انّا اقْتَسَمْنا خُطّتَينا بَيْنَنا

فحملتُ برّةَ واحتملتَ فَجارِ

فَلَتَأتِيَنْكَ قصائدٌ ولَيَدْفَعَنْ

جيشًا إليكَ قَوَادمُ الاكْوَارِ

رهطُ ابنُ كوزٍ مُحْقِبي ادراعِهم

فيهم ورهط ربيعةَ ابنِ حُذارِ

---

(١) معجم ما استعجم ٣ / ٩٦٠-٩٦١

(٢) ديوان حاتم الطائي ٢٨٤ والأدم: صفة للإبل، والدهم: صفة للخيل.

وبنو جَـذيمَةَ حيُّ صِـدقٍ سـادةٌ
غلبوا على خَبْتٍ إلى تِعْشَارِ
مُتكَنِّفي جَنْبَيْ عكاظَ كِلَيهِمَا
يدعو بها وِلْدانُهم عَرْعَارِ(١)

وكانت القبائل تأتي عكاظ للتجارة من قريش وهوازن وغطفان وخزاعة والأحابيش وعضل والمصطلق، ويؤمها من العراق والبحرين واليمامة وعمان والشحر وسائر أطراف الجزيرة، وكان أمر الموسم وقضاء عكاظ في بني تميم يكون ذلك في افخاذهم: الموسم على حدة، وعكاظ على حدة، وكان من اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدواني، وسعد بن زيد مناة من تميم، وقد فخر المخبل بذلك في شعره، فقال:

لَيالِيَ سَعدٌ في عُكاظٍ يسوقُهَا
لهُ كلُّ شَرقٍ من عُكاظَ ومغْرِبِ(٢)

وكان أصحاب الثارات يتعرفون إلى من لهم ثار عندهم، ولذلك كان الفرسان يضعون على وجوهم أقنعة حتى لا يُعرفوا، وكان طريف بن تميم العنبري من فرسان العرب لا يتقنع، فنظر إليه رجل يتعرفه، فقال:

اوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عكاظَ قبيلةٌ
بعثوا إليَّ عريفَهُم يَتَوَسَّمُ
فَتَوَسَّموني إنَّني انا ذلكمْ
شَاكي سلاحي في الحوادثِ معلمُ
تحتي الأغَرُّ وفوقَ جلدي نَثْرةٌ
زغفٌ تردُّ السيفَ وهْو مُثَلَّمُ(٣)

فالمنافرة والمسابقة، والتجارة، والبحث عن الضائع، ومن له أسير، ومن يبحث عن عمل، ومن يريد إشهار عمل من أعماله، كل أولئك كانوا يأتون عكاظ، قال أبو ذؤيب الهذلي:

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ٣٧ وعرعار لعبة لصبيان الأعراب كانوا يتداعون بها ليجتمعوا للعب
(٢) انظر الأزرقي ١٣١ وأسواق العرب ٢٩١ والبيت في ديوان المخبل
(٣) انظر أسواق العرب ٣٠٥، والنثرة: الدرع الواسعة. والزغف: الدرع اللينة او الرقيقة

إذا بُنيَ القبابُ على عكاظٍ
وقام البيعُ واجتمع الألوفُ(1)

وقال آخر يضرب بها المثل:

فإنكَ ضحّاكٌ إلى كلِّ صاحبٍ
وانطقُ من قُسٍّ غداةَ عُكاظها(2)

وهم إذا ارادوا نشر شعرهم بين العرب جاؤوا عكاظ وأنشدوا، كما ورد عن عمرو بن كلثوم في معلقته، حيث جاء عكاظ وأنشدها، والدليل على أهمية عكاظ في نشر الشعر قول أمية بن خلف الخزاعي يهجو حسان بن ثابت، يقول:

الا مَن مبلغٌ حسّانَ عنّي
مُغلغلةً تدبُّ إلى عُكاظِ(3)

فأجابه حسان بقوله:

اتاني عن اميّةَ زورُ قولٍ
وما هو بالمغيبِ بذي حِفاظِ
سَانشرُ ما حَييتُ لهم كلامًا
يُنَشَّرُ بالمجامعِ من عكاظِ(4)

وهذه امرأة قُتِلَ زوجها، فهجت قاتليه من بني عوف، مذكرة إياهم بأنهم سوف يلقون قولها هذا في عكاظ :

متى تَرِدُوا عكاظَ تُوافِقُوها
باسماعٍ مجادِعُها قِصَارُ
اجيرانَ ابن ميّةَ خبّروني
اعينٌ لابنِ ميّةَ ام ضِمارُ

---

(1) أسواق العرب ٣٣٩
(2) المرجع نفسه ٣٣٩ - ٣٤٠
(3) المرجع نفسه ٣٣٩
(4) المرجع نفسه ٣٣٩

تَجَلَّلَ خِــزْيُهَـــا عـــوفَ بنَ كـــعبٍ
فليسَ لخلفـــهـــا منهُ اعْـــتِـــذارُ
فـــإنَّكمُ ومـــا تُخْـــفُـــونَ منهـــا
كــذاتِ الشــيبِ ليسَ لهـــا خِــمَـــارُ[1]

المأزمان:

وهما جبلان، قال أبو إسحاق الحربي: (وإذا كنت جائيًا من عرفات إلى منى فأنت تصير بين جبلين، وهما المأزمان)، قال كثير:

وقـــد حَلَفتْ جَـــهْــدًا بما نحـــرتْ لهُ
قـــريشُ غَــــداةَ المازمـــيْنِ وَصَلَّتِ[2]

المُحَصَّب:

بضمٍّ أوله، وفتح ثانيه، مُفَعَّل من الحصباء، موضع بمكة[3]، يقول محمد بن إبراهيم الأسدي واقفًا على أطلال المحصب:

قف بالمُـــحَـــصَّبِ واســـألْ أيُّهـــا الرجلُ
تلكَ الرســومَ عن الأحـبـابِ مـا فـعلوا[4]

مجنّة:

ماء مذكور في رسم عكاظ، ومجنة على أميال يسيرة من مكة، بناحية مرِّ الظهران، قال أبو ذؤيب الهذلي:

فَـــوافَى بـهـــا عُـــسْـــفـــانَ ثمَّ أتى بـهـــا
مَـــجَنَّةَ تَصْــفـــو في القِـــلال ولا تَـغْلي[5]

وقـــد وردت في قـــول بلال بن رباح رضـي الله عنه، في التـشــوق إلى مكة، بعـد أن أصابته حمى المدينة:

ألا لـيتَ شِـــعْـــري هل أبيتَنَّ ليلـةً
بـفـخٍّ وحَـــولِي إذخـــرٌ وجلـيـلُ

(1) شرح ديوان الحماسة 3 / 1514 (2) كتاب المناسك 506 – 507
(3) معجم ما استعجم 4 / 1192 وانظر كتاب الأمكنة والمياه والجبال 62
(4) المحمدون من الشعراء 139 (5) شرح أشعار الهذليين 1/94.

وهلْ أرِدَنْ يوماً مياهَ مجنّةٍ
وهل يبدُوَنْ لي شَامةُ وطفيلُ[1]

مِنَى:

يقول الحارث المخزومي:
إنّي وما نحروا غداةَ مِنًى
يومَ الجِمَار تؤُودُها العُقلُ[2]

ويقول علي بن أفلح:
هذه الخَيفُ وهاتيك مِنى
فترفّق أيّها الحادي بِنَا[3]

ولو تتبعنا ما ورد في منى لجمعنا ديوانًا كاملاً.

نَعْمَان: هو عُرنة.

يقول عنه عبدالله بن إدريس (: أنشودة الشعراء، ونغمة الهوى، وملعب الصبا، وريحانة تهامة، وميزابها، يذكر فيذكر الأراك والبشام والغَرَب، وتستذكر ليالي أنسه، ومجالي مرابعه، ونفحات نوره) [4] ويصدق هذا القول على هذا الجبل الذي تغنى به الشعراء، ففاح أريجه، وعبقت روائحه، كما يقول النميري:
تضوَّعَ مِسكًا بطنُ نَعْمَانَ أنْ مَشَتْ
بهِ زينبُ في نِسْوَةٍ عَطِراتِ[5]

ويذكر الفرزدق أراكه، فيقول:
دَعَوْنَ بِقُضْبَانِ الأراكِ التي جَنَى
لها الركبُ من نَعْمَانَ أيّامَ عَرَّفُوا[6]

(١) أخبار مكة للأزرقي ١٣١، والإذخر والجليل: نبتان. وشامة وطفيل: جبلان مشرفان على مجنة
(٢) مثير العزم الساكن ١٣٢
(٣) المصدر نفسه ٣١٨
(٤) المجاز بين اليمامة والحجاز ٢٥٨
(٥) العفو والاعتذار ٢ / ٥٢٥
(٦) ديوان الفرزدق ٣٨٤

ويتخير عمر بن أبي ربيعة لمحبوبته هند أطيب هدية هي عود أراك من أعواد شجر نعمان:

تخـيَّـرتُ من نَعْـمـانَ عـودَ اراكـةٍ
لـهندِ ولكنْ مَنْ يُبَلِّغـهُ هِنْدا[1]

وقال أبو العميثل:

امَـا والرّاقـصـات بذاتِ عِـرْقٍ
ومن صَلّى بنَعْـمـانِ الأراكِ
لقـد اضْـمَـرْتُ حُـبكِ في فـؤادي
ومـا اضـمـرتُ حـبّـاً في سِـواكِ[2]

و يقول ابن الفارض في جبل نعمان متشوقًا إليه:

يـا راكبَ الوجْـنـاءِ بُلِّغـتَ المُـنَى
إنْ جُـبتَ حَـزْنًا او طويتَ بِطَاحَـا
وسَلكتَ نَعْـمـانَ الأراكِ فَـعُجْ إلى
وادٍ هناكَ عـهِـدتُهُ فـيّـاحَـا[3]

ويتكرر لفظ نعمان عند مهيار الديلمي، وكأنّه يستعذب هذه اللفظة، فيقول:

امـرتُكُمُ أَمْـري بنعْـمَـانَ ناصِحًـا
وقلتُ: احـبِسُوها تلحقِ الحيَّ رائحَـا
لِقَـاءٌ على نَعْـمَـانَ كـانَ غنيـمـةً
وهَيْـهـاتَ يدنو بعـدمـا فـات نازِحَـا
دعـوني ونـعـمـانَ الأراكِ اروده
تُجَـاوبُ صـوتي طَيْـرُهُ المُـتناوِحَـا[4]

---

(١) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٤٨٩
(٢) شعر أبي العميثل، وكتاب المناسك ٥٠٩
(٣) ديوان ابن الفارض ٢ / ٣٧٢
(٤) مثير العزم الساكن ١٣٦

الوجه:

منهل معروف بطريق مكة، وفيه يقول نورالدين بن الجزار الشافعي:

ولما رأيتُ الوجْــهَ ســالَ من الحَــيــا
وقــد طابَ فــيــه للحَــجــيجِ مَــقَــامُ
وعــاينتُ ركبَ الحَجِّ حلَّ بسـفـحــه
وقــد ضُــربتْ في جــانبــيــهِ خــيَــامُ
ومــدّوا إلى الغَــيــثِ الهَطولِ أكُــفَّــهُمْ
فــجــادَ عليــهم بالعطاء غــمــامُ
فــقلتُ على الوجــهِ المليح تحــيــةٌ
مــبــاركــةٌ من ربنا وســلامُ[1]

ومثله للقطب المكي:

أقــولُ ووادي الوجــهِ ســالَ من الحَــيَــا
وقــد طاب فــيــه للحَــجــيجِ مــقــامُ
على ذلك الوجــهِ المليحِ تحــيــةٌ
مــبــاركــةٌ من ربنا وســلامُ[2]

ولا يزال شعراء من الشعراء المعاصرين يصرون في قصائدهم على المرور بكل أمكنة مكة، وكأن هذا الوصف والتعداد من التلذذ بالذكر (يُعاد حديثها فيزيد حسنًا) فالشاعر المعاصر الدكتور إبراهيم نتو يصف لنا بقاع مكة وصفًا ذهنيًا مجردًا كما في قوله:

أمكّةُ يا عمادَ الدين والرحمنُ حاميها
ثُريا في مدائننا وحاضرها وماضيها
وفيها كعبةُ التوحيدِ إسماعيلُ بانيها
وإبراهيمُ أرساها على الإيمان باديها
وهاجرُ لم تزل تسعى بمَرْواها وصَافيها
وغارُ الثورِ ثمَّ حراءُ كان الله منشيها

(١) ريحانة الألباء ٢/ ١٦٦- ١٦٧
(٢) ريحانة الألباء ٢/ ١٦٧

إلى عرفاتَ مزدلفٍ ومن خيفٍ ويكفيها
ومن بئرٍ على ظمإٍ بقدر الكفِّ يُرويها
وبابُ شبيكةِ المشتاقِ في الشَّنَّا اقاصيها
وغينمُ نزهةُ العشاق جرول في بواديها
بسوقِ الليلِ في الأسحار مخزومٌ يُناغيها
واجيادٌ إلى الشِّعبينِ بل باقي حواريها[1]

ويقول مرة أخرى معددًا بعض الأسماء الحديثة لأماكن مكة:

شَبيكةُ اجيادٌ وحارةُ بابها
وجرولُ هجلاها حَجُونٌ مُكَلّلُ
وغارُ حراءٍ فالشِّعابُ وشَشَّةٌ
وريعانُهَا الغَرّا وحَوضٌ ومسفلُ[2]

ولا يختلف هذا التعداد عن تعداد علي حسن أبوالعلا الذي يذكر كل الأماكن والمشاعر المقدسة مثل: الكعبة وعرفات، وزمزم، والصفا والمروة، وحراء، وثور، وكدي وكداء وثبير:

كعبةُ القصادِ من حجَّ مُنيبًا
ابلغَ النفسَ من الأجْرِ مُناها
ودعا للهِ في مَوقفِهِ
عرفاتِ اللهِ يحظى من اتاها
ليس في الأرضِ مكانٌ مِثْلها
وبها زمزمُ موصوفٌ دواها
وروابي المروتَيْنِ استُقْبلتْ
مَنْ سعى لله بدءًا بِصَفَاها
وحراءُ سَابحٌ في نورهِ
كم روى الآياتِ تَتْرى مِنْ سَمَاها

---

(١) هديل الحمام ١ / ٤٧– ٤٨

(٢) هديل الحمام ١/ ٤٩، وشبيكة: محلة الشبيكة جوار الحرم. وجرول: اسم محلة. وهجلاها: جزء من محلة الشبيكة.

مـن كُـــــدَيٍّ وكَـــــدَاءٍ وثـبـــيـــــرٍ

شــــهــــد الــهــجــــرة ثورٌ فَـــرَوَاهَا[1]

وقد أفرد بعض الشعراء وصفًا واضحًا للمكان، كما في هذا الوصف للشاعر صالح الشرنوبي الذي يصف المكان والحدث الذي جرى فيه، فيقول:

أَوَيَا إلى الغـارِ الكريم فـعــشّــشتْ

فـــوق المغـــار هـواتفُ الأَسْـحَـارِ

والعَنْكَبُـــوتُ بنى مَــعَـالمَ بيــتِـهِ

قَـــدَرًا من المُـتـصَـرِفِ القَــهَّـار

يشكو أبو بكرٍ إلى المخـتــار مــا

يلقى فَــيُــذْكِــرهُ بلُطْفِ البَـــاري

ويقــول والتــاريخ ينصتُ خـاشــعًـا

قـــــولاً تـخـلّـدَ فـي فـمِ الأدْهَـارِ

الله ثـالـثـنـا فــــلا تَحْـــزَنْ ومـنْ

يَنْـصُـرْهُ يـامنْ مـن أذًى وضِــرَارِ[2]

ويطلب الشاعر حسين عرب من جبال مكة أن تأوّب لذكرى تلك الحادثة العظيمة، ويدعوها لتتذكر – وهي بلا شك الشاهد الموثق الذي رأى الحدث كاملاً بأم عينيه – كيف انبثق النور من غار حراء، ليسير في هذه الجموع الوافدة من الشرق والغرب جاءت مؤتمة بهذا النور الباهر:

أوِّبِي يـا جـــــبــــــالَ مـكـةَ لـلـذكـ

ـرى جـــلالاً وكـــبّــــري للعــيـــدِ

واذكُـــري كـــيفَ أشـــرقَ النّور من غـــا

رِ بعـــيــدرفي الأفقِ غــيــرِ بعــيــدِ

واطِلّي على حِـمَى الكعـبــة الغــرّ

ـرّاء إطـلالـةَ الـرّفـــــيـقِ الـودودِ

(1) هديل الحمام ٣ / ٨٤٧–٨٤٨

(2) ديوان صالح الشرنوبي ٤٣١

وانظُري للوفُودِ من كلِّ فَجٍّ
قد تلاقتْ كريمةً بالوفودِ
نهلتْ من روافدِ الحَرمِ الآ
مِن، من منهلِ النَّدَى والجُودِ
وافاضتْ به إلى الشَّرقِ والغَرْ
بِ، نميرًا معطرًا للورودِ(١)

وتتعدد أوصاف مكة، فهي: مرابع المجد، ومهد الإسلام، ومنهل الدين، ومنبع العلم، كما يقول أحمد بن محمد مصلي:

سطعَ النورُ والهُدَى في رُبَاهَا
وتجلّى وحيُ السَّما في حِمَاهَا
نَفَحَاتٌ قُدسِيةٌ قد تسامت
وسَرتْ في القلوبِ تُروي صَدَاهَا
تلكَ أم القُرى مرابعُ مجدٍ
هي مهدُ الإسلام موطنُ طه
هي للدينِ مَنْهلٌ طابَ وِرْدًا
وهْي للعلم مَنْبَعٌ قد تناهى
شعَّ منها التوحيدُ في خيرِ نَهْجٍ
رفعَ اللهُ قدرها وحَمَاها(٢)

وهي قبلة المسلمين، وملاذ الخائف، وهي آمنة من الجوع والخوف، كما يقول سراج بن عمر مفتي:

وإلى الآن مَجْدُ مكةَ باقٍ
قبلة المسلمين ما اسْمَاهَا
سطعَ النورُ هاديًا من رُبَاها
فَشَفَى القلوبَ من بَلْواهَا(*)
ورسولُ الهُدَى تضرّعَ يرجو
ربّهُ في حِراءَ نصرًا وجَاهَا

(١) ديوان حسين عرب ٦٣/١-٦٩
(٢) هديل الحمام ١ / ٢٥٩
(*) هكذا ورد في الأصل، وفيه خلل عروضي.

داعـــــيًـــــا طالبًـــــا هداية قـــــوم

قـــد تمادَوْا ضَـــلالةً وسَـــفَـــاهــا

فـــاسْـــتَـــجـــابَ الإلهُ وانْتَـــصـــرَ الديـ

ـن ونفسُ الحـــبـــيـــب نالتْ مُنَاهَا

اصـــــبَــــحتْ مكةُ مــــلاذَ وفـــــودٍ

من بلادٍ بعـــيـــــدةٍ مـــــأتَـاهَـا

ليُـــؤَدُوا الحَجَّ في اشـــهـــرِ الحْـ

ـج وفي الغـــيـــرِ عُـــمْـــرةٌ تُؤتَاهَا(*)

امّنُوا اهْلَهـــا من الخَـــوفِ والجـــو

عِ فَـرَبُّ السّـمـــاءِ فـضـــلاً حَـبَـاهَا[1]

وهي عند عبدالله باشراحيل:

مـــوطنَ الهـــدي يا مـــلاذَ الرّشَـــادِ

ومنـارَ الشّـــمـــوخ والاعـــتـــدادِ

مَـــهْـــبِطَ الوحي والنُّبُـــوةِ والحقْـ

ـقِ ومـــهـــدَ الدعـــاةِ والروادِ[2]

ولا يختلف وصفها عند كثير من الشعراء المعاصرين، فهي قبلة الأرض، ومنزل الوحي، وكعبة القصاد كما في قول علي بن حسن أبو العلا:

مكّةُ يا قـــبلةَ الأرضِ وحـــســـبي

أن بـنى اللهُ كـــيـــانـي مِنْ ثَراهـا

مكّةُ يا منزلَ الوحي وضِـــيـــاءُ

غَـــمَـــرَ الأكـــوانَ فـــازْدَانَ بَـهـــاهـا

مكّةُ يا مـــهـــدَ أســـاد الشّـــرَى

اخْـــضَـــعُـــوا الأفـــاقَ وانْقَـــادتْ ذُرَاها

تُربهُــا كـــالمِسْكِ عِطْرًا وعـــبـــيـــرًا

وامـــانُ اللهِ قـــد عمَّ حِـــمَـــاهـا[3]

---

(1) هديل الحمام ٢ / ٥٤٩

(*) هكذا ورد في المصدر، وفيه خلل عروضي.

(٢) هديل الحمام ٢ / ٦٧٠

(٣) هديل الحمام ٣ / ٨٤٧

رابعاً: الشعر الصوفي

له أيضًا قصب السبق في هذا الميدان الغزلي التجريدي، ونحن هنا لسنا معنيين بمقاصد ورموز الصوفية التي ترى في هذه المسميات كُنى عن عوالم الروح، بمقدار عنايتنا بورود هذه الأسماء والصفات على الحال، وواقعية الشوق إليها كما في هذا القول لابن الفارض مترنمًا بأسماء اللواتي خيمن في كدا، أو اجتمعن على ماء زمزم على سبيل التجريد، حيث يطلب من صاحبيه الشدو بأسمائهن، وأن يذكره عندهنَّ على طريقة عمر بن ابي ربيعة، وأن يبلغهنَّ حزنه الشديد لفراقهن والبعد عنهنَّ:

واشْــدُ باسمِ اللاءِ خــيَّــمْنَ كــدا
عن كُــدا واغْنَ بما احــويهِ حيْ
نِعْمَ مــا زمــزم شــادَ مُــحسنٌ
بجِــســانٍ تَخِــذوا زمــزمَ جيْ[1]

وها هو ذا يجرد من الكعبة فتاة عذبة الثنايا، يتمنى النهل من ريقها العذب، ويشيد بجمالها، ويدعوها لأن تمن عليه بنظرة، فيقول:

أيا كــعــبــةَ الحُــسنِ التي لجــمــالِهَــا
قلوبُ أولي الألبــابِ لبَّتْ وحَــجَّتِ
بــريــقُ الــثّــنــايا مــنــكِ اهــدى لــنــا سَنًــا
بَريق الثنايا فــهــو خــيــرُ هديةِ
وأوحى لعــيــني انّ قلبي مــجــاورٌ
حِــمَــاك فَــتَــاقَتْ للجــمــالِ وحنَّتِ
ولولاك مــا اســتــهــديتُ برقًــا ولا شــجتْ
فــؤادي فــابكت إذ شــدت وُرقُ أيْكَةِ
أرومُ وقــد طالَ الــمــدى منك نظرةً
وكم من دمــاءٍ دون مــرمــايَ طُلَّتِ
وقــد كنتُ أُدعى قــبل حُــبِّــيكِ باســلاً
فــعــدتُ به مــســتــبــســلاً بعــد مِنْعَــتي
جــمــالُ مُــحَــيــاكِ الــمــصُــونُ لثــامُــهُ
عن اللثم فــيــه عُــدتُ حــيًــا كــمَــيْتِ[2]

---

(1) شرح ديوان ابن الفارض ٧٢ – ٧٣

(2) المصدر نفسه ٢٣٩

والفرق بين الغزل الصوفي في أماكن مكة وبين شعراء المدائح النبوية، أو شعراء التشوق والحنين، هو أن الغزل الصوفي كما ذكرنا له كناهُ ورموزه ومقاصده التي يهدفون إليها، أما الآخر فهو لون من الغزل الذي يعبر عن الحب للمكان، وظاهر هذه الأبيات التائية لابن الفارض هو التغني بحب الكعبة، والشوق إلى حماها، ولكنك إذا أعدت الأمر إلى رموزهم لوجدت أن الكعبة هنا كما يرمزون هي الحضرة المقصودة من حيث تجليها في قلوب العارفين.(١)

ومع ذلك وإن وجّه الشعراء والشارحون إلى بعض الكنايات والرموز، فإنّ بعض القصائد لشعراء الصوفية تكاد تكون من تلك العاطفة المشتركة، والحنين الجامع الذي يجمع لك محبة هذه الأماكن المقدسة، التي يجري حبها في عروق كل مسلم.

وينشغل الشعر الحديث بهذا الحب كما انشغل سابقه، ولكنه حب واضح للمكان، وإن تلبس بلبوس العشق الأنثوي، فكثير من عشاق مكة في الشعر الحديث لا يورون عن حبهم للمكان، بل يصرحون، ويشاغل الشاعر فؤاد حمدي طيف مكة، فيعلن غرامه بطيف محبوبته، الذي سريعًا ما يتضح أنه غرامٌ بالوطن، وحب للمكان، كما في هذا القول:

طيفٌ يُشَاغلني امْ ثورةٌ بدمِي
ام نورُ مكةَ غطّى رقعةَ الحرمِ
امْ روضةٌ بجنانِ الخُلد وارفةٌ
امْ كعبةٌ بُنيتْ تهدي من الظُّلَم
يا لائمي بغرامٍ كنتُ اكتُمُهُ
قد استفاض فدوّى ثورةً بدمي
إمّا عشقتَ جمالَ البيتِ من وجلٍ
يا ويحَ قلْبكَ بالإثمِ العظيم رُمي(٢)

ويعلن سراج مفتي حبه للحبيبة، ومن سواها يملك القلوب:

تِلْكُم البلدةُ الحبيبةُ في القلـ
ـبِ ومنْ مثل مكةٍ نَهْواها
هي امُّ القُرى بكلّ جَلالٍ
مكّةُ الحبُّ مُشمخِراً بِناها(٣)

---

(١) انظر شرح ديوان ابن الفارض ٢٣٩
(٢) هديل الحمام ٣ / ٩٩٠
(٣) هديل الحمام ٢ / ٥٤٩

خامساً: الحنين والشوق

حرارة الشوق والتوق، وشدة الحنين والوجد، والهيام والصبابة إلى مكة عام وخاص، فأما العام: فهو لكل المسلمين الذين يشملهم أمر الله تبارك وتعالى لنبيه إبراهيم الخليل ﴿وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[1].

ودعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ربّنا إنّي أسكنت من ذريتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عندَ بيتكَ المحرمْ ربّنا ليقيموا الصلاةَ فاجعلْ أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾[2] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تحنُّ إليهم، قال: وأراد حب سكنى مكة، فكل من لم يزر مكة يتمنى زيارتها ويشتاق إليها، وكل من زارها يتمنى العودة إليها، وتكرار زيارتها لما يتوق إليه من ثواب الله عز وجل، وبخاصة أنّ مضاعفة الثواب فيها يزيد على غيرها من الأماكن، ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[3] وكون المشوق الراغب للأماكن المقدسة يطفيء ظمأ الروح، ويستشفي بها من شدة الوجد وسقم البدن، من شدة معاناة البعد، سواء أكان ابتداءً ونهلاً، أم كان عودة وعللاً، إذ إنّ من لم يزر مكة تدفعه الرغبة الجامحة، والشوق الأكيد لتحقيق هذه الرغبة في الزيارة حجّاً أو عمرة، وأما العلل فهو شدة التعطش لعودة النهل، فمن رأى هذه الديار لا يرتوي إلا من زمزمها، ولا تكتحل عيناه إلا برؤية حرمها، ومن هنا يشتد العطش، وتشتعل نار الحنين في الصدور والقلوب، تحثُّ الفكر والخطى للعودة.

وأمّا الخاص، فيختصّ بأهل مكة التي هي وطنهم وبلادهم وأرضهم التي بها نشأوا، وعليها درجوا، فإن خرجوا منها عبّروا عن هذا الشوق العارم الذي يلازم كلّ بعيد ومغترب عن وطنه.

---

(١) سورة الحج آية ٢٧

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٧

(٣) صحيح مسلم باب الحج ٤٣٨

ويعلّل فؤاد علي رضا هذا الحنين، فيقول: «ونعمت قريش بالهدوء العائلي، فقد فطنوا إلى متعة السفر في سبيل الكسب، ولذة الحنين إلى الوطن وهم بعداء، وفرحة العودة إلى الدار، ولقاء الأسرة والأصحاب، والتردد على مجالس السمر بعد طول اغتراب، ورغبت قريش عن الغزو والإثارة والأحقاد بينهم وبين جيرانهم، بل اتخذوا من هؤلاء الجيران أحلافًا وأعوانًا وأضيافًا»[1] ومع القناعة بهذا القول، وأنّ حب الوطن، والشوق إليه قد يزداد مع البعد، إلاّ أنّ حب الوطن لايبرر، فالأوطان على اي حال كانت تحب ويشتاق إليها حتى لو كانت خيمة في صحراء قاحلة، كما قالت ميسون بنت بحدل الكلبية في تشوقها لخيمة الأهل، على الرغم من أنها كانت تنتعل العز، وتسكن قصور الخلافة:

لَبيتٌ تَخْفُقُ الأرواحُ فيهِ
احبُّ إليَّ من قَصرٍ مُنيفِ
ولُبْسُ عَباءةٍ وتقرّ عيني
احبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفوفِ
واكْلُ كُسَيْرةٍ في كسرِ بيتي
احبُّ إليَّ من اكل الرّغيفِ
ونِضْوٌ من بني عمّي نحيفٌ
احبُّ إليَّ من عِلْجٍ عَليفِ
وكلبٌ ينبَحُ الطُّرّاقَ دوني
احبُّ إليَّ من قِطٍّ اليفِ[2]

فحب الوطن يسكن العروق، ولذلك قرن الله تبارك وتعالى الجلاء عن الوطن بالقتل، فقال جلّ ذكره: ﴿ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلاّ قليلٌ منهم﴾[3] وجعل القتال بإزاء الجلاء عن الأوطان، فقال تقدّست اسماؤه: ﴿وما لنا الاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾[4] وكفى أنّه جعل الخروج عن

(١) أم القرى مكة المكرمة ١٧٤
(٢) المنتخب والمختار ٤٦٦
(٣) سورة النساء ٦٦
(٤) سورة البقرة آية ٢٤٦

الوطن عقوبة، فقال عزّ من قائل: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا أن يُقتلوا أو يُصلّبوا أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٍ﴾(١).

وفي القول المأثور: «الخروج عن الوطن عقوبة»(٢).

ومن هنا يبدو الحنين حنينين، والشوق شوقين، والتفريق بين هذين اللونين قد يبدو في ظاهره تعسفيّاً، فيقول القائل: الشوق والحنين لا ينقسمان ولا يتجزآن ولكن المدقق في ثنايا هذا القول، يجده منطقيّاً، وهما إن ظهرا فرعين إلا أنهما من شجرة واحدة، وإن تدفقا نهرين فنميرهما من نبع واحد، وهما بذلك شقيقان متلازمان، إلاّ أنّ لكل واحد منهما طعمه ورونقه، وإن كان مذاقهما هو سلسبيل الشوق، ولذة الحنين.

والحنين الأول هو حنين الذات إلى مسقط الرأس، وهو مسار من اغترب عنها من أهلها، وشعر الحنين عند هؤلاء يكاد يختلف عمّا يليه، إذ هو أدخل في باب الحنين للأوطان، وإن ظهرت فيه المسحة الدينية، فالمكان يفرض هذا الشكل لأنه ليس كغيره من الأمكنة، فأي مكان آخر وإن حمل الحب والشوق وتمني اللقاء فإنه لا يحمل في طياته ما تبعثه مكة في نفوس المشتاقين من قداسة وروحية، جعلت لشعر الحنين والشوق في مكة مذاقًا آخر وطعمًا ذا نكهة خاصة متميزة بعبقها الديني، وهذا اللون في جانب حب الأوطان يتشارك فيه كل من ينشأ في مكان، حتى لو كان هذا المكان حرّة من الحرات، فقد قيل لأعرابي: من أين أقبلت ؟ قال: من هذه البادية.

قلت: وأين تسكن منها ؟

قال مساقط الحمى، حِمى ضرية، موضعة أرضها لعمر الله ما أريد بها بدلاً، ولا أبغي عنها حولا، حفّتها الفلوات، ونفحتها العذوات، فلا يملولح ماؤها، ولا تحمى تربتها، ولا يُمعرُ جنابها، ليس فيها قذى ولا أذى، فنحن بأرفه عيش، وأوسع نعمة.

قلت: فما طعامكم ؟

---

(١) سورة المائدة آية ٣٣

(٢) الحنين إلى الأوطان للكسروي ٢٣

قال: بخ بخ عيشنا – والله – عيشٌ يُعلّل جاذبه، وطعامنا أطيب طعام وأهنؤه، الفثُّ والهبيد والضباب واليرابيع والقنافذ والحيات، وربّما – والله – أكلنا الجلد، وشوينا القد، فلا نعلم أحدًا أخصب منا عيشًا، فالحمد لله على ما بسط من النعم، وأنشد:

ألا هلْ إلى شمِّ الخُزامَى ونظرةٍ
إلى موطني قبل المماتِ سبيلُ
فيا أثلاتِ القاع من بطن تُوضحٍ
حنيني إلى أطلالكنَّ طويلُ
ويا أثلاتِ القاع قلبي مُوكلٌ
بكُنَّ وجدوى خيركُنَّ قليلُ
ويا أثلاتِ القاع قد ملَّ صُحْبتي
مَسيري فهل في ظلِّكُنَّ مقيلُ
أريد انحدارًا نحوكمْ فيَصدّني
ويمنعُني دَيْنٌ عليَّ ثقيلُ
أحدِّثُ نفسي عنكِ أن لستُ راجعًا
إليك فحزني في الفؤاد دخيلُ[1]

والاصطفاء الرباني لمكة على سواها من البقاع بجعلها مثابة للناس وأمنا، واختيارها لتكون مقرَّ بيته، وحاضنة حرمه، وقبلة أمّته، ثبّتها في القلوب والأفئدة، وأحياها في الخواطر والنواظر، فلهجت بها الألسنة، وتداولتها الأقلام، وزادها مكانة في القلوب وشرفًا بين البلاد أن جُعلت زيارتها فرضًا على من استطاع من المسلمين، فدغدغت أحلامهم، وهفت إليها نفوسهم، وانشغلت بها مشاعرهم وعواطفهم.

وأجّجَ نار الشوق إليها تلك الفضائل الجمة التي جاءت تحملها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله عليه الصلاة والسلام «صلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة فيما سواه إلاّ مسجدي هذا [2]»

(١) الحنين إلى الأوطان ٧ والفث: حب بري. والهبيد: حب الحنظل
(٢) صحيح مسلم (الحج) ٥١٢

فإذا تعلّق القلب، وانشغل الفؤاد، لهج اللسان، وانثال البيان ليعبِّر عن عظيم شوقه، وفيض حبّه.

وأول الغيث قطر، وهذه أول قطرات الحنين تعصر من عيني عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي، عندما أخرجته خزاعة من ملكه، وطردته عن مكة إلى خارجها يقول الأزرقي: «وقد كان أصابه من الصبابة إلى مكة ما أحزنه، فأرسل إلى خزاعة يستأذنها في الدخول عليهم، والنزول معهم بمكة في جوارهم... فأبت خزاعة.. فنزعت إبل لمضاض.. فخرج في طلبها، حتى وجد أثرها قد دخلت مكة، فمضى على الجبال من نحو أجياد، حتى ظهر على أبي قبيس يتبصّر في بطن وادي مكة، فأبصر الإبل تُنحر وتُؤكل، لا سبيل له إليها، فخاف إن هبط الوادي أن يُقتل[1]»، فكان أن أمضَّ الشوق والحنين مضاضًا، فقال متألمًا لما جرى، ومتشوقًا لربوع مكة:

وقائلةٍ والدمعُ سكبٌ مُبادرُ
وقد شرقت بالدمع منها المَحاجِرُ

كأنْ لم يكنْ بين الحَجُون إلى الصّفا
أنيسٌ ولم يَسْمرْ بمكةَ سامِرُ

فقلتُ لها والقلبُ منّي كأنما
يُلَجلِجُهُ بين الجَناحينِ طائرُ

بلى نحنُ كنّا أهلَها فأزالنا
صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

وكنّا ولاةَ البيتِ من بعدِ نابتٍ
نطوف بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ

مَلكْنا فعزّزْنا فأعظمْ بملكنا
فليسَ لحيٍّ غيرنا ثَمَّ فاخرُ

فإنْ تَنْثَنِ الدنيا علينا بحالها
فإنَّ لها حالاً وفيها التَّشَاجُرُ

---

(١) تاريخ مكة ١/ ٩٦

فـــاخْـــرَجَنا منهـــا الـمليكُ بقـــدرةٍ

كـــذلك يا للنَّاس تجـــري الـمـــقـــادِرُ

اقـــــــــــــولُ إذا نـام الخـلـــيُّ ولـم انمْ

اذا العـــرش: لا يبْـعُـدْ سُـهـيلٌ وعـامِـرُ

وبُدِّلْتُ منهـــا اوْجُـــهًـــا لا احـــبُّـــهـــا

قـــبـــائلُ منهـــا حـــمْـــيَـــرُ ويحـــابرُ

وصِـــرْنا احــــاديثًـــا وكنَّا بغـــبْـطَةٍ

بذلك عـــضَّـــتْـنا السنونُ الغـــوابرُ

فَـــسَـــحَّتْ دمـــوعُ العينِ تبكي لبلدةٍ

بهـا حَـرمٌ امْنٌ وفـيـــهـا الـمـشَـاعِـرُ

وتبكي لبـــيتٍ ليس يُؤذى حَـــمـــامُـــهُ

يظلُّ به امْنًا وفـــيـــه العـــصـــافـــرُ

وفـــيـــه وحـــوشٌ لا تُرَمُّ انيـــســـةٌ

إذا خـــرجتْ منه فليـــستْ تُغـــادرُ[1]

وما أروع ليالي الأنس! وما أجمل ذكريات السمر ! وانظر كيف اختصر هذا الشاعر ماضيًا طويلاً في (كأنْ) التي غدت فيصلاً بين ليال مقمرة مضت، وبين ليال مظلمة حلّت، (فكأنْ) هذه بحروفها الثلاثة تمثّل النقلة والفرق ما بين اجتماع الشمل والتئامه، وتصدّعه وتمزّقه، ما بين الأنس والألفة، والوحشة والغصة، ما بين العزة والسلطان، والذلة والهوان، ففي لحظة واحدة، انفضّ السامر، وانهدَّ البنيان العامر، ومن بعد خضرة وطيب عيش، إلى كدرة وقتام واغبرار علت وجه الحياة:

كـأن لم يكن بين الحَـجُـون إلى الصَّـفـا

انيسٌ ولـم يَســـمـــرْ بمكةَ ســـامـــرُ

(١) اخبار مكة للازرقي ١ / ٩٧ – ٩٨ وهديل الحمام ٣ / ٩٥٢ وقد نسبت هذه القصيدة في بعض مصادر الشعر المكي إلى مضاض، وإلى عمرو بن الحارث بن مضاض، وإلى الحارث بن عمرو بن مضاض.

لقد غدا هذا البيت معنىً سيّارًا لكلّ حالة مشابهة. وأصبح نموذجًا يحتذى لكل من عرض له ما عرض للجرهمي من التحول والتنقل.

ونجد جرهميًّاً آخر يحنُّ إلى مكة حنينًا يفيض بالأسى لما آل إليه أمر جرهم من الخروج عن مكة، بعد أن كانوا مالكيها، وأصحاب الأمر فيها، ويبدو أنّ هذا الجرهمي قد طرد من مكة لاعتراضه سيد خزاعة عمرو بن لحي الذي نصب الأصنام حول الكعبة وغيّر الحنيفية. فقال له ناصحًا وموجهًا:

يا عمْرُو لا تظلمْ بمكْـ
ـكَةَ إنّها بلدٌ حرَامْ

سائلْ بعادٍ اينهمْ
وكذاكَ تُخْترمُ الأنامْ

وبني العماليق الذيـ
ـن لهمْ بها كان السَّوامْ[1]

فأخرجه عنها، فقال متشوقًا إليها:

الا ليت شعري هل ابيتنّ ليلةً
واهلي معي بالمازمَيْنِ حُلولُ

وهلْ ارينّ العيسَ تنفخُ في البُرا
لها بمِنىً والمازمينِ ذميلُ

منازلُ كُنَّا اهلَها لم تحلْ بنا
زمانَ بها في ما اراهُ تحولُ[2]

---

(1) المصدر نفسه ١ / ١٠١

(2) اخبار مكة ١ / ١٠١

وهذا ابن أمِّ مكتوم من شدة شوقه إلى مكة يسير بها ويطوف ـ على الرغم من كف بصره ـ بلا قائد ولا هادي ويقول:

حـــــــبَّـــــــذا مكـةُ مـن وادي
بـهـــــا ارضـي وعـــــــوّادي
بـهـــــــــا تَـرسـخُ اوتـادي
بـهـــــا امْـــــشـي بـلا هـادي[1]

(وكأنَّ) هذه التي تفيد التحسر على المرور السريع، وانقضاء الأيام الجميلة التي عبّر عنها الحارث بن مضاض تتكرّر عند سديف بن ميمون الذي يقول:

كـــأنّـيَ لـم اقـطنْ بمكة ســـاعـــةً
ولـمْ يُلْـهِني فـــيـــهـــا ربيبٌ مُـنعَّمُ
ولـم اجلس الـحـوضين شــرقيَّ زمــزمٍ
وهـيـــهـــاتَ اينـا منكَ لا اينَ زمـــزمُ
يـحـنُّ فـــؤادي إنْ ســـهـــيلٌ بـدا لـه
وأقـــسـمُ انَّ الـشـــوقَ منِّـي لمنـهمُ[2]

ويستمرُّ مرير (كأنَّ) من العصر الجاهلي مرورًا بالإسلامي إلى العصر العباسي وكأنَّ نغمة الحنين التي أطلقها الحارث بن مضاض نغمة أبدية سائرة، وانظر في هذا الألم الذي يبديه عبيدالله بن عبدالله بن طاهر عندما خرج من بغداد، إن ذكرى الجرهمي في خروجه من مكة هي التي تنتصب أمام عبيدالله في خروجه من بغداد وتبدو المماثلة، فيقول:

وقـــائلةٍ والسَّكبُ منـهـــا مـــبـــادرٌ
وقـد قـرّحتْ بالدمع منهـا الـمـحـاجـرُ
وقـد ابـصـرتْ بغـدادَ من بـعـد أُنْسـهـا
بنا وهْي منـهـــا مـــقــــفـــراتٌ دوائرُ
كـأنْ لم يكن بين الـحـجـون إلى الصـفـا
انيسٌ ولـم يســـمـــرْ بمكةَ سَـــامـــرُ

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ١٥٤
(٢) العقد الفريد ٥ / ٨٧

فـــقلتُ لهـــا والقلبُ منّي كـــأنّمـــا
تـخـلّـبَـــــــةُ بـين الجـنـاحـين طـائـرُ
بلى ! نحنُ كنّا أهلَـهَـــا فـــأزالنا
صـــروفُ الليـــالي والجـــدودُ العـــواثرُ
ولـم تُبـقِ منّـا طاهـريّـاً مـــؤمَّــــرًا
رئيسًـــا وأعلى ساسَـةِ المُلْكِ طاهرُ
أرِقْتُ ومـــا ليلُ المُـضـــامِ بنائمٍ
وقـد ترقـدُ العـينانِ والقلبُ ســاهرُ
فـيـا نفسُ لا تَفْنَيْ أسًى واذكـري الأُسى
فـــيـــوشكُ يومًـــا أن تدورَ الدوائرُ[1]

بل إن هذا المعنى الذي يفيض بالأسى والحزن لمفارقة الديار والحنين إليها، يصبح مثلاً سائرًا تتمثله الألسنة في الحالات المشابهة، بل غدا الشعراء يضمنونه قصائدهم، كما في هذا القول لأبي علي اليوسي:

فـأصـبَحَ في أرْجَـائهـا البـومُ مُنْشِـدًا
يُرددُّ مما قـال من قـدْ خَـلا شِـعْـرا
كـأنْ لمْ يكن بين الحَـجُـون إلى الصـفـا
أنيسٌ، بلى لكن هوى جدُّهم عـثْـرَا[2]

وهذا شاعر يتعلق قلبه جبل نعمان فيقول صادحًا:

ألا أيُّهـــا الركبُ اليـمــانون عَـرِّجـوا
علينا فـقـد أضـحى هوانا يمانيـــا
نُسَـائلكُمْ هل سـالَ نَعْـمـانُ بَعْـدنا
وحُبٌّ إلـينا بَطنُ نعــــمـــانَ واديا
عَـهِـدْنا به صـيـدًا كـثـيـرًا ومـشـربًا
به ننقعُ القلبَ الذي كـان صـاديا[3]

(١) الموشح للمرزباني ٥٤٣ – ٥٤٤ والأسى: الحزن. والأُسى: التأسي جمع أسوة
(٢) النبوغ المغربي في الأدب العربي ٨٩٤
(٣) غاية المرام ١ / ١٣٠

ويقول الحارث المخزومي وهو بالشام في تصوير هذا الشوق:

من كان ذا شَجَنٍ بالشام يحبِسُهُ
فإنَّ في غيرهِ أمسى ليَ الشَّجَنُ

وإنَّ ذا القصر حقّاً ما به وطني
لكن بمكةَ أمسى الأهلُ والوطنُ

من ذا يسائل عنّا اينَ منزلُنا
فالأقحوانةُ منّا منزلٌ قَمِنُ

إذ نلبس العيشَ صفوًا ما يكدِّرُهُ
قولُ الوشاةِ ولا ينبو بنا الزّمنُ[(١)]

ويستطيل أمية بن عائذ العمري مقامه في مصر، ويتشوق إلى مكة، فيقول من قصيدة يمدح بها والي مصر عبدالعزيز بن مروان:

متى راكبٌ من أهل مصرَ وأهلُهُ
بمكةَ من مصرَ العشيّةَ راجعُ[(٢)]

ويقول ابن جماعة باعثًا سلامه لمن بالمحصب:

يا سائقَ الأظعانِ إنْ جُزْتَ الحِمَى
سلِّمْ على من بالمحصّبِ دارهُ

واشرحْ لهُ ما يلتقي مُشتاقهُ
من فرط شوقٍ أحرقتهُ نارهُ[(٣)]

ولابن الصاحب مثل شوق ابن جماعة، فيقول:

على الأبطَحِ المكيِّ طيبُ سلامي
وازكى تحياتي كمسك خِتامِ

إذا ذكروا في الحيِّ طيبَ حديثِهِ
خلعتُ على السُّمّار ثوبَ مَنام

(١) المصدر نفسه ١ / ١٣٠
(٢) شرح أشعار الهذليين ٢ / ٥٢١
(٣) المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٦

منـازلُ افـــــــراحي وانـسي ولـذّتي

ومـــوسمُ اعـــيـــادي ودارُ هيـــامي[1]

ويهتز في صدر شاعر البطحاء الحنين إلى مكة، هذا الحنين الصافي النبع، الخالص لها والذي لا تشوبه شائبة الشوق لأحد غيرها، إنها وحدها المعنية بهذا الوجد الحار، والشوق المتلظي، والحنين الفياض، والعاطفة المتأججة، يقول:

إليكِ اشـتــيــاقي لا إلى الربّع والحِـمَى

وفـــيك غـــرامي لا لسُـــعْــدَى ولا لُبْنَى

ومـــــــا الحـيُّ لـولا انـتِ إلاّ تَـعِـلّـةٌ

ومــا الربعُ إلاّ مـــوحشُ الإنسِ والسُّكْنَى

ســـلامٌ على وادي الـمُــحَــصّب واللّوى

وعـهـد الغـواني والـمـعـاهد والـمـغْنَى

ولولاكِ مـــا حنّت ربابي إلى الحِـــمى

ولا حــــملتْ رجلي عُـــذافِـــرَةٌ وجْنا

ســـــلامُ مـــشـــوقٍ لا ســـلامُ مُـــودّعٍ

ولكنْ كـئـيبٌ مـغـرمٌ مـــدنفٌ مُـضْنى

جَنى ثَمَـــراتِ الوصل بـالخَـيْفِ من مِنًى

وإنّ ثـمـــارَ الوصلِ احــسنُ مـــا يُجْنَى

ولـلّـه أيـامـي بمـكّةَ والـصّـــــفَـــــا

وطولُ مـــقـــامي مـــا الذُ ومـــا اهنَى

ومـسّـحـتُ بالبـيت العـتـيق مـحـاجِري

وقـــبّلتُ من بعـــد الطّواف به الرُّكنا

قـضـيتُ بهـا نُسكي وحَـجِّي وعُـمـرتي

وخـفّـفتُ أوزاري ونلتُ بـهـا الحُـسْنَى

أُعلّلُ نفـــسي بـالأمـــاني وينقـــضي

زمـاني ودونَ الوصلِ مـا يُسْـهِـرُ الجَـفْنا

---

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٠٧

إلى مـا يُبيـدُ الشّوْقَ والوَجْدُ دونَهُ
غـرامٌ يثـيرُ الوجـدَ والهمّ والحـزنا
احنُ إلى تلك المعـاهدِ والرُبا
حنينَ امـرئٍ يُذكي الغـرامَ إذا انّا[1]

هذه النفثة الصافية من الحنين، تبعها نفثات من كل شاعر كانت مكة له موطنًا، ولعل الشريف الرضي صاحب الشوق القديم المتجدد من أكثر الشعراء تحنانًا إلى ربوع مكة، فهو نبتها الذي يبدي في تشوقه آيات الحب والحنين، وتتراقص الصور أمام عينيه، فيدعو قلم الدموع ليسجل في حافظته هذا الإبداع الذي ظلّ على الأيام جديدًا:

عـارضـا بي ركبَ الحـجـاز أسـائلْـ
ـهُ مـتى عَـهْـدُهُ بأيّام سَلْـعِ
واسـتـمـلاً حـديثَ من سكنَ الخَـيْـ
ـفَ ولا تكتـبـاهُ إلاّ بدمْـعِي
فـاتَنِي انْ ارى الديارَ بِعَـيْـني
فَلَعلّي أرى الديارَ بسـمْـعِي[2]
يا غـزالاً بينَ النَّقـا والمُـصَلّى
ليسَ تبـقى على نِبَـالك درعي
كلّمـا سُلّ من فـؤاديَ سـهمٌ
عـادَ سـهمٌ لكم مـضـيضَ الوقع
وتحـرّجتَ يومَ رُحتَ حـرامـًا
مِنْ عطائي فَـمَنْ اباحكَ مَنْعي
مَنْ مُـعـيـدٌ ايّامَ سَلْعِ على مـا
كـانَ منهـا وأينَ أيامُ سَلع
طالبٌ بالعـراق ينشُـدُ هيـهـا
ت زمـانًا اضلّهُ بالجِـزْع[3]

(١) هديل الحمام ١/ ١٣٢
(٢) المقتطف من ازاهر الطرف لابن سعيد الاندلسي ١٢٣
(٣) ديوان الشريف الرضي ١ / ٦٥٧ - ٦٥٨

ويتشوق أخوه الشريف المرتضى، وهم أهل الديار وأهل الشوق والحنين، فيقول:

ألا يا نسيمَ الرّيح من أرضِ بابلٍ
تحمّلْ إلى أهل الخيامِ سلامِي
وإنّي لأهْوَى أن أكونَ بأرضِهمْ
على أنّني منها استفدتُ مقامي
وقد كنتُ كالعِقْدِ المنظّم منهُمُ
فهاأنذا سلكًا بغيرِ نظامِ
أبِيتُ أُرَجّي أنْ يُلمَّ خيالُهمْ
وكيف يزور الطيفُ دونَ منامِ
فلا برقَ إلاّ خُلَّبٌ بعد بَيْنِهِمْ
ولا عارضًا إلاّ بياضُ جَهَامِ(1)

وهذا شاعر مكة محمد بن إبراهيم الأسدي يقف بالمحصب قبل مغادرته مكة، ويسأل عن أهله وماذا فعلوا:

قفْ بالمُحصّبِ واسألْ أيّها الرّجلُ
تلكَ الرّسومَ عن الأحبابِ ما فعلوا
هُمُ أقاموا كَعَهدي في ديارهِمُ
امْ صرّفتْهمْ صروفُ الدهرِ فاحْتملوا
فما أسائلُ عن آثارهمْ احدًا
إلاّ أجابَ غرابُ البينِ قد رَحَلوا(2)

وله قصيدة فريدة في التشوق لمكة، يذكر القفطي منها مطلعها:

ديارَ الحيِّ أينَ همُ قطونُ
أنَعْمانُ الأراكِ أم الحَجُونُ(3)

---

(1) المقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد الأندلسي ١٢٣

(2) المحمدون من الشعراء ١٣٩

(3) المحمدون من الشعراء ١٤١

وممّن ولد بمكة وتشوّق إليها البهاء زهير ذلك الشاعر الرقيق، الذي يبدي في تشوقه عن صبابة ما بعدها صبابة، ولهفة حارة تصدع ما بين جنبيه، إنه حنين الذكريات، والأسف على انقضائها، وامتزاج هذا الحنين بالشوق للمحبوبة يجعله أشد التهابًا، وأكثر حرقة، فيلفح قلب صاحبه، ويشغل باله، فيعتريه الخبال، كما يقول:

أحنُّ إلى عهدِ المحَصّبِ من منًى
وعيشٍ به كانت ترفُّ ظلالُهُ
ويا حبذا أمواهُهُ ونسيمُهُ
ويا حبّذا حصباؤُهُ ورمالُهُ
ويا أسفي إذ شطَّ عني مزارُهُ
ويا حَزَني إذ غاب عني غزالُهُ
وكم ليَ بين المروتيْنِ لبانةٌ
وبدرُ تمامٍ قد حوتهُ حجالهُ
مقيمٌ بقلبي حيثُ كنتُ حديثُهُ
وبادٍ لعيني حيثُ سرتُ خيالُهُ
واذكرُ أيّامَ الحجاز فأنْثَني
كأنّي صريعٌ يَعْتريه خبالُهُ
ويا صاحبي بالخيف كنْ ليَ مسعدًا
إذا آن من ذاكَ الحجيج ارتحالُهُ
وخذْ جانب الوادي كذا عن يمينهِ
بحيث القنا يهتزُّ منهُ طوالهُ
هناكَ ترى بيتًا لزينب مشرقًا
إذا جئتَ لا يخفى عليكَ جلالهُ
فقل ناشدًا بيتًا ومن ذاق مثلهُ
لدى جيرةٍ لم يدر كيف احتيالهُ
وكن هكذا حتى تُصَادفَ فرصةً
تُصيبُ بها ما رمتَهُ وتنالهُ

فعرِّضْ بذكري حيثُ تسمعُ زينبُ
وقلْ ليس يخلو ساعةً منك بالهُ
عَساها إذا ما مرَّ ذكري بسَمْعِها
تقول: فلانٌ عندكم كيف حالهُ ؟[1]

وهذا الشريف محمد بن بركات المكنى بأبي نُمي الثاني تتأججُ نار الشوق لمكة وأهل مكة في جوانحه، فيبدي في شعره عن عاطفة جياشة للمكان ومن حلّ به، يقول:

نام الخليُّ فما لجفني الساهرِ
إذ باتَ سلطانُ الغرام مُسامِري
جَفَتِ المَضَاجعُ جانبيَّ كأنما
شوكُ القتادِ على الفراشِ مُباشري
وتأجَّجتْ نارُ الغرام واضْرَمَتْ
بين الجوانحِ في مِكَنٍّ سرائري
وشجيتُ من الم الفراق وخانني
صبري الوفيُّ على الخُطوب وناصري
خَلَتِ المنازلُ من أُهَيْلِ مودتي
وهمُ همُ في الحيِّ قرّةُ ناظري
اهل الصّفا بين الصّفا وطُويلع
مَلْقَى جياد وفيضُ اشْعَبِ عامرِ
يا اهْلَ ودّي لو تروني بعدكم
كغريبِ قومٍ بين أهلي حائر
من بعدِ جيرانِ الصّفا اهل الوفا
سمحتْ بإرسالِ الدموع مَحَاجري[2]

ولا يقل شوق الشعراء المتشوقين لمكة من خارجها عن شوق أبنائها، بل لعله أشدّ حرقة ولهفة، وهذا ابن عساكر عبدالصمد بن عبدالوهاب الشافعي أبو اليُمن، يتحرّق شوقًا إلى جيرة الحرم، فيقول:

(١) ديوان البهاء زهير ١٤٧
(٢) الإشراف في تاريخ الأشراف ٣٠٢ – ٣٠٣

يا جيرتي بين الحَجون إلى الصَّفا
شوقي إليكمْ مجملٌ ومُفَصَّلُ

أهوى دياركُمُ ولي بربوعِها
وجدٌ يُثبِّطني وعهدٌ أوّلُ

ويزيدُني فيها العَذولُ صبابةً
فيظلُّ يُغريني إذا ما يَعْذلُ

ويقول لي لو قد تبدّلتَ الهوى
فأقولُ قد عزَّ الغداةَ تَبَدُّلُ

باللهِ قلْ لي كيف تُحْسِنُ سلْوةً
عنها وحسنُ تصبُّري هل يجمُلُ؟

يا أهلَ وديَ بالمحصّب دعوةً
من نازحٍ يلقاكُمُ يتعلَّلُ[1]

ويتشوق الحسن بن محمد الصغاني النحوي متشوقًا للكعبة:

شوقي على الكعبة الغرّاء قد زادا
فاستَحملَ القُلُصَ الوخّادةَ الزادا[2]

وينقل الفيروزابادي بعض أبيات الشوق والحنين إلى الحجاز، فيقول: (وقد أكثر الشعراء ذكر الحجاز في أشعارهم، ومن ذلك قول أشجع السلمي:

بأكنافِ الحجاز هَوًى دفينُ
يؤرّقني إذا هَدَت العُيُونُ

أحنُّ إلى الحجاز وساكنيهِ
حنينَ الإلفِ فارقَهُ القَرينُ

وأبكي حين ترقُدُ كلُّ عينٍ
بكاءً بين زفرتِهِ أنينُ

(١) العقد الثمين ٥/ ٤٣٢

(٢) معجم الأدباء ٣/ ١٠١٥

فإنْ بَعُدَ الهوى وبعدتُ عنهُ

وفي بُعد الهوى تبدو الشّجونُ

فَأعذِرْ من رايتَ على بكاءٍ

غريبٌ عن احبّتهِ حزينٌ

يموتُ الصَّبُّ والكتمانُ عنهُ

إذا حَسُنَ التذكّرُ والحنينُ[1]

وليس من شرط البحث الحديث عن الحجاز بعمومه، وإن كان الشوق والحنين في أغلبه للأماكن المقدسة، لكن ذلك قد يبعد بنا كما يقول الشاعر، فتتعدد الشجون، ويمتد البحث ويطول.

ويصور أحد الشعراء شدة شوقه إلى الأماكن المقدسة، ويبين عن عظيم صبره على فراقها وبعدها، ويرى أن تصبّره كتصبّر السقيم على طيب المقام، فيقول:

اعَلِمتَ كيف تصبُّري

عن رؤية البيتِ الحرامْ

والمَشْعرينِ ومسجدٍ

بالخيفِ يشهدُ كلَّ عامْ

وعن الزيارة للنبيِّ

المصطفى خيرِ الأنام

كتصبُّر المدْفُوع بالـ

اسقامِ عن طيبِ المقَام[2]

ومن بديع التشوق والحنين قصيدة حجازية قالها علي بن الحسن الرُّعيني الشاعر الأندلسي متشوقًا إلى أرض الحرمين الشريفين، ومعبرًا عن شدة الظمأ لماء زمزم، ويتمنى أن يلصق خده بترابها الطاهر، يقول:

---

(١) انظر المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٢٩

(٢) الوطن في الشعر العربي لوهيب طنوس ٢٩٠

حنيني إلى البيتِ العتيقِ شديدُ
وشوقي إلى وادي العقيقِ يزيدُ
فيا ليتَ شِعْري هل يُباحُ إليهما
وصولٌ فيحظى بالوصالِ عميدُ
ومَنْ ليَ أنْ أُدعى إلى حَرميْ هدى
وهل لي على تلك البقاع وفودُ
وهل ناقِعٌ لي ماءُ زمزمَ غُلَّةً
لها بين أحناءِ الضّلوع وقودُ

ثمّ يحثُّ ركائبه مسرعًا ومبادرًا:

فما ليَ لا أسعى إليها مبادرًا
بقيّةَ عمرٍ تنقضي وتبيدُ
تحثُّ ركابي نحوها عزمةُ امرئٍ
بمَحْياهُ في ذات الإله يجودُ
يهمُّ فيُلقي بين عينيهِ عزمةً
ويمضي مضاءَ السّهم حيثُ يريدُ
فأقضي ذماءَ النفس في عَرصَاتها
غريبًا لديها والغريبُ شهيدُ
وإنّ امرأً يقضي فريضةَ حَجِّهِ
وزوْرةَ قبر المصطفى لسعيدُ
وقد فاز بالحسنى ونال زيادةً
سعيدٌ يواريه هناك صعيدُ

وينهي بتوجيه السلام:

سلامٌ على البيتِ الحرام وطيْبَةٍ
يكرُّ على ربعيْهِما ويعودُ

سلامٌ محبٌّ كلما ذكر ارْضَهَا
تبادرتِ الأجفانُ منه تجودُ[1]

وفي قصيدة حجازية أخرى يبين هذا الشاعر عن عظيم شوقه، ومحبته لتلك البقاع، ويبدي عدم صبره على فراقها، وهو يكثر السؤال وكأنه من لهفته لا يكاد يصدق أنه قد يشرب من ماء زمزم، وكما كان تأثير أبيات الجرهمي، فإن الشاعر هنا يختم قصيدته بما قاله بلال بن رباح رضي الله عنه في التشوق لمكة، فيقول:

الا هل إلى البيتِ العتيقِ سبيلُ
وهل لِيَ في وادي الأراك مَقِيلُ
وهل لصَدرمن ماء زمزمَ نُغْبَةٌ
يُفلُّ بها بين الضلوع غَليلُ
ومن لي اتاحَ الله سُؤليَ ان ارى
دموعيَ في بطن المَسيل تسيلُ
فيا نجدُ انجدني بهبَّةِ نفحةٍ
تمرُّ بعطف الروضِ وهْو بليلُ
ففي نَفَسٍ منها عليلُ عُلالةٍ
لقلبي وهل يُشْفي العليلَ عليلُ
ويا كعبةٌ رَصَّ الخليلُ بناءها
اما مُسْعِدي يومًا إليك خليلُ
ثَكلْتُ فؤادي يوم انساكِ أو أرى
إلى الصبر والسلوان عنكِ سبيلُ
فلا زال بي شوقٌ إليك مُبَرِّحٌ
ولا فاتني وجدٌ عليك طويلُ
وقَبْلي بلالٌ قال يشكو غَرامَهُ
وقد شاقهُ ظلٌّ هناكَ ظليلُ

(١) الذيل والتكملة ٥ / ١/ ٣٦٤ - ٣٦٥

(ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً
بوادٍ وحولي إذْخِرٌ وجَليلُ[1])

ومكة هي القصد والغاية، وهي موضع الرحال وعندها يُقال: ألقى عصا الترحال، فهذا جار الله الزمخشري يجاور بمكة، فيرى أنها منتابه ومرجعه، وإليها يكون عوده لا إلى بلده، فهي ملتزمه، وملقى رحاله:

أنا الجارُ جارُ الله مكةُ مركزي
ومضربُ أوتادي ومعقدُ أطْنابي
وما كانَ إلاَّ زوْرةً نهضتي إلى
بلادٍ بها أوطانُ رهطي وأحْبَابي
فلما قَضَتْ نفسي ولله درُّها
لُبانةَ دارٍ زَنْدُها غيرُ خيَّابِ
كَرَرْتُ إلى بطحاءِ مكةَ راجعًا
كأنّي أبو الشبلينِ كرَّ إلى الغابِ
فمنْ يُلقِ في بعضِ القُريّاتِ رَحْلَهُ
فأمُّ القرى مُلْقى رحالي ومُنتابي
ومن كانَ في بعضِ المحاريبِ راكعًا
فللكعبةِ البيتِ المُحَرَّمِ مِحْرَابي
إذا التصقتْ في آخرِ الليلِ لُبَّتي
بمُلتزمِ الأبرارِ من أيمنِ البابِ
أو التصقتْ بالمُستجارِ أو التقتْ
على الرُكنِ أجفاني بسحٍّ وتَسْكَابي
فقلْ لملوكِ الأرضِ يلهوا ويلعبوا
فذلكَ لهوي ما حييتُ وتلعابي[2]

---

(١) المصدر نفسه ٥ / ١ / ٣٦٥ – ٣٦٦

(٢) مخطوطة ديوان الزمخشري ص ٩ عن الإسعاف بشرح شواهد القاضي والكشاف ٨٠٨

وإن ملأ الحنين الضلوع، وتأججت ناره في الكبود، فإن نار بعض شعراء الصوفية تتلهّب في شوقها، فهي أيام المنى عند ابن الفارض، تلك الأيام التي قضاها في ظلال تلك الديار، وهو يتمنى من صميم قلبه عودتها، فهل تعود ؟:

أيّامَ أرتعُ في ميادين المنى
جَذِلاً وأرفلُ في ذيول حَيائي
ما أعْجَبَ الأيّامَ توجبُ للفتى
فيحًا وتمنحُهُ بسلْبِ عطاءِ
يا هل لماضي عيشنا من عودةٍ
يومًا وأسمحُ بعدهُ ببقائي

وتنزع مهجة علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي لانتشاق رائحة هوى مكة، فبكاء الوجد ومعاناة الشوق، تجعله يستعجل المطايا للوصول إلى منى قبل أن يخترمه الموت، كيف لا ؟ وهو وصحبه الشعث الغبر تراهم وهم من شدة الأنين والبكاء يصدعون الصخر، لدرجة أنهم حرموا على أنفسهم الماء حتى يشربوا من زمزم، يقول:

كيفَ لا أندبُ عهدًا بالحِمى
عن جفوني طارقَ النّوم حَمى
نزعتْ شوقًا إليهِ مهجةٌ
لم يدعْ منها الهوى غيرَ ذما
يا ليالينا بذي الغور أما
يتسلّى القلبُ عنكنّ أما؟
وعهودًا باللّوى قد سلفتْ
لم أزلْ أبكي عليهنّ دَما
يصدقُ البرقُ فؤادي حسرةً
فأنا أبكي إذا ما ابتَسَما
لا تلُومونِي على الوَجدِ فما
يَغفَرُ المنصفُ باللومِ فَمَا

كـيفَ لي بـالخَـيْفِ يدنو ومِنىً
فـهُـمـا همُّ فُـؤادِ فـهُـمـا؟
يا حُـداةَ العـيسِ رفـقًـا إنَّهـا
شكتِ الجـهـدَ وبُعْـدَ المُـرتمى
إنَّهـا قـد حـملتْ شُـعـثًـا إذا
مـا بكوا قلتَ غَـمَـامٌ سَـجَـمـا
ومـتى أنُّوا اشـتـيـاقًـا وشكوْا
صدعوا الصخرَ وشاقوا الأعْصُما
شـربوا الدمعَ حـمـيـمًـا وارتووْا
ولذا عـافـوا الزُّلالَ الشَّـبِـمَـا
لم يزمّـوا العـيسَ حـتّى حـرّمـوا
كلَّ مـاءٍ أو يـحلّوا زمـزمـا
لا تلمْـهُمْ في البكا مُـغْـتـديًا
كلُّ جـفنٍ شـامَ أو هـامَ همـا[1]

وهو يعنّف نفسه على أن عينيه لم تعد تسح دمعًا شوقًا لتلك المعاهد، وهذا في القياس غير صحيح، فلو كان صادق الحب لرشحت مقلتاه كما يقول:

أرى دعـوى الـمَـحَـبـة لا تصحُّ
وخُـلّـبَ بـرقِ عـزمكَ لا يـسحُّ
ولـو تطوى على عـزْمٍ صـحـيحٍ
لـهـاجكَ من نسـيمِ الغـورِ نفحُ
وكنتَ تطيـرُ من طربٍ مـتى مـا
يَلُحْ لكَ من بـروقِ الخَـيْفِ لَـمْحُ
أتُشْـجـيكَ الحـمـائمُ كلَّ حـين
ومـا في مـقلتـيكَ لـهنَّ رَشحُ[2]

(١) الذيل والتكملة ٥/٢/ ٢٩٣ -٢٩٥
(٢) المصدر نفسه ٥/٢/٢٩٧

والرحلة طلبًا للمكارم هي الهم والغاية، ويترنم هذا الشاعر العاشق المتيم بالتغني بالحطيم وزمزم، ويدعو نفسه وهو يتضرع إلى الرحمن في تلك المعالم أن تظهر صحة الهوى بالبكاء الأحمر، حيث الدمع الأبيض لا يكفي للدلالة على صادق المحبة، وجميل شجوه، وعذب ترنمه علّم الحمام، فأصغى إليه، يقول من قصيدة تكتنز عاطفة، وتتوهج حرارة:

بينَ الحطيمِ وزمزمِ
أرسلْ جفونكَ بالدَّمِ
واضرعْ إلى الرحمن في
تلكَ المعالمِ تُرْحَمِ
لا تعرضنَّ إلاَّ عن دمٍ
فيها كلونِ العَنْدمِ
إنَّ الدموعَ البيضَ لا
تمحو خطايا المجرمِ
باللهِ يا ريحَ الصَّبَا
انهي سلامَ المُغْرَمِ
بُثِّي حديثَ أساهُ في
نادي الحجيجِ الأعظمِ
واندَيْ بمَسْراكِ البَليلِ عليهمُ وتنسَّمي
وبِعَرفِ ريحكِ مَنْ سعى
مُهَجَ المطايا الرُّزَّمِ
بُثِّي حديثَ مُتَيَّمٍ
يهْوى المطارَ إليهمِ
تُصغي الحَمامُ لشجوهِ
فيقولُ: ويكِ تعلَّمي
وتصيخُ نحوَ نحيبهِ
فتمدُّهُ بترنُّمِ(1)

---

(1) الذيل والتكملة ٥/ ٢/ ٢٩٩

ويشتدُّ الأسف والتحسر والندم على انقضاء تلك الأيام، ويتمنى لو زادت، فأصبحت عشرًا، وهذا يذكرنا بأمنية عمر بن أبي ربيعة الذي تمنّى لو أنّ الحج يتكرر في العام أكثر من مرة، فيقول:

آهًا لأيامنا بالخَيْفِ لو بَقِيَتْ
عشرًا وواهًا عليها كيف لم تَدُمِ
هيهاتَ وا أسفي لو كان يَنْفَعُني
أو كان يُجدي على ما فاتَ وا نَدَمي

والشوق إلى المكان بكل ما فيه من: أناس وجبال وتراب وشجر هو ذلك الشوق الجامع الذي يملأ على ابن الفارض سمعه وبصره وحسه، فيقسم:

وحياتكمْ يا أهلَ مكةَ وهْيَ لي
قسمٌ لقد كَلِفتْ به أحشائي
حُبِّيكُمُ في الناس أضحى مذهبي
وهواكمُ ديني وعَقْدُ ولائي
فَلِنازلِي سَرْحِ المُرَبَّعِ فالشبيـ
ـكَةِ فالثُّنيَّة من شِعَاب كَداءِ
ولحاضري البيت الحرام وعامري
تلك الخيام وزائري الخَنْماء
ولفتيةِ الحرمِ المريعِ وجيرةِ الـ
ـحيِّ المنيع تلفُّتي وعنائي
وربوعُهُ أَرَبي أجلْ وربيعُهُ
طربي وصارفُ أزمةِ الأهواء
وجِبالُهُ لِيَ مَرْبَعٌ ورمالُهُ
لِيَ مَرْتَعٌ وظلالُهُ أفيائي
وتُرابُهُ نِدّي الذكيُّ ومَاؤهُ
وِرْدي الرَّوِيُّ وفي ثَراهُ ثَرائي

وشبِـــعَـــــابُهُ لِيَ جَنَّةٌ وقِـــبـــابُهُ
لِيَ جُنَّةٌ وعلى صَنَــفَـــاهُ صَنَــفَـــائي[1]

وأهل المغرب أحرى بالشوق وأجدر، لبعد الشقة، وما يلاقونه من العنت والمشقة، ومن هنا فالشوق يكون أشد، والمشوق أشوق، يروي أبوعبدالله الحميدي، قال: أنشدني أبو محمد بن عبدالله بن عثمان النحوي بالمغرب لبعض أهل تلك البلاد في الشوق إلى مكة ـ شرفها الله تعالى ـ شعرًا:

يَحِنُّ إلى أرضِ الحـــجـــازِ فـــؤادي
ويحـدو اشـتـيـاقي نحـوَ مكةَ حـادي
ولي أملٌ مـــا زالَ يســمـــو بهـمَّـتي
إلى البلدةِ الغـــرَّاءِ خـــيـــرِ بلادِ
بهـا كـعـبـةُ اللهِ التي طافَ حـولَهـا
عـــبـــادٌ همُ للهِ خـــيـــرُ عـــبـــادِ
لأقـــضيَ حقَّ اللهِ في حجِّ بيـــتـــهِ
بـاصـــــــدقِ إيمـانٍ وأطيـبِ زادِ
أطوفُ كـمـا طافَ النبـيـونَ حـولَهُ
طوافَ قـــيـــادٍ لا طوافَ عنـادِ
واســتـلمُ الركنَ اليـــمـــانيَّ تابعًـا
لسُنَّةِ مـــهـــديٍّ وطاعـــةِ هادي
واركعُ تلقـــاءَ المـــقـــامِ مُـصَلِّيًـا
صـــلاةً أُرَجِّـيـهـا ليـومِ مـعـادي
واسـعى سـبـوعًـا بينَ مـروةَ والصـفـا
أهـــلِّـــلُ ربِّـــي تـــارةً وأنـــادي
وارقى على أعلى المُـعَـرَّقِ داعـيًـا
إلى اللهِ ربِّي في صـــلاحِ فـــســـادي

---

(1) شرح ديوان ابن الفارض ٣٧٢

وآتي مِنىً أقــضي بهــا التَّــفَثَ الذي

يَتِمُّ بـهِ حِــجِّي وهَدي رشَــادي

فــيـا لـيـتـني شـارفتُ أجـبُلَ مكةٍ

فـــبتُّ بنـادٍ عنـدَ أكْــرَمِ وادي

ويا ليـتني قــد جـئتُ بطنَ مُـحـسِّرٍ

على ذاتِ لونٍ كـالـعـقـيقِ سنادِ

ويا لـيــتـني رَوِّيْتُ من مــاءِ زمــزمٍ

صــدى خَلَدٍ بينَ الجــوانحِ صــادي

ويا ليـتني قــد زرتُ قـبـرَ مـحـمـدٍ

فـاشـفي بتـسليـمي عليـهِ فـؤادي(١)

ويتجدد الشوق، ويجمله المشوق ويفصّله، وتزداد صبابته بإغراء العذول، كما يقول أبو اليمن بن عساكر:

يا جـيـرتي بينَ الحَجُـون إلى الصَّـفـا

شــوقي إليكمْ مُـجْـملٌ ومُـفَـصَّلُ

أهـوى ديـاركمُ ولـي بـربوعـهـا

وَجْــدٌ يؤرِّقـني وعـهـدٌ أوَّلُ

ويزيدني فـيـهـا العـذول صـبـابةً

فـيظلُّ يُغـريني إذا مـا يعـذلُ(٢)

ويعبر الشعراء عن شدة الفرح والابتهاج لدخول مكة ورؤية الحرم، يقول ابن جبير لما رأى البيت الحرام:

بـدت لـيَ أعــلامُ بـيتِ الـهـدى

بمـكَّـةَ والـنورُ بـادٍ عَـلَـيْـه

فـأحـرمتُ شـوقًـا له بـالـهـوى

وأهـديتُ قـلـبيَ هَـدْيًا إلـيـه(٣)

---

(١) إثارة الترغيب والتشويق ١٢٣

(٢) المجاز بين اليمامة والحجاز ٣٢٦

(٣) نفح الطيب ٢/ ٢٨٤

ولا يصدق الشبلي نفسه أنه بين أحضان مكة، فيقول من شدة الوله:

ابطحاء مكة هذا الذي
أراهُ عِيَانًا وهذا انا[1]

وعلي بن افلح يحبس الركب، ويندب الربع، ويبكي الدمن، ويتمنى عودة ذاك الزمن في ربوع الخيف ومنى:

هذه الخيفُ وهاتيك منى
فترفقْ أيّها الحادي بنا
واحبس الركبَ علينا ساعةً
نَنْدبُ الرَّبعَ ونبكي الدِّمنا
فلذا الموقفِ اعددنا البُكا
ولذا اليومِ الدموعُ تقتنى
زمنًا كان وكنّا جيرةً
يا أعادَ اللهُ ذاك الزمنا[2]

وهذا أحد شعراء دمشق يهتف عندما حلَّ بها:

انخِ الركابَ فهذه امُّ القرى
قد لاح نورُ الهدْي من مِشْكاتِها
واجعلْ شِعارَكَ منه تقوى الله كي
تستنتجَ الخيراتِ من بركاتها[3]

وإذا كان الحنين إلى الأوطان جارفًا، فإنّ مكة تسلي عن الأوطان، وهذا شاعر صدّته الأمواج عن ركوب البحر والعودة لبلده، فكتب في ذلك قائلاً:

لئن صَدّني البحرُ عن موطني
وعيني باشواقِها زاهرةْ

(١) مثير العزم الساكن ١٥٤
(٢) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ٣١٨
(٣) خلاصة الكلام ٩٩

فـــــقـــــدْ زَخْـــــرفَ الـلـهُ لـي مكّـةُ

بانـوارِ كـــــعــــبـــتــــهِ الـزاهـرةْ[1]

وفي ذلك يقول أبو عبدالله محمد بن علي بن يحيى الأندلسي، ويعد ذلك من النعم العظيمة عليه:

إذا كنتُ جـــارًا للنبيِّ وصَــحْــبِـــهِ

ومكّةُ بيت الله منّي على قُــــرْبِ

فـمـا ضـرّني انْ فـاتني رغْـدُ عـيـشـةٍ

وحسبي الذي أُوتيتهُ نعمةُ حسبي[2]

ومن شدة الحب تُنسى القلوب، ويخلّفها أصحابها خلفهم في مكة بعد الرحيل، فهذا شاعر يفتش عن قلبه فلا يجده، ويبدو أنه تركه وديعة كما يقول:

لـي في الـحـجـازِ وديعـةٌ خلّفـتُـهـا

أودعـــتُـــهـــا يوم الوداعِ مُـــودَّعِي

واظنُّـهـــا لا بل يقـــيـنـي انّهـــا

قلبي لاني لم اجــد قلبي مـــعي[3]

والشوق يجعل ابن الفارض يتصور قلوب العاشقين مطروحة على أرض الخيف، ويطالب الإبل بأن تترفق حتى لا تطأها:

خَــفِّــفِي الوطءَ فــفي الخــيفِ سلمـ

ـتِ على غـــيـــر فـــؤادٍ لم تَطِي[4]

ولا يكتفي بذلك بل هو ينشد ضالته التي ضاعت منه - على طريقة الشريف الرضي - وهي قلبه ما بين كداء وكدي، ويطالب أخلاّءه بالبحث عنه ورده إليه، وكما سبق فقلبه المتعلق بمكة ضاع فيها:

---

(١) نفح الطيب ٤ / ٣٢٧

(٢) نفح الطيب ٢/ ٦٠

(٣) شرح ديوان ابن الفارض ١٥١ والبيتان فيه لم يُنسبا لأحد

(٤) المصدر نفسه ١٥٠

كــــان لـي قلبٌ بجــــرعـــــاء الحِـــمـى
ضـــــــــــاعَ مـنّـي هـل لـه ردٌّ عـلـيْ
إن ثـنـى ناشـــــــدتُكمْ نُشْـــــدانكـمْ
سُـــــجَـــــرائـي لـيَ عـنـهُ عَـيُّ عـيْ
فــــاعْـــــهَـــــدوا بَطْـحـــــاءَ وادي سَلَـمٍ
فــــهْـي مــــا بـيـن كَـــــداءٍ وكُـــــدَيْ[1]

ويجعل روحـه في مكة التي هي سؤله، وطيبه ثراها، ويتشوق إليها على البعد في شعر يقطر عذوبة، مما جعل عبدالله بن إدريس يتساءل في عجب عن هذه النفحات وهذا السمو الشعري الذي في رأيه أعجز شعراء الوجدان، وأخرس أعلام الوصف، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

يا أُهَيْلَ الحــــــجــــــازِ إنْ حكمَ الـدهـ
ـرُ ببينٍ قَــــضَــــــاهُ حَـــــتْمٌ إرادي
فـــغــــرامي القـــديمُ فــيكم غـــرامي
ووِدادي كـــــمــــــا عـــــهـــــدتم ودادي
قــــد سكنتم من الفــــؤاد سُـــويدا
ءَ، ومن مــــقلتي مــــحلّ السَّـــوادِ
يا سَـــــمِــــيــــري رَوِّحْ بمكـةَ روحي
شـــــاديًا إن رغـــبتَ في إســـعـــــادي
فَـــذُراها سُـــؤلي وطيـــبي ثـراها
وســــبـــيلُ المـــســـيل وِرْدي وزادي
كـــان فـيــهـــا أُنسي ومـعــراجُ قـدسي
ومـــقـــامي المـــقــامُ والفـــتح بـادي
نقلتني عنهـــا الحظوظ فـــجُـــذَّتْ
وارِداتـــــي ولـــــم تَـــــدُمْ أَوْرادي
آهِ لـو يســــمحُ الزمــــانُ بـعَــــوْدٍ
فــــعـــسى أن تعــودَ لي أعـيـــــادي

(١) المصدر نفسه ١٥١ – ١٥٢

فـــــبــــــربِّ الحطيم والركن والأســ
ـتــارِ والمـــروتـيـنِ مَـسْـعى العِـبـادِ
وظِلالِ الجَنابِ والحِــجْــر والمـــيـ
ـزابِ والمــــســتــجــاب للقُـصَّــادِ
مـــا شَـــمَـــمْتُ البـــشــامَ إلاّ واهدى
لفـــؤادي تحـــيـــةً من سُـــعـــاد[1]

ويقسم ابن الفارض على حب أهل مكة، بل إنّ هذا الحب أصبح مذهبه، وهواهم أربه، وهو يعدد الأماكن، ويستعيد حديثهم شوقًا إليهم، ومحبة فيهم، حقًا إن قراءة هذا الشعر تجعلك تعيش حالة حب فريدة، جعلت الشاعر يستخدم كل الأدلة على صدق حبه، فهو لم يترك أسلويًا من أساليب التأكيد والتكرار، والقسم، والدعاء، والتمني، والتصوير والوصف إلا وجاء بها، بالإضافة إلى الألفاظ الدالة على شدة التعلق، وسيطرة معاني الحب التي تؤكد الهيمان والحرقة، يقول:

يا ســـاكني البطحـــاء هل من عـــودةٍ
احـــيـــا بهـــا يا ســـاكني البطحـــاءِ
فــــبــــــربكم يا اهل مكة وهْو لي
قـــسمٌ لقـــد كلفت بكم احـــشـــائي
حُـبّـيكمُ في الناس اضــحى مـذهبي
وهـواكمُ اربي وعــــــقـــــدُ ولائي
يا لائِـمِي فـي حـبِّ مَـنْ مِـن اجـلـهِ
قـــد جـــدَّ بي وَجْـــدي وعـــزَّ عـــزائي
لو تدرِ فـــيـمَ عَـــذَلْتني لعَـــذَرتني
خــــفِّضْ عليكَ وخلِّني وبلائي
فلنازلٍ ســرْحَ المُـربَّع فـالشـبـيـ
ـكة فـالثنيّـة من شـعـاب كـداء

(١) المصدر نفسه ٢/ ٣٧٧

ولحاضِري البيتِ الحرام وعامري
تلك الخيام تلفُّتي وَعَنَائي
ولفتيةِ الحَرمِ المريع وجيرة الـ
حيِّ المنيع وزائري الحَثْماءِ
فهمُ همُ صدُّوا دَنَوْا وصلوا جَفَوْا
غدروا وفَوْا هجَروا رثَوْا لضنائي
أَسْعِدْ أخيَّ وغنِّني بحديث من
حلَّ الأباطحَ إنْ رعيتَ رجائي
وإذا أذى الم الـمَّ بمهجتي
فشذا أُعيْشابِ الحجاز دوائي
وترابهُ نديُّ الذكيُّ وماؤهُ
وردي الرويُّ وفي ثراهُ ثرائي
وشعابهُ لي جنةٌ وقبابهُ
لي جُنَّةٌ وعلى صفاهُ صفائي
حيَّا الحَيا تلك المنازلَ والربى
وسقى الوليُّ مواطنَ الآلاء
وسقى المشاعرَ والمحصَّبَ من منًى
سحًا وجادَ مواقف الأنضاء
ورعى الإلهُ بها أُصيحابي الأُلَى
سامرتُهمْ بمجامع الأهواء
يا هل لماضي عيشنا من أوْبَةٍ
يومًا واسمحْ بعدهُ بفنائي[1]

وتفدية مكة بالنفس، والدعاء لها بالحماية والصيانة هو لونٌ من ألوان الحب والشوق، وتعداد مكارمها، وأسباب عظمته هو أيضًا من هذا الباب، كي يصل منه إلى

(١) ديوانه ٢ / ٣٧٠ - ٣٧٢

التعبير عما تتضمنه الجوانح من لهفة وشوق، كما يقول هذا الشاعر الأندلسي من قصيدة له:

أمكةُ تفديكِ النُّفوسُ الكرائمُ
ولا برحتْ تنهلُّ فيكِ الغمائمُ

وكُفَّتْ أكفُّ السوءِ عنكِ وبُلِّغتْ
مُناها قلوبٌ كي تراكِ حوائمُ

فإنَّكِ بيتُ اللهِ والحرمُ الذي
لعزَّتهِ ذلَّ الملوكُ الأعاظمُ

وقد رُفِعتْ منكِ القواعدُ بالتُّقى
وشادتْكِ أيدٍ برَّةٌ وعواصمُ

وساويتِ في الفضل الصُّراح كلاكما
تُنالُ بهِ الزُّلفى وتُمحى المآثمُ

ومن أينَ تعدوكِ الفضائلُ كلُّها
وفيكِ مقاماتُ الهُدى والمعالمُ

ومبعثُ من سادَ الورى وحَوى العُلى
بمولدهِ عبدُالإله وهاشمُ

نبيٌّ حوى فضلَ النبيِّينَ واغْتدى
لهم أولاً في فضلهِ وهْو خاتمُ

وفيكِ يمينُ اللهِ يلثمها الورى
كما يلثمُ اليمنى مِنَ المَلْكِ لاثمُ

وفيكِ لإبراهيمَ إذ وطىءَ الصَّفا
ضُحى قدمٍ بُرهانُها مُتقادمُ

دعا دعوةً فوقَ الصَّفا فأجابهُ
قُطوفٌ من الفجِّ العميقِ وراسمُ

وبعد تعداد جوانب الفضل وخصال الفضائل، يتلهف لزيارتها، ويدعو الله أن تتحقق أمنيته، في الشرب من زمزم، وفي التلبية مع الحجاج:

أَلَهْـفِي لأقـدارٍ عـدتْ عنكِ همَّتي

فلم تنتهضْ منّي إليكِ العزائمُ

فيا ليتَ شعري هل أرى فيكِ داعيًا

إذا جارتْ للهِ فيكِ الغمائمُ

وهلْ تمْحُوَنْ عنّي خطايا اقترفتُها

خُطىً فيكِ لي أو يَعمُلاتٌ رواسمُ

وهل ليَ من سُقيا حجيجكِ شربةٌ

ومن زمزمٍ يُروي بها النفسَ حائمُ

وهل ليَ في أجرِ المُلَبِّينَ مَقسَمٌ

إذا بُذلتْ للنّاسِ فيكِ المقاسمُ

وكم زارَ مَغناكِ المعظَّمَ مجرمٌ

فحُطَّتْ بهِ عنهُ الخطايا العظائمُ

لئن فاتني منكِ الذي أنا رائمٌ

فإنَّ هوى نفسي عليكِ لرائمُ

وإنْ يَحْمِني حامي المَقاديرِ مُقْدِمًا

عليكِ فإني بالفؤادِ لقادمُ

ثمَّ يختم بإهداء أزكى السلام والتحية:

عليك سلامُ اللهِ ما طافَ طائفٌ

بكعبتك العليا وما قامَ قائمُ

إذا نِسَمٌ لم تُهْدِ عني تحيةً

إليكِ فمُهديها الرِّياحُ النَّواسمُ[1]

ويتشوق أبو علي المروزي الحسن بن علي القطان بعد أن مكث مجاورًا بالحرم فترة، ويعبر عن نفس مترعة بالشوق، مولعة بحب البيت الحرام وكلّ الأماكن الشريفة من خيف منى، إلى المحصب والصفا وشعب عامر، ويظل يعالج الأسى، ويداري حزنه، فيقول:

---

(١) قلائد العقيان ٧٣٠ - ٧٣١

خليليَّ هل تشفي من الوجدِ وقفةٌ
بخيفِ منىً والسامرونَ هجوعُ
وهل لِلُّلَيلاتِ المحصَّبِ عودةٌ
وعيشٍ مضى بالمازمينِ رجوعُ
وهل سرحةٌ بالسفحِ من ايمنِ الصَّفا
رَعَتْ من عهودي ما اضاعَ مضيعُ
وهل قُوِّضتْ خَيْمٌ على ابرق الحمى
وما ذاكَ من غدر الزمان بديعُ
وهل تَرِدَنْ ماءً بشِعْبِ بنِ عامرٍ
حوائمُ لو يُقضى لهنَّ شروعُ
وإنّي متى اعصِ التجلُّدَ والأسى
فَللشوق مني والغرامِ مطيعُ
كفى حَزَنًا انّي ابيتُ وبيننا
من البيدِ ممتدُّ الفجاجِ وسيعُ
أعالجُ نفسًا قد تولّى بها الأسى
وطرفًا يجفُّ المُزْنُ وهْو هَموعُ[1]

ومن جميل قوله دعوته على داعي التفرق بالعمى:

الا قلْ لجيران الصَّفا ليتَ داعيَ التْـ
ـتَفرقِ اعمًى يومَ راحَ مناديا
لعمري لقد ودَّعتُ يومَ وداعكمْ
بشعبِ المُنقّى شُعبةً من فؤاديا[2]

ويبدو شوق المجرب اقوى وأشد، والدعاء بالسقيا يتكرر في كثير من قصائد الشوق، وابن الجوزي يبرر تشوقه لمكة، فيقول: (وصلني كتاب من بعض إخواني من

---

(١) معجم الادباء ٣/ ٩٦٠
(٢) معجم الأدباء ٣ / ٩٦٠

الحاج يتضمن الاستيحاش لي في طريق مكة، فهيج شوقي إلى تلك الأماكن، فكتبت إليه أبياتًا منها:

اتُراكمْ في النَّقا فالمُنْحَنى
يومَ سَلْعٍ تذكرونا ذِكْرَنا
انْقطَعْنا ووصلْتُمْ فاعلموا
واشكروا المنعمَ يا اهلَ مِنى
قد ربحتُمْ وخسرنا فَصِلوا
بفضولِ الربحِ مَنْ قد غُبِنا
يا سَقَى اللهُ الحِمى انتم بهِ
ورعى تلك الرُّبا والدِّمَنا
ما قطعتمْ واديًا إلاَّ وقد
جِئْتُهُ اسعى باقدامِ المُنى
إنْ سقتكمْ ديمةٌ هاطِلةٌ
فدموعي قد جَرتْ لي اعْيُنا
وانادي كلَّما لبَّيتُمُ
في فؤادي اسفًا وا حَزَنا
امِ وا شوقًا إلى ذاك الحِمَى
شوقَ محرومٍ وقد ذاقَ الجَنَى[1]

وعلى مدى الأعصر يظل شعر الحنين شعلة متوهجة لمكة بلدًا وقبلة، ومن شوق اهل البلد في القرن الحادي عشر ما ورد في شعرهم كثير، يقول الدكتور عائض الردادي: (وشعراء الحجاز في القرن الحادي عشر مرّت بهم تجربة الغربة عن الوطن والأهل، وظهر في شعرهم صدى الغربة والحنين)[2] ويذكر من هؤلاء الشعراء: إبراهيم الخياري، ومحمد كبريت، وابن معصوم وابنيه، وأحمد بن مسعود، وأبو الفضل محمد بن العقاد، وعلي بن القاسم المنلا، وعمار بن بركات، وأحمد الجوهري وعددًا ليس باليسير.

(١) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ١٢٧
(٢) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ٢٨٢-٢٨٣

ويلوم أحد الشعراء وهو محمد بن علان الصديقي هؤلاء الشعراء على ترك مكة، فيقول معاتبًا:

ولا عـــذرٌ لذي أمنٍ مـــقـــيمٍ
بمكةَ لو يكونُ بضـــيقِ عـــيشٍ
بتـــرحـــالٍ إلى بلدٍ ســـواها
لخـفضِ العـيشِ إلاّ محضَ طيشٍ[1]

وهذا الذي ينهى عنه الصديقي ويلوم الشعراء عليه، هو ما يحسّه علي بن معصوم الذي يصور لحظة فراق مكة بلحظة فراق الروح، وأن هذا الفراق يأتي بتصريف الأقدار، ولولا الحاجة الماسة لما فارقها، وفي ذلك يقول:

فـــارقتُ مكةَ والأقـــدارُ تُقـــحـــمني
ولي فـــؤادٌ بهـــا ثـــاوٍ مـــدى الزّمنِ
فـارقـتُـهـا لا رضًـا منّي وقـد شـهـدتْ
بذاكَ امـــلاكُ ذاكَ الحِـــجْـــرِ والرُكُنِ
فـــارقـــتـــهـــا وبودّي إذْ فـــرقتُ بهـــا
لو كـان قـد فـارقتْ روحي بهـا بدني[1]

ونقل لنا ابن الجوزي هذه الآهات المحترقة على لسان امرأة، يقول: (خرجت أم أيمن بنت علي امرأة علي الروذباري من مصر وقت خروج الحاج إلى الصحراء، والجمال تمر بها، وهي تبكي وتقول:

فـــقلتُ دعـــوني واتّبَـــاعي ركـــابكمْ
اكنْ طوعَ أيديكمْ كـمـا يفـعل العـبـدُ
ومـــا بال زعـــمي لا يهـــونُ عليـــهمُ
وقـــد علمـــوا أن ليسَ لي منهمُ بدُّ

(١) المرجع نفسه ٢٨٥

(٢) سلوة الغريب: مجلة المورد العراقية، المجلد الثامن، العدد الثاني، ص ١٦٢ سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

وتقول هذه حسرة من انقطع عن الوصول إلى البيت، فكيف تكون حسرة من انقطع عن رب البيت)[1].

ويمتلئ شعر العصر الحديث بالحنين، فشعراء مكة الذين غادروها لأمر ما كالأعمال العلمية أو الدبلوماسية أو لأي أمر هام، قد هاموا عشقًا بها، وشعر الشوق للمكان اشتد في الشعر الحديث، وكانت البواعث عديدة، ففترة الاستقلال، وغربة الشعراء عن أوطانهم طلبًا للرزق كما عند شعراء المهجر، أججت شعر حب الوطن في النفوس.

وهذا حسين فطاني الذي يبتعد عن بلده في مهمة دبلوماسية، يتشوق على البعد لمكة، ويحنّ إليها حنينًا هائمًا، فيقول:

يا قِبلةَ المجد في أعلى عواليها
ويا مُنى النّفس يا أغلى أمانيها
في ذكرياتِكِ نُعمى كلّما خطرتْ
أحسستُ نشوةَ أيامي تناديها
تلك الصّباباتُ في سنِّ الشّبابِ لها
مباهجٌ وهْي أشواقٌ نُسميها
تأثيرُها في حنايا النفس متصلٌ
تقاصرَ البعدُ أم طالتْ لياليها
نَسبُ الفؤادِ أحاسيسًا تلمُّ به
في مهبط الوحي والإيمان يُمليها
لكلِّ جارحةٍ معنًى تهيمُ بها
تستودعُ القلبَ أسرارًا تداريها

لماذا كل هذا الشوق والحنين ؟ إنّ كل التبريرات التي يقدمها الشاعر معقولة ومنطقية، فقد ولد بها هو وأجداده، ومن عزّت بلاده عز، ومكة هي قبلة المسلمين أينما كانوا، فهي معهم في حلهم وترحالهم، يصوبون وجوههم نحوها في كل صلاة، ومع كل

(١) مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن ١/ ١٢١

هذه التبريرات، فليس هناك مثل مكة، ولا كأهلها جيران الله، ونحن نقول: الحب والشوق للوطن لا يبرران، فكيف إذا كان هذا الوطن مكة ؟

وعــــزٌّ فـي الـنـاس من عـــزّت بـلادهمُ
بما أشـادوا لـهـا أو شـيّـدوا فـيـهـا
ولا كـــمـكّةَ في الأمـــجـــاد من وطنٍ
حـاشـا ولا مـثـلـهـا أهلٌ كـاهليـهـا
وَصِيّـةُ الـمـصطفى عـتّـابُ يحـفظهـا
للـجـيل صـدقًـا ولـلأجـيـال يرويهـا
اللهُ يخــتــارُ من يرضى لجــيــرتِهِ
أهلاً وجـيـرةُ رب الـبـيت تُرضِيـهـا
ومكةُ قِـبلةُ الإسـلامِ تَجْـمَـعُـهُمْ
عـقـود نورٍ أضـاءتْ بين ناديهـا
ولدتُ فـيـهـا وأجـدادي بـهـا نشـأوا
على هدى الله إجـلالاً لبـاريهـا
بكـل قـطرٍ بـه الإسـلام لـي نـسـبٌ
دُعـاةُ صـدق أقـامـوا في أقـاصـيـهـا
يَـرَوْنَ مـكـةَ فـي حِلٍّ ومُـرْتَـحَـلٍ
وفـي صـلاتـهـمُ لـلـه صلّـوهـا
وجـوهُهُمْ نحـو بيتِ اللهِ مـقـبلةٌ
وحـيـث كـانوا فـشطرَ البـيت ولُّوها[1]

والشاعر علي زين العابدين من أبنائها الذين ابتعدوا عنها، يدعوها لتجدد عمره الذي ضاع في الغربة، ولتضمد جراحه النازفة:

جـددي عُـمـري الذي ضـيّـعـتُـهُ
وانفُـثِي العـزمَ بنفـسي ذا مـضـاءِ

---

(١) هديل الحمام ٢ / ٤١٦

هدهديني فالنوى لوعني
لوعة غالت شموخي وإبائي
ضمدي جرحي الذي سال دمًا
وتنزى دافقًا بالكبرياءِ

وعندما يعود ويراها يهتف:

يا لبشراي وهذي فرحتي
فرحة شاعت باهداب رجائي
عودة النازح اضناه الجوى
وانثنى يرفل في بُردِ الرضاءِ
ويحَ هذا الدهرِ كم جرعني
كاسة المترعَ من ذوبِ الشقاءِ[1]

● **الشوق العكسي**

ومع شدة الشوق الذي أبداه الشعراء في شعرهم نحو مكة ومشاعرها، إلاّ أننا نجد بعض الشعراء هاجهم الشوق، وهزّهم الحنين إلى بلادهم بعد طول مكثهم في مكة، فكان ابتعادهم عن أوطانهم، وفراقهم لذويهم دافعًا لأن يشدو بقصائد الشوق العكسي، ولعلّ نمير بن كهيل من أوائل من حنوا إلى ديارهم وهم في مكة، يقول في حنينه إلى نجد على لسان جمله:

يحنُّ قعودي ذو الحياطِ صبابةً
بمكةَ وَهْنًا من تذكُّرِه نجْدا
تذكَّرَ نجدًا موْهنًا بعدما انطوتْ
ثميلتُهُ وازدادَ عن إلفهِ بُعدا
تذكَّرَ نجدًا حاديًا بعد قادمٍ
ولا يلبثُ الشوقانِ ان يَصْدَعا الكبِدا[2]

---

(١) مكتي قبلتي ٢٤٠

(٢) شعر قبيلة أسد ٥٩٥

وهذه ناقة ذي الرمة تتشوق للعودة من منى بعد أن رأت الإبل تستعد للرحيل والعودة إلى أوطانها، فيقول واصفًا شوقه وشوقها:

أرى ناقتي عندَ المُحَصَّب شاقَها
رواحُ اليماني والهَديلُ المُرَجَّعُ
فقلتُ لها قِرِّي فإنَّ ركابَنا
وركبانَها من حيثُ تَهْوينَ نُزَّعُ[1]

ولعل شوق الشريف الرضي إلى العراق يمثل هذا الشوق العكسي، فكم أبدى تشوقه إلى مكة، ومثل لنا كل صور الحنين كترك قلبه هناك، وشدة لهفته إلى ديارها، ومع ذلك فهو يبدي عن شوق آخر معاكس، كما في قوله:

وبالعراق وَطَري
يا بُعْدَ ما لاحَ لنا
اشْتاقُهُمْ وَمُرْبَخٌ
إلى زَرودٍ بَيْننا
يا ويحَ لي من شَجَني
أما مَلَلْتُ الشَّجَنا[2]

ويتشوق أبو محمد اليزيدي إلى الأحبة بعد منصرفه من مكة قائلاً:

يا فرحتا إذْ صرفنا أوْجُهَ الإبلِ
نحوَ الأحبَّةِ بالإزعاجِ والعجلِ
نحثُّهنَّ وما يُرْمينَ من دأبٍ
لكنَّ للشَّوقِ حثًّا ليسَ للإبلِ[3]

كما رأينا عند البرعي من شدة الشوق إلى مكة، فإنّه بعد طول غياب يحنُّ إلى ربعه ودياره، فيقول:

---

(١) ديوان ذي الرمة ٧٢٦

(٢) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٤٨٢

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز٢٧٤

طيفُ الخيالِ من الثّنيّابتين سرى
إلى الحجاز فوافى مَضْجعي سحرا

سَرَى على بعد دارينا يَنِمُّ بهِ
روْحُ النسيمِ فيُهدي مَنْدَلاً عَطِرا

فكمْ وكم جازَ من سهلٍ ومن جبلٍ
ومن وعورٍ إلى أمِّ القُرى وقُرى

أفديه من زائرٍ ما زارني أبدًا
وذاكرٍ ما نَسي ودّي ولا ذكرا

وحاضرٍ نُصْبَ عيني وهْو مبتعدٌ
عنّي فما غابَ عن عيني ولا حَضرا

ليت الأراكَ التي مرَّ النسيم بها
تدري بشكواي بل ليت النَّسيمَ درى

ما صَبْرُ صَبٍّ لهُ في كلّ جارحةٍ
جرحٌ أعادَ عليه صبرُهُ صَبَرا

وطالما هاجتِ الشّكوى له شَجنًا
فذكّرتهُ زمانًا مرَّ فادّكرا

من لي بطفلين من خلفي كأنهما
زُغْبُ القطا إذْ عَدمْنَ الماءَ والشَّجَرا

فارقتُ ريحانتيْ قلبي وما رَضِيَتْ
نفسي الفراقَ ولا اخترتُ النّوى بَطَرا

ولم يكونا حبيبينِ افْتَقدتُهما
في غربتي بل فقدتُ السّمعَ والبَصَرا

هما وديعةُ من يرعى وَدائعَهُ
ومن يَرى وهْو داني القرب ليس يُرَى[1]

(١) شرح ديوان البرعي ١٠٧– ١٠٨

ولما قفل ابن جبير من رحلة الحج الأولى عائدًا إلى الأندلس ولاحت له من على ظهر البحر جبال دانية، قال متشوقًا:

لي نحو أرض المُنى من شَرْقِ أندَلُسِ
شوقٌ يؤلِّفُ بين الماءِ والقبسِ
لاحتْ لنا من ذراها الشُمُّ شاهقةٌ
تُدني لزُهر الدّراري كفَّ مُلتَمسِ
وقد اغذَّتْ بنا في اليَمِّ جاريةٌ
سوداءُ لا تستطيعُ الجريَ في يَبَسِ
تُنازعُ الريحُ منها صَعْبَ مِقْوَدِها
فترتمي بعنانٍ مُسمحٍ سلسِ
لولا حذاريَ أن أُذكي لها لهبًا
زجّيتُها برياح الشوق من نفَسي
يا ليت شعريَ والآمالُ مُعْوِزَةٌ
وربما أمكنت يومًا لمُخْتلسِ
هل يَدْنُوَنْ مزارُ الشّوقِ إنَّ بهِ
ما شئتَ من نُهَزٍ للأنسِ أو خَلَسِ
وهل تعودنْ أيّامٌ رشفتُ بها
سُلافةَ العيش أحلى من جَنَى اللّعَسِ(١)

وهذا شاعر عراقي هو فخر بن سيف يقول وهو بمكة متشوقًا إلى بلده العراق:

حملتُ من الشّوق عبئًا ثقيلا
فأورثَ جسمي المُعنَّى نُحولا
وصيَّرني كَلِفًا بالغرا
مِ أندبُ ربعًا وأبكي طُلولا
نشدتُكُما اللهَ يا صاحبيْ
يَ إنْ جُزتُما بِلِوا الطَّلحِ ميلا

---

(١) الذيل والتكملة ٥ / ١ / ٦٠٥

نُســـــائلُ عن حــــيٍّــــهم بالـعـــــرا

قِ هـلْ قُــــــوِّضـتْ امْ ثَـراهُ حُـلـولا[1]

وهناك حنين مختلف، وشوق من نوع آخر، إنه شوق الحكم والتملك، حكم بلاد الحرمين، وهذا الملك المنصور بن أبي عامر ملك الأندلس يمنّي نفسه ويتشوق لحكم مصر والحجاز معًا، فيقول:

منعَ العينَ أن تذوقَ المنامــــا

حُبُّهـا أنْ ترى الصَّفـا والمَقـامـا

لـي ديونٌ بالشـــــرق عندَ أُنـاسٍ

قـد أحلّوا بالمَشْعَرَيْنِ الحَرامـا

إنْ قَضـــوها نالوا الأمـــاني وإلاَّ

جـعلوا دونهـا رقـابًا وهامــا

عن قــريبٍ ترى خـيـولَ هشـام

يبلغُ النيلَ خطوُها والشـــامــا[2]

● مثيرات الحنين ومنبهات الشوق:

تعددت مثيرات الحنين، ومنبهات الشوق، فكان البرق والخيال وركب الحجاج المسافرين ووصاياهم من أشد المثيرات التي تدفع بالشعراء لاستنهاض هممهم للرحيل إلى الأماكن المقدسة، فهذا البرق الحجازي يستثير لمعانه أشواق العاشقين، ويثير أوار حبهم وحنينهم، وانظر ما فعله البرق بابن دقيق العيد، لقد قدح في قلبه شرارة الشوق، فهام بها عشقًا وطربًا، فقال:

يـهــــيمُ قلبي طربًا عندمـــــا

اســتلمحُ البـرقَ الحِجَــازيّا

يا هل أُقَــضّى حــاجــتي من مِنًى

وأنْحَـــرُ البُـــزْلَ المَـهـــارِيّا[3]

---

(١) غاية المرام ١ / ٥٣٠

(٢) مطمح الأنفس ٣٩٠

(٣) ديوان ابن دقيق العيد ١٥٤

ويتمنى الشاعر يحيى النشو بأن يلوح له سفح منًى ويخفق البرق فوق جباله:

من لي بسفح منًى يلوحُ لناظري
والبرقُ خفّاقٌ على أعلامهِ
قلْ للمقيم على أُثَيْلاتِ النَّقا
لا تقتلِ المشتاق قبل حِمَامهِ[1]

● خيال الطيف

استخدم الشعراء كذلك في التعبير عن أشواقهم طيف الخيال الذي يحمل في جعبته تحقيق الأماني، فالشاعر عبدالرحيم البرعي يستدعي خيالها ليتحدث عن أشواقه فيقول:

ما كان حُجّةُ من اقام بمكةٍ
انْ لا يُحدِّثني حديثَ سعادِ
بَعَثتْ إليَّ من الحجاز خيالَهَا
شتَّانَ بين بلادها وبلادي[2]

ويرى طيفها على البعد من النيابتين تلك القرية البعيدة عن مكة في جبال اليمن، فيقول:

طيفُ الخيالِ من النَّيابتينِ سرى
إلى الحجازِ فوافى مضجعي سَحَرا
سَرَى على بُعدِ دارينا ينِمُّ بهِ
روحُ النَّسيمِ فيهدي مندلاً عطرا
افديهِ من زائرٍ ما زارني ابدًا
وذاكرٍ ما نسي ودّي ولا ذكرا[3]

وبرهان الدين القيراطي يستقبل طيفها بعد أن طال ترقبه له، وسهره من أجله، كما يقول:

ارسلتْ طيفَها إلى الصبِّ لكنْ
بعد ان اسْهَرَتْهُ في الظلماءِ

---

(١) الإشراف في تاريخ الأشراف ١٠٧
(٢) شرح ديوان البرعي ١٣٢
(٣) شرح ديوان البرعي ١٠٧

لا تَمُنّي بالطيفِ إلاَّ على مَنْ
يتهنّا بلذةِ الإغفاءِ[1]

● الوصايا

وهذا شكل آخر من أشكال الاستدعاء، استدعاء الحنين والشوق، إذ يغتنم الشاعر فرصة وداعه حجاج بيت الله، فيقف في وصيته لهم على الأماكن، وكأنه يراها رؤية العين، فيوصيهم بكل خير، كما في هذه الوصية لابن دقيق العيد، حيث يقول من قصيدة طويلة في مدح سيد الورى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

يا سائرًا نحو الحجاز مُشَمِّرًا
اجهدْ فديتُكَ في المسير وفي السُّرى
وتدرَّعِ الصَّبرَ الجميل ولا تكنْ
في مطلب المجد الأثيلِ مُقَصِّرا
اقصدْ إلى حيثُ المكارمُ والنَّدى
يلقاكَ وجهُهُما مُضِيئًا مُقْمِرا

ثمَّ يأمر الحاج بالوقوف في تلك المنازل، مُقَبلاً ثراها الذي مشى عليه سيد البشر عليه السلام:

قفْ بالمنازل والمناهل من لَدُنْ
وادي قُباءَ إلى حِمَى أمِّ القُرى
وتوخَّ آثارَ النبيِّ فضعْ بها
مُتَشرِّفًا خديكَ في عَفرِ الثَّرى
وإذا رأيتَ مَهابطَ الوحي التي
نَشَرتْ على الآفاقِ نورًا نورًا
فاعلمْ بأنَّكَ ما رأيتَ شبيهَهَا
مُذْ كنتَ في ماضي الزمان ولا ترى[2]

(1) المجموعة النبهانية ١ / ١٢٥

(2) ابن دقيق العيد حياته وديوانه ١٣٩-١٤٠

ويغبط الشاعر عبدالعزيز الفشتالي الركب المرتحل إلى مكة، فيودعهم أحرّ ما عنده من أشواق، إنه الشوق الذي يصبح عقيدة ودينا، يقول:

لكَ اللهُ من ركبٍ يرى الأرض خطوةً
إذا زمّها بُدْنًا نواعمَ ابدانِ
أرِحْها مطايا قد تَمَشّى بها الهوى
تَمَشّي الحُمَيّا في مَفَاصِلِ ابدانِ
ويَمِّمْ بها الوادي المقدّسَ بالحِمَى
به الماءُ صدًا والكلا نبتُ سَعْدانِ
احنُّ إلى تلك المعاهدِ إنّها
معاهدُ راحاتي وروْحي ورَيْحاني
واهفو مع الأشواق للوطن الذي
به صحَّ لي أنسي الهَنِيُّ وسُلواني
واصبو إلى اعلام مكةَ شائقًا
إذا لاح برقٌ من شمامَ وثهلان
أُهيلَ الحِمَى دَيْني على الدهر زَوْرَةٌ
احثُّ بها شوقًا لكم عزميَ الواني
متى يشتفي جفني القريح بنظرةٍ
يُزَجُّ بها في نوركم عينُ إنساني
سقى عَهْدَهمْ بالخَيْفِ عهدٌ تمدُّهُ
سوافحُ دمعٍ من شؤونيَ هتّان
وحيّا ربوعًا بين مروةَ والصَّفا
تحيّةَ مشتاقٍ لها الدهرَ حيرانِ
ربوعًا بها تتلو الملائكةُ العُلا
افانينَ وحيٍ بين ذِكْرٍ وقرآن
واوّلُ ارضٍ باكرتْ عَرَصاتِها
وطرّزتِ البطحا سحائبُ إيمان

وعــــرّسَ فـــيــــهـــا للنبــوّةِ مـــوكبٌ
هو البــحـــرُ طامٍ فــوق هُضْبٍ وغــيطانِ
وأدّى بــهـــــا الـروحُ الأمـينُ رســـــالـةً
افــادت بهــا البــشـرى مــدائحَ عنوانِ[1]

ووصية المسافرين للتعريج على تلك الأماكن هي نوع من الاستشفاء باستدعاء الذكرى، كما في هذه الوصية لابن الفارض للركب المتحمل إلى تلك المشاعر:

يـا راكـبَ الـوجـنـاءِ وُقّـــــيـتَ الـرّدى
إنْ جُــبْـتَ حَـــزْنًا او طويتَ بِطَاحـــا
وسلكتَ نـعـــــمـــانَ الأراكِ فَـــعُـجْ إلـى
وادٍ هنـاكَ عـــهـــدتُهُ فَـــيَّـــاحـــا [2]

ومع هذه الوصايا، يحمّل الموصي الركبَ المغادرين إلى مكة رسائل الشوق، وتحيات المشوق الظامئ للنهل، كهذه الرسالة التي يبعث بها المهذب بن الزبير مع الحجاج، وفيها يتمنى الفوز باللقاء بحروف تسيل رقة ولطافة، إنها الرقة التي تذوب حنينًا وشوقًا، والشوق الذي يذوب رقة وعذوبة، يقول:

يا ســـاكـني البلد الحــــرام وإنّمــــا
في الصّــدر مَعْ شـــحط المـــزار سكنتمُ
يا ليـــتني في النازلينَ عَـــشِـيَّـــةً
بمنىً وقـــد جـــمعَ الرّفــاقَ المـــوسمُ
فــــافـــوزَ إن غـــفل الرقـــيـبُ بنظرةٍ
منكمْ إذا لبّى الحـــجـيـجُ واحْــرَمُــوا
إنّـي لأذكُـــــركم إذا مـــــا اشـــرقتْ
شـــمسُ الضّــحى من نحـــوكمْ فـــأُسلِّمُ
لا تبـــعــثـوا لي في النّســيم تحـيَّـةً
إنّي أغــــارُ من النّـســـيم عليكمُ[3]

---

(١) النبوغ المغربي في الأدب العربي ٨٣٩
(٢) شرح ديوان ابن الفارض ٣٧٢
(٣) شعر المهذب ٢١٦

ويستخدم الشعراء في الحنين طرائق وأساليب ودلالات، من ذلك: الدعاء والوقوف على الأطلال، والتذكر والاستدعاء، والشوق والأرق، والمناجاة والحوار، والاسترواح بشم النسائم والحزن والتأوه على انقضاء تلك الأيام بهاتيك الربوع، وهذا من أشكال استرجاع لذة اللقاء، واستبقاء ذكرى البقاء، كما نجد ذلك عند ابن الفارض في قوله يتنسّم نسيمها:

أرواحَ نَعْمَانَ هلاّ نسمةً سَحَرًا

وماءَ وجرةَ هلاّ نهلةً بفمِ[1]

وكقوله متحسرًا على رحيله عن تلك الأماكن التي مضت كالحلم:

ورعى ليالي الخيفِ ما كانت سوى

حُلْمٍ مضى معْ يقظةِ الإغفاءِ

واهًا على ذاك الزمانِ وما حَوى

طيبُ المكان بغفلةِ الرقباءِ[2]

والاستفهام يأتي لشدة التعبير عن الشوق والتلذذ بذكر الأماكن والأوقات، وابن الفارض يستخدم أدوات الاستفهام كثيرًا، ويكثر من إيراد الأداة هل، التي تتبع ركب الحجيج منذ وفودهم في طواف القدوم وحتى طواف الإفاضة والوداع واستفهاميتها تثير التشوق لما يفعله هؤلاء الحجاج، وفيها لون من الاستعادة النفسية لما كان يفعله ابن الفارض في حجه، فهو إذًا يحاول كلون من الوان المتعة الروحية أن يستروح بإعادة شريط الذكريات من خلال هذا الكم من السؤال عن الكيف والحال، يقول:

وهل نزلَ الركبُ العراقي مُعرِّفًا

وهل شُرّعتْ نحو الخيامِ شرائعُ

وهل رقصتْ بالمازمَيْنِ قلائصٌ

وهل للقبابِ البيضِ فيها تدافُعُ

وهل لي بجمعِ الشملِ في جمعِ مسعدٌ

وهل لليالي الخيفِ بالعُمرِ بائعُ

---

(1) شرح ديوان ابن الفارض ٢٦٥

(2) المصدر نفسه ٢٦٥

وهل سَلَّمَتْ سلمى على الحَجَرِ الذي
به العهدُ والتفَّتْ عليهِ الأصابعُ
وهل رَضَعتْ من ثدي زمزمَ رضعَةً
فلا حُرمتْ يومًا عليها المراضعُ
لعلَّ أُصَيْحابي بمكةَ يُبرِدوا
بذكرِ سُليمى ما تُجِنُّ الأضَالِعُ(١)

والتذكار يؤجِّج الحنين، فإذا أتى موسم الحج، تذكر النازحون بكل الشوق تلك الأيام الرائعة الجميلة، التي يقضي فيها الحاج أعظم المناسك، فهذا الشاعر أحمد الجوهري، يتذكر في الميقات الزماني وهو في أرض الهند موقف الحجيج، فيقول:

تذكَّرتُ إذْ جاءَ الحجيجُ بمكةٍ
ونحنُ وقوفٌ ننظرُ الركبَ مُحْرِما
فصرتُ بأرضِ الهندِ في كلِّ موسمٍ
يُجددُ تذكاري لقلبيَ مَأْتَما(٢)

وكلما تذكَّرَ الشعراءُ أيَّامَ الحج فاضت عيونهم بالدموع شوقًا لتلك الأماكن، كما يقول محمد يحيى بن معصوم:

تذكَّرتُ أيَّامَ الحجيجِ فاسبلتْ
جفوني دماءً واستجدُ بيَ الوجدُ
وأيَّامنا بالمشعريْنِ التي مضتْ
وبالخيفِ إذْ حادي الرِّكابِ بنا يحدو(٣)

سادساً: الرثاء

وما قصدناه في ما سبق من موضوعات هو قصدنا هنا، فالرثاء المتعلق بمكة وصفًا وتصويرًا وبقاعًا هو ما نصرف همة البحث إليه، ومثال ذلك قول عبدالله بن ثور، أو الحارث بن أمية في رثاء هشام المخزومي، وقد اقشعر بطن مكة لما خلت الأرض بموته:

---

(١) المصدر نفسه ٣٨٢
(٢) نفحة الريحانة ٤ / ١٦٥
(٣) سلافة العصر / ٣٦

واصبح بطنُ مكةَ مُقْشَعِرّاً
كأنَّ الأرضَ ليس بها هشامُ[1]

وتقول ضباعة بنت عامر في رثائه مشبهة من يأوي إليه كمن يأوي إلى الحرم:

وإنك لو وَألتَ إلى هشامٍ
امنتَ وكنتَ في حرمٍ مقيمِ
كريم الخِيمِ خفَّافٌ حشاه
ثمالٌ لليتيمة واليتيم
فاصبح ثاويًا بقرار رمْسٍ
كذاك الدهرُ يَفْجعُ بالكريم[2]

ويرثي أمية بن أبي الصلت من قتلوا من قريش من المشركين في بدر، فيقول:

الا بكيتَ على الكرا
مِ بني الكرام أولِي الممادحْ
كَبُكا الحَمَامِ على فرو
عِ الأيْكِ في الغُصُنِ الجَوانحْ
الا تَرَوْنَ كما أرى
ولقد ابانَ لكلِّ لامحْ
انْ قد تغيّرَ بطنُ مكْ
كَةَ فهْي مُوحِشَةُ الأباطحْ[3]

ويرثي كُثَيِّر بن المطلب بن أبي وداعة، من دفنوا في جبل الحبشي بأسفل مكة، يقول في رثائهم:

كم بذاك الحَجُونِ من حيٍّ صدقٍ
من كُهولٍ اعفَّةٍ وشبابِ

---

(١) بدائع البدائه ٢٦
(٢) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ١٢٤
(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ٣٤٥ – ٣٤٧

سكنوا الجـزعَ جـزعَ بيت أبي مـو
سى إلى النخل من صـفيّ السّبـابِ
أهلَ دارٍ تبـايعـوا للمنايا
مـا على الدهر بعـدهمْ من عتـابِ
فـارقـوني وقـد علمتُ يقـينًا
مـا لمن ذاقَ مـيـتـةً من إيابِ(١)

ويرثي ابنُ مقبل الخليفةَ الثالث عثمان بن عفان، فيقول:

عـفـا بَطِحَـانٌ من قـريشٍ فـيثـربُ
فـمُلقى الرِّحـالِ مِنْ مِنىً فـالمُـحـصَّبُ
فَـعُـسْـفـانُ إلاّ أنّ كلَّ ثنيَّـةٍ
بعُـسْـفـانَ يأويهـا مع الليلِ مِـقْنَبُ
فنِعفُ وداعٍ فـالصِّـفـاحُ فـمكةُ
فليسَ بهـا إلاّ دمـاءٌ ومَـحْـرَبُ(٢)

وترثي أسماء بنت أبي بكر الصديق ابنها عبدالله بن الزبير بعد مقتله، فتقول:

ليس للهِ مَـحْـرمٌ بعْـد قـومٍ
قُـتِلوا بين زمـزمٍ والـمـقـامِ
قَـتَلتْـهمْ جُـفَـاةُ عكٍّ ولَـخْمٍ
وصـداءٍ وحِـمْـيَـرٍ وجُـذامِ(٣)

ويبكي دعبل تلك الرسوم الدارسات في رثائه لآل البيت، فعندما يراها تفك عرى صبره، وتتهيج صبابته، فيبكي منازل الوحي التي خلت من سكانها، فيقول:

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٢١١

(٢) ديوان ابن مقبل ١١ – ١٢ وعسفان: قرية بين مكة والمدينة. الثنية: الطريق في الجبل. مقنب: جماعة الخيل والفرسان ما بين الثلاثين إلى الأربعين. النعف: ما انحدر من الجبل وارتفع من مجرى السيل ونعف وداع: موضع بنعمان قرب مكة. والصفاح: موضع قريب من نعف وداع بين حنين وأنصاب الحرم. محرب: أي صارت بها حروب.

(٣) هديل الحمام١ / ٢٧٩

بكيتُ لرسم الدار من عرفاتِ
واذريتُ دمعَ العين في الوجَناتِ
وفكّ عُرى صبري وهاجتْ صبابتي
رسومُ ديارٍ قد عفتْ وعراتِ
مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وحي مُقْفِرُ العَرَصَاتِ
لآل رسولِ الله بالخَيْفِ من مِنًى
وبالركن والتعريفِ والجَمَراتِ
فكم حسراتٍ هاجها بمحسَّرٍ
وقوفيَ يومَ الجمعِ من عرفاتِ[1]

وقال قيس بن عيزارة يرثي أخاه الذي مات بمكة:

فَسَقَى الغَوادي بطنَ مكةَ كلَّها
ورستْ بهِ كلُّ النُّهارِ تجودُ
تروي الكرامَ بهِ وتروي صاحبي
واخي جديرٌ بالكرامِ سعيدُ[2]

وبالطريقة ذاتها يرثي أبو صخر الهذلي عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد:

عفا سَرِفُ مِنْ جُمْلَ فالمُرتمى قفرُ
فشعبُ فادبارُ الثَّنيّاتِ فالغَمرُ
فَخَيْفُ مِنىً اقوى خِلافَ قطينهِ
فمكةُ وحشٌ منْ جميلةَ فالحِجْرُ
تبدَّتْ باجيادٍ فقلتُ لصاحبي
الشمسُ اضحتْ بعدَ غيمٍ امِ البدرُ[3]

(١) شعر دعبل الخزاعي ٢٩٣
(٢) شرح شعر الهذليين ٢ / ٥٩٨
(٣) شرح شعر الهذليين ٢ / ٩٥٠

وهي بداية غزلية لقصيدة رثائية، وما يهمنا هنا هو ما ورد من ذكر مكة وأماكنها.

وفي الرثاء نجد التأسي بالراحلين ممن سكنوا مكة والحرم، كقول ابن المقرب:

وأينَ آلُ مُـضَـاضٍ معْ عـقَـائلهـا
من جُرْهمٍ ساكني بُحْبُوحَةِ الحرمِ[1]

ونجد الشعراء الراثين يتفقون على جعل المشاعر كلها تحزن لفقد الفقيد، وتغتمّ لفراقه، كما في رثاء أحمد بن العلاء الحلبي لأمير مكة محمد بن بركات أبو نمي الثاني:

فُـجـعتْ به الدنيـا فلو يُفـدى بهـا
لَفَـدَتْهُ والأرواحُ بالأجسَـامِ

وَسَهَتْ لِمَصْرعِهِ الأنامُ تحيُّرًا
فكأنهـا سَكْرى بغَيـرِ مُـدامِ

وغدا الصَّفَا مُتَكدِّرًا وجفونُهُ
مُذْ غـاب لم تُكحل بميل مَنامِ

وعيـونُ زمزمَ أُثرحتْ ودموعُهَا
أسفًا عليك على الدوام دوامي

ومقـامُ إبراهيمَ أمسى لابسًا
ثوبَ الحِدادِ أسىً وثوبَ سَقَامِ

ولركنِ بيت اللهِ وحشةُ ذاكرِ
أبدًا لقُبلة ثغرك البسَّامِ

ولِطَوْفِكَ البيت الحرام مُكفَنًا
ذكرى بِطَوْفِكَ حالة الإحرامِ

لو خِلتَهُ في نَعْشهِ لعجبتَ من
أسدٍ على فرسٍ بغيرِ لِجَامِ

قد سار من باب السَّلام ضحىً إلى
دار السلام إلى العلا بِسَلامِ[2]

(١) شرح ديوان ابن المقرب ٢ / ٨٤١

(٢) هديل الحمام ١ / ١٨٤ – ١٨٥

والقسطلاني المكي يرثي قاضي مكة نجم الدين الطبري، ويرى أنّ البيت قد استوحشْ لموت الطبري هذا:

مات الحياءُ ومات الجودُ والكرمُ
والعِلمُ والحِلْمُ والأحكامُ والحَكَمُ
والفضلُ مات لموتِ النجم قاطبةً
واستوحشَ البيتُ والأركانُ والحَرَمُ[1]

وتدهى أم القرى بمصيبة موت الشريف محمد بن بركات كما يقول نور الدين الحجازي في رثائه:

رزءٌ أنال المسلمين خبالا
وَوَهَى به الإسلامُ حتى مَالا
ومصيبةٌ رُمِيَتْ بها أمُّ القُرى
أهدتْ إلى أرضِ الحجازِ نَكَالا[2]

وهذا عمر بن فيصل آل زيد يرثي الشريف مسعودًا الذي توفي في موسم الحج فيقول:

فاض الحجيجُ من المَشَاعر بعدما
أدّوا المناسكَ بالتمام وكبَّروا
جاءت جحافلُهمْ لأشْعُب مكةٍ
فوجٌ يئمُّ بها وفوجٌ ينفرُ
في ذلك اليومِ العظيمِ فقدتُ مَنْ
قلبي عليه من الأسى يتفطَّرُ
وَعَزايَ في أنَّ الحجيجَ جميعَهمْ
حضروا الصلاةَ وبالمصاب تأثّروا
ودعوا الإلَه على اختلافِ لُغَاتِهم
فَلعلَّهُ أن يستجيبَ ويغفرُ[3]

(١) العقد الثمين ٤ / ١٨٢
(٢) الإشراف في تاريخ الأشراف ٢٦٢
(٣) هديل الحمام ٣/ ٩٥٠

سابعاً: الهجاء

ومن الهجاء هجاء خداش بن زهير لابن جدعان، وفيه يتهمه بأنّه لا يتورع عن سرقة ثياب الكعبة:

وانبئتُ ذا الضّرعِ ابن جدعانَ سبَّني
وإني بذي الضّرع ابن جدعانَ عالمُ

اغرّكَ انْ كانت لبَطنِكَ عُكْنَةٌ
وانّك مكفيٌّ بمكةَ طاعمُ

وترضى بان يهدي لك العَفْلُ مُصلَحًا
وتحنقُ انْ تُجنى عليك العظائمُ

ابى لكم انّ النفوسَ اذلةٌ
وانّ القِرَى عن واجبِ الضّيفِ عاتمُ

وانّ الحلومَ لا حلومٌ، وانتمُ
من الجهل طيرٌ تحتها الماءُ دائمُ

ولولا رجالٌ من عليٍّ اعزةٌ
سرقتمْ ثيابَ البيتِ والبيتُ قائمُ(١)

ويهجو حسان بن ثابت أبا سفيان، وقال يخاطبه في شأن أبي زهير، وكان الوليد بن المغيرة قتله، وكان أبو سفيان صهره، فأراد حقن الدماء، وأدّى عقله، ولم يطلب بدمه، فقال:

غدا اهلُ ضَوْجَيْ ذي المجاز كليهما
وجار ابن حرب بالمغمّس ما يغدو

ولم يمنع العيرُ الضروطُ ذمارهُ
وما منعتْ مَخْزاةَ والدها هندُ

كساكَ هشامُ بنُ الوليد ثيابَهُ
فابلِ واخلِفْ مثلَها جُددًا بعدُ(٢)

---

(١) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ١٨١ والضرع: الجبان. والعكنة: الأطواء في البطن من السِّمن. العفل: بفتح العين وسكون الفاء: شحم خصيتي الكبش وما حوله. عاتم: متأخر. بنو علي: قال ابن قتيبة هم بنو كنانة والأبيات في الشعر والشعراء ٦٥٠

(٢) ديوان حسان بن ثابت ١٤١

ويهجو عبدالله بن جحش كفار قريش وصدهم عن سبيل الله، ويرد عليهم حين قالت قريش: قد أحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام:

تَعُدّونَ قتلاً في الحرام عظيمةً
واعظمَ منه لو يرى الرُشْدَ راشِدُ
صُدودكُمُ عمّا يقول محمدٌ
وكفرٌ به والله راءٍ وشاهدُ
وإخراجُكم من مسجدِ اللهِ اهلَهُ
لئلا يُرى لله في البيت ساجدُ
فإنّا وإنْ عَيَّرتُموهُ بقتْلِهِ
وارجفَ بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سَقَينا من ابن الحضرميِّ رماحَنَا
بنخلةَ لمّا اوقدَ الحربَ واقدُ[1]

وتهجو زجلة بنت منظور الحجاج الذي جاء يخطبها بعد قتل زوجها عبدالله بن الزبير، فتقول:

ابعدَ عائذِ بيت اللهِ تَخْطُبُني
جَهْلاً جهلتَ وغبُّ الجهلِ مَذْمُومُ[2]

ويهجو الأحوص ابن حزم والي سليمان بن عبدالملك، فيقول ساخرًا:

اقول وابصرتُ ابنَ حزم ابن فَرْتَنى
وقوفًا له بالمازمين القبائلُ
تُرى فَرْتَنى كانت بما بلغ ابنُها
مُصَدِّقةً لو قال ذلك قائلُ[3]

ويحاول أن يوغر صدر الخليفة سليمان على واليه ابن حزم، فيقول:

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٦٠٥

(٢) العقد الثمين ٥ / ١٥٦

(٣) شعر الأحوص ٦٥ والمازمان جبلا مكة، وقيل اسم موضع بين المشعر الحرام وعرفة

سليمانُ إذ ولاّكَ ربُّكَ حُكْمَنَا

وسلطانَنَا فاحكمْ إذا قلتَ واعدِلِ

يؤمُّ حجيجَ المسلمينَ ابنُ فَرْتَنَى

فهبْ ذاك حجّاً ليس بالمتقبَّلِ(1)

وقال فضالة بن شريك يهجو عبدالله بن الزبير لعدم إعطائه ناقة، ويدعو غلمانه للخروج من مكة:

اقول لغِلْمتي شدُّوا ركابي

أُجاوزُ بطنَ مكةَ في سوادِ

فما لي حينَ اقطَعُ ذاتَ عَرْقٍ

إلى ابن الكاهلية من معادِ

أرى الحاجاتِ عند أبي خبيبٍ

نُكدنَ ولا اميّةَ بالبلاد

شكوتُ إليه ان نَقَبتْ قلوصي

فردَّ جوابَ مشدود الصِّفاد

يضنُّ بناقةٍ ويرومُ مُلْكًا

محالٌ ذلكم غيرُ السداد(2)

وقال عبيد الله بن الحر يهجو مصعبًا، ويتهدده متوعدًا بأنه إن لم يبك كما أبكاهم فلا طاف ولا سعى، وهذا من القسم على تأكيد الفعل، يقول:

أيرجو ابنُ الزبير ليومِ نصري

بعاقبةٍ ولم انصُرْ حُسيْنا

فإنْ لم تبكِ ملحمةٌ وقتْلى

كما قتَّلْتنا وكما بكينا

(1) شعر الأحوص الانصاري ١٧٨

(2) شعر قبيلة أسد ٤٣٠ – ٤٣٢ وذات عرق: الحد بين نجد وتهامة. نقبت: حفت أخفافها من كثرة السير. القلوص: الناقة الطويلة القوائم. الصفاد: حبل يوثق به.

فـــــلا طـفـنـا بمكـةَ فـي حـــــجـــــيـجٍ
ولا زُرنـا الـمــقــامَ ولا سَـعَـيْـنـا[1]

ويهجو الحزين الكناني عمرو بن عمرو بن الزبير بن العوام لأنه مدحه فلم يعطه شيئًا فقال:

حلفتُ ومــا صـــبـــرتُ على يمينٍ
ولـو أُدعـى إلـى ايمـانِ صـــبـــرِ
بربِّ الراقـــصـــاتِ بشُـــعْـثٍ قـــومٍ
يُوافـونَ الجـمـارَ بصُـبـحِ عـشـرِ
لـو انَّ اللـؤمَ كـــان مـع الـثـــريَّـا
لكانَ حليـفُــهُ عـمـرَو بنَ عـمـرِو
ولـو انـي عــرفـتُ بـانَّ عـمْـرًا
حليفُ اللؤمِ مـا ضـيَّـعتُ شِـعْـري[2]

ويحرض ابن عنين العزيز صاحب اليمن على أشراف مكة وسبب ذلك أنّ ابن عنين توجه إلى مكة ومعه مال وأقمشة، فخرج عليه بعض بني داود، فأخذوا ما كان معه، وسلبوه، وجرحوه، فكتب إلى الملك العزيز صاحب اليمن،..وحرضه على الأشراف الذين فعلوا به ما فعلوا:

وإنْ أردتَ جـهـادًا رُدَّ سـيـفكَ في
قـومٍ اضـاعـوا فـروضَ اللهِ والسُّنَنا
طهِّـرْ بسـيـفكَ بيتَ اللهِ من دنسٍ
ومـا احـاطَ بهِ من خِـسَّـةٍ وخَنا[3]

وقال صدقة بن الحجاج يهجو وفدًا قدم للحج، وأنهم لولا الفائدة التي تعود عليهم من التجارة ما قدموا مكة:

---

(١) العفو والاعتذار ٢ / ٤٤١- ٤٤٢

(٢) شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي ٢٩٨

(٣) ديوان ابن عنين ١٠٢ وانظر كتاب عمدة الطالب في انساب ابي طالب لجمال الدين احمد بن علي الحسني ص ١١٢ .

لا يطمعُ السائلُ في مالِهم
قطُّ ولا رقَّ لهم قلبُ
لولا تجاراتُهمُ ما اتى
مكةَ حُجَّاجُا لهم رَكْبُ[1]

وقال غيره:

يحجّونَ بالمال الذي يجمعونهُ
حرامًا إلى البيت العتيقِ المحرَّمِ
ويزعمُ كلٌّ منهمُ انَّ وزرَهُ
يُحَطُّ ولكنْ فوقَهُ في جهنَّم[2]

ومن لطيف العتاب واللوم ما أنشده عمرو بن حبّان الضرير حين لم يهد إليه الحجيج شيئًا، فقال:

كأنَّ الحجيجَ الآن لم يقربوا منًى
ولم يحملوا منها سواكًا ولا نعلا
أتوْنا فما جاءوا بعودِ اراكةٍ
ولا وضعوا في كفُّ طفلٍ لنا نقلا[3]

ثامنًا: الشعر التعليمي والأراجيز

وجدنا كثيرًا من الشعر التعليمي أو النظم الشعري المتعلق بمكة ومشاعرها، وأماكنها، ولعل هذه الكثرة تبين عن الاهتمام والانشغال بهذا البلد الأمين، وما محاولات الشعراء في هذا الإطار إلا تعبيرًا عن شدة التعلق به، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- أرجوزة إبراهيم بن إسحاق الحربي
- أرجوزة أحمد بن عمرو

---

(1) تكملة خريدة القصر ٧٨٩
(2) المستظرف في كل فن مستطرف ١/ ٣٢
(3) المستظرف في كل فن مستطرف ١/ ٣١

- أرجوزة الحج لأحمد بن عيسى الخولاني
- أرجوزة الحجر للحسن بن عبدالكريم الصنعاني
- أرجوزة الحج لعبدالوهاب بن أبي نصر بن عربشاه (مخطوط بالمكتبة الخالدية بالقدس)
- أرجوزة في نظم تاريخ الأزرقي لعبدالملك بن أحمد الأرمنتي المصري
- در النظم في وقوع أركان البيت المعظم لإبراهيم بن يوسف المهتار المكي
- رسالة في أسماء مكة المكرمة لمجد الدين الفيروزابادي
- اللؤلؤ المكنون في ذكر أسماء أهل الحجون لعلي الصائغ (منظومة)
- مثير الغرام إلى طيبة والبلد الحرام للمير محمد بن إسماعيل الصنعاني (منظومة)
- المعلقة الإسلامية في تاريخ الكعبة والمسجد الحرام لمحمد توفيق اليعربي، (منظومة)
- منظومة أبي شامة عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي (- ٦٦٥هـ)
- منظومة في الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء بمكة وحواليها لعبدالملك بن حسين العصامي المكي (- ١١١١هـ)
- منظومة في صفة أشهر بناء الكعبة المعظمة لمحمد طاهر بن عبدالقادر الكردي (- ١٤٠٠هـ)
- منظومة في مناهل طريق الحجاز لبدر الدين الزركشي
- منظومة محمد بن إبراهيم بن جماعة (- ٧٣٣هـ)
- النظم البديع في مولد الشفيع ليوسف بن إسماعيل النبهاني (- ١٣٥٠هـ)
- نظم تاريخ مكة للأزرقي لتقي الدين عبدالملك بن أحمد الأرمنتي المصري الشافعي
- نظم الدرر في اختصار نشر النور والزهر في تراجم علماء مكة وأفاضلها من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لعبدالله بن محمد غازي الهندي (- ١٣٦٥هـ)
- نظم مراحل الحجاز مع شرحه لابن غازي المكناسي
- نظم المولد الشريف لفيض الدين حسين أبو الفيض

- نظم المولد النبوي الشريف لمحمد بن سليمان بن الفقيه
- نظم مولد النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن حسن البرزنجي
- نظم النسب الشريف النبوي لعبدالله بن محمد الناشئ

ومن الشعر المنظوم ما نظم في أسماء مكة المكرمة، وذلك في قول القائل:

لمكةَ أسماءٌ ثلاثونَ عُدِّدَتْ
ومن بعدِ ذاكَ اثنانِ منها اسمُ بكةِ
صلاحٌ وكوثى والحرامُ وقادسٌ
وحاطمةُ البلد العريشُ بقريةِ
ومعطشةُ أمُّ القرى رحم باسةٍ
ونسّاسةُ راسٌ بفتحٍ لهمزةٍ
مقدسةُ والقادسيةُ ناشةُ
وراسٌ وتاجٌ أمُّ كوثى كبرّةٍ
سبوحة عرشٍ أمُّ رحمنَ عرشنا
كذا حرم البلدِ الأمينِ كبلدةٍ
كذاكَ اسمها البلدُ الحرامُ لأمنها
وبالمسجدِ الأسنى الحرامِ تسمّتِ
وما كثرةُ الأسماءِ إلاّ لفضلها
حباها بهِ الرحمنُ من أجلِ كعبةِ[1]

وقال الإمام نجم الدين الطرسوسي في منظومته عن ثياب الكعبة، وهل يجوز بيعها أو أخذها بلا ثمن ؟ فقال:

وما على الكعبةِ من لباسِ
إنْ رثّ جازَ بيعُهُ للناسِ
ولا يجوز أخذُهُ بلا شرا
للأغنياءِ لا ولا للفُقرا[2]

(١) أوردها محقق كتاب أخبار مكة للأزرقي بهامش ص ١ / ٢٨٣
(٢) الإعلام بأعلام مكة ٤٩

ومن ذلك ما نظمه علي بن عبدالقادر الطبري في تاريخ عمارة البيت، فقال:

بنى البيتَ خلقٌ وبيتُ الإلهِ
مدى الدهرِ من سابقٍ يكرمُ
ملائكةٌ، آدمُ ولْدُهُ
خليلٌ، عمالقةٌ جُرْهمُ
قصيٌّ، قريشٌ ونجلُ الزبيرِ
وحَجَّاجُ بعدهمُ يُعلمُ
وسلطانُنا الملكُ المُرْتَضى
مرادٌ هو الماجدُ المنعمُ
أدامَ الإلهُ لنا ملكَهُ
وأبقاهُ خَالقُنا الأعظمُ[1]

ومن الشعر التعليمي أرجوزة أبي طالب عبدالجبار الأندلسي التاريخية، وفيها يذكر الدولة الأموية، وما حدث لابن الزبير على يد الحجاج، فيقول منها:

ثمّ تولّى الأمرَ عبدُ المَلكِ
وكانت الدما به لم تُسْفَكِ
لكنّهُ كان شديدَ الحزْمِ
أبو الخلائفِ الرضيُّ الحُكْمِ
وكان من عمّالهِ الحجّاجُ
سراجُهُ في خطبه الوهّاجُ
حتى إذا بابن الزبير ظَفِرَا
وكان في مكةَ يعلو المِنْبرا
للحرمين والعراق مالكا
ومُصْعبُ أخٌ لهُ هنالكا
سقاهُ كاسًا مُرّةَ المزاجِ
وكان للحروبِ ذا اهتياجِ[2]

(١) سلافة العصر ٥٨
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢/١/ ٤٧٥

تاسعاً: الشعر التأريخي

من ألوان الشعر الذي حفل به العصر الوسيط الشعر التأريخي، فمن ذلك ما أرّخه زين العابدين بن عبدالقادر الطبري، حيث يقول: (مما اتفق لنا أنا ركبنا في صحبة الشيخ عبدالصمد بن محمد العمودي وزير مكة للإشراف على عمارة داره بمنى، ومعنا الشيخ محمود، فسقط عن حصانه... فأرّخت سقطته ارتجالاً، بقولي: طاح الشيخ محمود، ثمّ جعلت لهذا التاريخ توطئة نظمًا، فقلت:

لله يومٌ اتينا فيه خَيْفَ مِنًى
لقصدِ دارٍ لها بالسعدِ تشييدُ
وبيننا ربُّ تلك الدار واسطةٌ
بها لنا ولعقدِ المجدِ تنضيدُ
سرنا على صَهَواتِ الخيلِ تمرحُ في
مَسِيرِها ولطيرِ السعدِ تَغريدُ
وكان في الركب محمودٌ على فرسٍ
يقول: إنّي من الفرسانِ معدودُ
فخرَّ عند استباقِ الخيلِ مُنْجدِلاً
وما ادعى بلسانِ الحال مردودُ
فقلتُ مرتجلاً في حال سقطتهِ
تاريخَ ذلك طاح الشيخُ محمودُ[1]

ويؤرخ عبدالمحسن القلعي لوفاة الشريف زيد بن محسن في شعر يرثيه، فيقول:

يا أهلَ مكةَ إنَّ سيّدَنا الذي
ملك الحجازَ وكان فيه الأرشدُ
رَبُّ السَّماحةِ والشجاعة والحيا
والحِلْمِ وصَفَاهُ التُّقَى والسُّؤددُ
لقي الإلهَ فكان تاريخي له
زيدُ بن مُحْسِنَ في الجِنانِ مُخَلّدُ[2]

(١) سلافة العصر ٥٠

(٢) نفحة الريحانة ٤ / ٢٧٥

وأرخ عبدالقادر الطبري لتاريخ هدم البيت بالسيل الذي حدث عام ١٠٣٩هـ بقوله:

هدم البيتَ امرُ ربٍّ تغشّا

هُ بسيلٍ لم يحوِ غرقاهُ ضبْطُ

في نهار الخميسِ عشرين شعبا

نَ قُبَيْلَ الغروبِ منْ عام (لَغْطُ) [1]

وقال الإمام فضل بن عبدالله الطبري مؤرخًا لذلك:

سُئلتُ عن سيلٍ اتى

والبيتُ عنهُ قد سقطْ

متى اتى ؟ قلتُ لهم:

مجيئهُ كان (غلط) [2]

أي تاريخه بحساب الجمل: (١٠٠٠ + ٩ + ٣٠ = ١٠٣٩ = غ + ل + ط)

****

(١) الإشراف في تاريخ الأشراف ٣٤٨

(٢) الإشراف في تاريخ الأشراف ٣٤٨

القســم الثالث

الشعر في أحداث مكة المكرمة

الشعر في أحداث مكة المكرمة

(الكعبة: تسميتها، وبناؤها، وحرقها، وسيلها، ورميها بالمنجنيق)

• تسمية الكعبة

ذكر الثعالبي في تسمية الكعبة (بيت الله) كما أنّ أهل مكة أهل الله، والحجاج زوار الله، فالكعبة بيت الله الذي جعله الله مثابة للناس، وحطة للخليل، وحلاً للذبيح، وقبلة لسيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكعبة لأمته التي هي خير الأمم، وقد كانت العرب في الجاهلية لا تبني بنيانًا مربّعًا تعظيمًا للكعبة، وقد كانت تحلف ببيت الله، كما قال زهير:

فأقسمتُ بالبيت الذي طافَ حولَهُ

رجالٌ بَنَوْهُ من قريشٍ وجُرْهُمِ

وقال النابغة:

فلا وربِّ الذي قد زرتُهُ حِجَجًا

وما هريقَ على الأنصاب من جَسَدِ[1]

قال ابن قتيبة: (وذكر قوم أن أُبي بن سالم الكلبي ورد مكة وقريش تبني البيت، وتشاجروا في إخراج النفقة، فسألهم أن يولّوه ركنًا من أركانه، فولّوه الرُّبع الذي فيه الركن اليماني، فبناه فسمي اليماني. وقال شاعرهم:

لنا أيمنُ البيت الذي تعبدونَهُ

وراثةُ ما بقّى أُبيُّ بن سالمِ[2]

وفي ذكر بناء قريش للكعبة، ورد (أنّ امرأة جمرت الكعبة بالبخور، فطارت شرارة من مجمرتها في ثياب الكعبة، فاحترق أكثر أخشابها، وجاء سيل عظيم، فصدع جدرانها.. فأرادوا أن يشدوا بنيانها، ويرفعوا بابها... ثمّ إنّ قريشًا اقتسمت جوانب البيت... وجمعوا الحجارة، وكان رسول الله صلى الله عليه يفعل معهم، حتى إذا انتهى

---

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١٧

(٢) المعارف ٥٦١

الهدم إلى الأساس، فافضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة، فضربوا عليها بالمعول، فخرج برق يكاد أن يخطف البصر، فانتهوا عند ذلك الأساس، ثم بنوا حتى بلغ البنيان موضع الركن الحجر، فاختصم فيه القبائل، وكل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، وكادوا أن يقتتلوا على ذلك، فقال لهم ابو أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وكان شريفًا مطاعًا: اجعلوا الحكم بينكم في ما اختلفتم فيه أول من يدخل من باب الصفا. فقبلوا منه ذلك. فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه، قالوا: هذا محمد الأمين، وكان يسمى قبل أن يوحى إليه أمينًا لأمانته وصدقه، فقالوا جميعًا: رضينا بحكمه. ثمّ قصّوا عليه قصّتهم. فقال صلّى الله عليه وسلم: إليّ ثوبًا. فأُتيَ به، فأخذ الركن، فوضعه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من هذا الثوب فحملوه جميعًا، وأتوا به ورفعوه إلى ما يحاذي موضعه، فتناوله رسول الله صلّى الله عليه وسلم من الثوب، ووضعه بيده الشريفة في محله، وفي ذلك يقول هبيرة بن وهب المخزومي:

تشاجرتِ الأحياءُ في فَصْلِ خطةٍ
جَرَتْ طيرهُمْ بالنحسِ من بعد اسعدِ

تلاقَوْا بها بالبغض بعد مودةٍ
واوقد نارًا بينهم شرُّ موقدِ

فلمّا راينا الأمرَ قد جدَّ جدَّهُ
ولم يبقَ شيءٌ غيرَ سلِّ المهنَّدِ

رضينا وقلنا العدلَ أولُ طالعٍ
يجيءُ من البطحاءِ من غير موعدِ

ففاجانا هذا الأمينُ محمدٌ
فقلنا رضينا بالأمينِ محمدِ

بخير قريشٍ كلِها امسِ شيمةً
وفي اليوم معْ ما يُحْدثُ اللهُ في غدِ

فجاء بامرٍ لم يرَ الناسُ مثلَهُ
اعمَّ وارضى في العواقبِ والبَدِ

اخذنا باطراف الرداء وكلُّنا
لهُ حصةٌ من رفْعِها قبضةُ اليدِ

فقال ارفعوا حتى إذا ما علتْ بهِ
اكفُّهُمُ وافى به خيرُ مسندِ

وكلٌ رضينا فعلَهُ وصنيعَهُ
فأعظمْ بهِ من رايٍ هادٍ ومهتدِ
وتلك يدٌ منه علينا عظيمةٌ
يروح بها هذا الزمانُ ويغتدي

وكانت أول زيادة تضاف إلى الحرم بعد بناء قريش في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث تكاثر المسلمون كما يروي الأزرقي (وضاق المسجد بالناس، ولزم توسيعه اشترى دورًا حول المسجد هدمها وأدخلها في المسجد[1] وكانت التوسعة الثانية في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفعل ما فعله سلفه بشراء الدور، وضمها للمسجد.

ثمَّ تصدَّعت الكعبة، وتهدَّم بعض جدرانها، واحترق بعض أخشابها في حصار ابن الزبير، ولما انتهى الحصار، قرر ابن الزبير هدم الكعبة، وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم عليه السلام، لما سمعه من حديث عائشة «لولا أنّ قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض، ولجعلت لها بابًا شرقيًا وبابًا غربيًا، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإنّ قريشًا استقصرتها حين بنت الكعبة، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه، فأراها نحوًا من سبعة أذرع» أخرجه الشيخان في صحيحيهما. فهدمه ابن الزبير، وأعاد بناءها، ولما فرغ طيبها بالمسك والعنبر، وكساها الديباج، وكان ذلك في رجب من سنة أربع وستين للهجرة.

وفي عهد عبدالملك بن مروان (كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان يذكر له أنّ عبدالله بن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها، وأحدث فيها بابًا آخر، فكتب إليه عبدالملك أن يعيدها على ما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهدم الحجاج من جانبها الشامي قدر ستة أذرع وشبرا، وبنى ذلك الجدار إلى أساس قريش) وندم عبدالملك على هذا الفعل عندما تأكد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: (وددت والله أني تركت ابن الزبير وما تحمّل من ذلك)[2].

واستمر عمارة البيت في عهد الوليد بن عبدالملك، قال الأزرقي: (عمر الوليد المسجد الحرام، ونقض عمل عبدالملك، وعمل عملاً محكمًا، وهو أول من نقل الأساطين

(١) أخبار مكة للأزرقي ٢ / ٦٩ - ٧٠
(٢) الأعلام بأعلام مكة ٥٧

الرخام، وسقفه بالساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين صفائح الذهب، وأزر المسجد بالرخام، وجعل للمسجد سرادقات)[1].

ويمدح أيمن بن خريم مروان بن الحكم حيث بنى قبة عند المقام، فيقول:

مـــــروانُ إنَّ قـنـاتـهُ خَـطِّـيَّـــةٌ
غُـرِسَتْ أرومَـتُـهـا أعـزَّ الـمـغْـرسِ
وبـنـيـتَ عند مــقـــام ربِّك قُـبَّـةً
خـضـراءَ كُلِّلَ تـاجُـهـا بـالفِـسْـفِسِ
فـسـمـاؤها ذهبٌ وأسـفلُ أرضـهـا
وَرِقٌ تـلألأ في الـبَـهـيـمِ الحِنْدِسِ[2]

ذكر ابن قتيبة أن (أول من كساه الأنطاع والبرود اليمانية: أسعد أبو كرب الحميري، فقال:

وكـسـونـا الـبـيـتَ الذي حـرَّم الـلـ
ـهُ مُـلاءً مُـعَـضَّـدًا وبُرُودا)[3]

ومن الأوائل ما ذكر أنَّ أوّل من أطعم بمكة هاشم، فقد روي أنه (بعد وفاة قصي اختلف بنو عبد مناف وبنو عبدالدار على القيام بشؤون مكة والبيت الحرام من: الحجابة والسقاية والرفادة واللواء، وكادوا يقتتلون، ثمَّ اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف، والحجابة والرفادة واللواء لبني عبدالدار، وتحالفوا على ذلك، فولي الرفادة والسقاية هاشم،... وهو أوّل من سنَّ الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء والصيف، وهو أوّل من أطعم الثريد بمكة، واسمه عمرو، وإنّما سُمِّيَ هاشم لهشمه الخبز وثرده لقومه، كما قال القائل:

عـمـرو الذي هشم الـثـريدَ لقـومـهِ
ورجـالُ مكةَ مُـسْنِتـونَ عِـجَـافُ
سُنَّتْ إليـه الرحلتـان كـلاهـمـا
سَـفَـرُ الشـتـاءِ ورحلةُ الأصـيـافِ[4]

---

(١) اخبار مكة ٢ / ٧٠
(٢) الموشح للمرزباني ٣٤٧
(٣) المعارف ٥٥٩
(٤) الإعلام باعلام مكة ٣٢ وهكذا وردت رواية البيتين وفيها إقواء

وذكر الثعالبي في (إيلاف قريش) قال: (كانت قريش لا تتاجر إلاّ مع من ورد عليها مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ.

وفي الأشهر الحرم لا تبرح دارها، ولا تجاوز حرمها للتحمس في دينهم، والحب لحرمهم، والإلف لبيتهم، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم، فكان أوّل من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك، وأبعد في السفر، ومرّ بالأعداء، وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله هاشم بن عبد مناف، وكانت له رحلتان: رحلة الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن، ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة، ورحلة الصيف نحو الشام وبلاد الروم، وكان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل، وسادات العشائر لخصلتين:إحداهما أنّ ذؤبان العرب والصعاليك الأعراب، وأصحاب الغارات، وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم.

والخصلة الأخرى أنّ أناسًا من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدرًا، كبني طيء وخثعم وقضاعة، وسائر العرب يحجون البيت، ويدينون بالحرمة له.

ومعنى الإيلاف: إنما هو شيءٌ كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح، ويحمل لهم متاعًا مع متاعه، ويسوق إليهم إبلاً مع إبله، ليكفيهم مؤونة الأسفار، ويكفي قريشًا مؤونة الأعداء...، وقد عمَّ مطرود الخزاعي بني عبد مناف بذكر الإيلاف، لأنّ جميعهم قد فعل ذلك، فقال:

يا أيها الرجل المحوّلُ رَحْلَهُ
هلاّ حللتَ بآل عبد منافِ

الآخذين العهدَ في إيلافهمْ
والراحلين برحلة الإلأف)[1]

وفي اختصاص قريش بالإيلاف دون غيرهم من العرب، قال شاعر يرد على بني أسد ما يدّعونه من قرابة قريش:

زعمتُمْ أنَّ إخوتَكُمْ قريشٌ
لهمْ إلفٌ وليس لكم إلافُ

أولئكَ أومنوا خوفًا وجوعًا
وقد جاعتْ بنو أسدٍ وخافوا[2]

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١١٥- ١١٦

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١١٧

ومن الأوائل ما يقال: بأنّ (سعد بن عمر السهمي أوّل من بنى بيتًا بمكة، وأنشد:

واولُ من بوّا بمكةَ بيتَهُ
وسوّرَ فيها ساكنًا باثافي[1].

وأوّل ما ذكر من الشعر في عمارة البيتَ، قول مضاض بن عمرو الجرهمي بعد أن تمّت له السيادة على مكة بقتل السميدع منافسه:

فنحن عمرنا البيت كُنّا وُلاتَهُ
نُدافعُ عنه مَنْ اتانا ونَدْفَعُ[2]

ويقال:إنّ أوّل من علّق قناديل الذهب بالحرم السلطان العثماني سليمان خان.

يقول صاحب كتاب الإعلام بأعلام مكة: (وكان آخر من عمره.. المهدي العباسي، وزيادة دار الندوة للمعتضد العباسي، وزيادة دار إبراهيم للمقتدر العباسي، ثمّ مالت الأروقة الثلاثة من الجانب الشرقي من المسجد الحرام سنة ٩٩٥هـ وفارق السطح المتصل برباط المرحوم السلطان قايتباي.. إلى أن مال هذا الجانب الشرقي ميلاً عظيمًا ظاهرًا محسوسًا، بحيث كان يخشى سقوطه، ثمّ عُلّق وأسند بالأخشاب في أيام السلطان الأعظم.. سليم خان.. فبرز أمره الشريف ببناء جميع المسجد من جوانبه الأربعة على أحسن وضع، وأجمل صورة، وأمر أن يجعل مكان السطح قببًا محكمة راسخة الأساس.. وفي عهد السلطان مراد كمل إتمام عمارة المسجد الحرام، وفي ذلك يقول صاحب الكتاب مادحًا:

إنّ سُلطاننا مُرادًا لَظِلُّ الـ
ـلـهِ في الأرض باهر السلطانِ
ملكٌ هو في الحقيقة عندي
ملكٌ صيغَ صيغةَ الإنسانِ
كَمُلَ المسجدَ الحرامَ بناءً
فاقَ في العالمينَ كلَّ المباني[3]

---

(١) الإعلام بأعلام مكة ١٠

(٢) الإعلام بأعلام مكة ٢٧

(٣) الإعلام بأعلام مكة ٣ – ٥

واكتمال بناء المسجد الحرام في هذا القول، مرتبط بزمانه، وإلا فإنَّ التوسعة في العهد السعودي وما أضيف إلى الحرم، وما وصل إليه عمرانه شيءٌ رائعٌ وبديع، وقد أورد محقق كتاب أخبار مكة ذكرًا لهذه التوسعة، وهناك بعض الكتب التي تحدثت عن هذه التوسعة[1].

وتسقط أركان الكعبة، في عام ١٠٣٩هـ حيث دهمها سيل جارف غرق فيه نحو ألف إنسان، ويكون لهذا السقوط صدى حزين في نفوس الناس، وتصدى يوسف بن مهتار المكي لهذا الحدث الذي ماجت له النفوس، واضطربت له الأفئدة، واصدعت له الأحشاء، واهتزّت له أركان الأرض، وبعد أن يبدي لهفته على بيت الله وما حدث له، يرجع السبب إلى ذنوب العباد، فيقول:

ماجت قواعدُ بيتِ اللهِ واضْطَربتْ
واهتزّتِ الأرضُ من أقطارها وربتْ
وامستِ الكعبةُ الغرّاءُ واقعةً
فما أشكُّ بأنَّ الساعةَ اقتربتْ
فأيُّ خطبٍ به أحشاؤنا انْصَدعتْ
وأيُّ هولٍ به ألبابُنا سُلِبَتْ
وأيُّ دهرٍ لقينا من نوائبهِ
ما لو على الشامخاتِ الشمِّ لانسربتْ
إنّا إلى اللهِ من دنيا مُنغّصَةٍ
أيامُها مستردّاتٌ لما وهبتْ
أبدت عجائبَ لا تقوى العقولُ لها
وأيُّ نفسٍ من الأيام ما عجبتْ
هي التي لعبتْ جدّتْ وفَتْ غدرتْ
قستْ ألانتْ أبتْ دانتْ نأتْ قرُبتْ

---

(١) انظر ما جاء في كتاب: الحرمان الشريفان والمشاعر المقدسة التوسعات والتطوير للدكتور عبدالله بن صالح الرقيبة، الصادر عن وزارة التعليم العالي ١٤٢٢هـ رقم (٢٨).

كم رامَ أهلُ النُّهى من قبل أعصُرِنا
صفوًا لعيشهمُ من شوبها فأبتْ
وكم أرادوا بإدراكٍ ومعرفةٍ
تقويمَ مُنادها بالرأي فاضطربتْ
فما نُرجّي وقد ولّتْ بَشاشَتُها
وأوْجُهُ الأُنسِ من لذّاتها شَجَبتْ

وبعد هذه المقدمة التي يبين الشاعر فيها ما أصاب الكعبة، وما ألمّ بالنفوس من ألم، يبدي عجبه من هذه الدنيا التي لا تصفو لأحد، ومن تناقضها فهي تارة جادة وأخرى هازلة، وبينما تُري وفاءها، تبدي غدرها، وهي تقسو وتلين، وتبعد وتقترب، إنها تلعب بنا.
ثمّ يكرر تلهفه على ما حدث للكعبة، ويصف أركانها وكيف هوت، وأستارها وقد سحبت في الوحل، وآثارها التي عفت:

ما بعدَ منظرِ بيت الله مُنْهَدِمًا
تلفى حشاشةَ حرٍّ في البَقَا رغبتْ
فأيّ عينٍ على ما كان ما انسكبت
وأي روحٍ لما قد صار ما وصبتْ
لهْفي على كعبة الله التي افترقتْ
أحجارُهَا بعد ما في حبها اصطحبتْ
لهْفي على تلِكُمُ الأركانِ كيف هوتْ
وكيف أوهتْ حصاةَ القلبِ إذ قلبتْ
لهفْي على تلِكُمُ الأستارِ كيف غدتْ
أيدي سبا وبوحلِ السُحْبِ قد سُحبتْ
لهْفي على تلِكُمُ الآثار كيف عَفَتْ
وكيف شادت ربوعَ الحزنِ إذ خربتْ
لهفي ولستُ لَعَمْري مُنشدًا أبدًا
سُقْيًا منًى وليالي الخَيْفِ ما شربتْ

فكم بأكـفـافِـهـا من مـهـجـةٍ ذهبتْ

وكم جُنوبٍ على سـاحـاتـهـا وجـبتْ

وكم بذلك من ذكـرى ومـعـتـبـرٍ

لمن تـذكّـرَ لكنّ النُّهى غـربتْ

يا خـالِقَ الخَلْقِ عـفـوًا عن جـرائمنا

فـخـوف أنفـسِنا مما قـد ارتكَبَتْ[1]

- استيلاء خزاعة على مكة:

كان بدء أمر مكة كما جاء عند الأزرقي (أن عمر بن الخطاب قال لقريش: إنه كان ولاة هذا البيت قبلكم طسم، فاستخفوا بحقه، واستحلوا حرمته، فأهلكهم الله، ثم وليته بعدهم جرهم، فاستخفوا بحقه، واستحلوا حرمته، فأهلكهم الله، فلا تهاونوا به، وعظموا حرمته)[2].

وينقل الأزرقي عن ابن إسحاق أنه بعد وفاة إسماعيل عليه السلام تولى ابنه نابت الحكم، وبوفاته انتقلت الولاية لمضاض بن عمرو الجرهمي الذي حكم أعلى مكة، والسميدع من قطوراء حكم أسفل مكة، وأدى اختلافهما إلى قتال تم فيه قتل السميدع وغلبة مضاض الذي آلت إليه أمور ولاية مكة، وهذه أول الحروب كما يذكرون، وفيها يقول مضاض[3]:

ونحن قـتلْنا سـيـدَ الحيِّ عنوةً

فأصبح فيـها وهو حَـيْرانُ موجَعُ

ومـا كـان يبـغي أن يكون سـواءنا

بها مَلِكًا حتى أتانا السـمـيـدعُ

فـذاق وبالاً حين حـاول مُلكَنا

وعـالجَ منا غُـصـةً تُتـجَـرَّعُ

فنحن عَـمَـرْنا البـيتَ كنا وُلاتَهُ

نُحـامِيَ عنـهُ من أتانا ونَدْفَعُ

(١) السلافة ٢٢٥

(٢) المصدر السابق ١/ ٨٠

(٣) المصدر نفسه ١/ ٨٣

وما كان يَبْغي ان يلي ذاك غيرُنا
ولم يك حيٌّ قبلَنا ثمّ يُمْنَعُ
وكنّا ملوكًا في الدهورِ التي مضتْ
ورثنا ملوكًا لا تُرامُ فتُوضَعُ

ولما طال حكم جرهم للبيت، وامتنعوا وعزوا، استخفوا بحرمة الحرم، وأكلوا مال الكعبة، وكانت خزاعة قد خرجت من اليمن، واستأذنت جرهم في النزول معها، فأبت عليها جرهم ذلك، فاقتتلوا، وانتصرت خزاعة، فخرجت ولاية البيت إلى خزاعة، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت[1]:

فلمّا هبطْنَا بطنَ مرٍّ تخزّعتْ
خزاعةُ منا في حلولٍ كراكرِ
حَمَوْا كلَّ وادٍ من تهامةَ واحْتَمُوا
بصُمِّ القنا والمرهفاتِ البواترِ
فكان لها المِرْباعُ في كلّ غارةٍ
تشنُّ بنجدٍ والفجاجِ العوابرِ

● حكم قصي

وتتواصل المنافسة بين خزاعة وبين بني إسماعيل على ولاية البيت، إلى أن ينجح مجمع قريش، قصي بن كلاب الذي حارب بني بكر في الأبطح حتى كثر فيهم القتل، وبعد ذلك تم الصلح الذي أعطى قصيّاً ولاية البيت، ولما تمت له السيطرة تم إخراج بني بكر وخزاعة من مكة في يوم نكيف[2]، واستولى على أمر مكة كلها، من: حجابة البيت والرفادة والسقاية، وقيادة مكة، وسمي مجمعًا و(قيل: سميت قريش قريشًا لتجمعهم على قصي، والتقرش هو الاجتماع، وفي ذلك يقول القائل:

ابوهم قصيٌّ كان يُدعى مجمعًا
بهِ جمعَ اللهُ القبائلَ من فهرِ

(١) المصدر السابق ١/ ٩٣- ٩٥
(٢) انظر السيرة لابن هشام ١/ ١١٤

همُ ملكوا البطحــاءَ مــجــدًا وســؤددًا
وهمْ طَرَدوا عنهــا غُــزاةَ بني عــمــرِو[1]

وفيه يقول الدكتور حسين مؤنس: (فهذا الرجل قصي بن كلاب هو الذي وضع أساس قوة قريش ومكانتها، فهو الذي أقرها في مكة، ونقلها من البداوة إلى الحضارة والاستقرار، ووضع لها من عنده نظامًا شورياً فيه إنصاف للقبائل جميعًا، وهو كذلك صاحبُ الفضل في تنظيم أمور مكة، وتقسيمها رباعًا بين بيوتِ أبنائه وحلفائه)[2].

وقال ابن سلام: (أصبح الناس يومًا بمكة وعلى دار الندوة مكتوب:

أَلْهَى قُــصَــيّــاً عن الــمــجــد الأســاطيــرُ
ورشــوةٌ مــثل مــا تُرشى الســفــاســيــرُ
واكلُهـــا الــلحمَ بحـــتًـــا لا خليطَ لهُ
وقــولهــا: رحلت عــيــرٌ مــضتْ عــيــرٌ)[3]

● عام الفيل

تعد حملة أبرهة الحبشي على مكة حدثًا من أعظم الأحداث التي شهدتها مكة قبل الإسلام، فالقائد الحبشي النصراني أبرهة، يريد تحويل العرب عن كعبتهم، فيصمم على هدمها، وليضع لهم البديل، بنى كنيسة في صنعاء سمّاها القليس، وخرج على رأس جيش عرمرم قاصدًا مكة، يقدم جيشه فيل ضخم، ترهيبًا وتخويفًا لكل من يحاول الوقوف في وجهه، واستطاع رغم بعض المناوشات في الطريق أن يتغلب على جميع من وقف في وجهه، واستمرَّ في وجهته حتى وصل المغمَّس على بعد ثلثي فرسخ من مكة، وبعث بعض جنده للاستيلاء على أموال قريش ومتاعها.

وورد في كتب السير قصة عبدالمطلب مع أبرهة ومطالبته برد إبله، وأن عبدالمطلب عندما رجع من عند أبرهة ورأى عزمه على هدم الكعبة نادى أهل مكة محذرًا:

(١) الإعلام بما في مكة من الأعلام ٢٨ – ٢٩
(٢) تاريخ قريش ٧٥
(٣) طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٣٥ – ٢٣٦

يا أهلَ مكةَ قد وافاكمُ مَلِكٌ
مع الفُيولِ على أنيابها الزَّردُ
هذا النجاشيُّ قد سارتْ كتائبُهُ
مع الليوثِ عليها البَيْضُ تتَّقِدُ
يريدُ كعبتَكُمْ واللهُ مانعُهُ
كمنعِ تُبَّعَ لمَّا جاءهُ حَرَدُ(1)

ولما وجد أهل مكة قد غادروها، ذهب إلى الكعبة، وأمسك بحلقة بابها، وأخذ يدعو الله، ويقول:

يا ربِّ لا أرجو لهم سِواكا
يا ربِّ فامنعْ منهمُ حِماكا
إنَّ عدوَّ البيتِ مَنْ عاداكا
امنعهمُ أن يُخْرِبُوا قُراكا

وقال أيضا:

يا ربِّ إن المرءَ يَمْـ
ـنَعُ رَحْلَهُ فامنعْ حِلالَكْ
وانصرْ على آلِ الصليـ
ـبِ وعابديهِ اليومَ آلَكْ
لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ
ومِحَالُهُمْ عَدْوًا مِحَالَكْ
فلئن فَعَلتَ فربما
أولى فأمرٌ ما بدا لكْ
ولئن فعلتَ فإنَّهُ
أمرٌ تتمُّ به فعالكْ

(1) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٠ وانظر مروج الذهب للمسعودي ٢ / ١٢٨

جَــرُّوا جــمــوعَ بـلادهـمْ
والـفـيلَ كي يَسْـبُـوا عـيـالكْ
عـمـدوا حِـمَـاك بكيـدهـمْ
جـهـلاً ومـا رَقَـبُـوا جـلالَكْ
فلـئن تـركـتـهـمُ وكـعـ
ـبـتنا فـوا حـزني هنالك[1]

وقال عبد المطلب أيضًا:

لاهُمَّ فـاخـزِ الأسـوَدَ بنَ مـقـصـودْ
الآخـذَ الـهـجْـمـةَ ذات الـتـقليـدْ
بينَ حِـرَاءَ وثَـبِـيـرٍ فـالبِـيـدْ
اخْـفِـرْتَهُ ربُّ وانتَ المـحـمـودْ
قـد اجـمـعـوا الا يكون لك عـيـدْ
ويهـدمـوا الـبـيت الحـرام الـمـعـمـودْ
والـمَـرْوَتَيْنِ والـمـشـاعـرِ الـسـودْ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو وعمرو بن عامر بن عمران بن مخزوم، ومطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، ومسعود بن عمرو الثقفي. ومن معهم من قريش إلى شعف الجبال، فتحرزوا فيها ينظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها. وقال عبدالمطلب:

قلت والأشـرمُ تُردى خـيـلُهُ
إنّ ذا الأشـرم غـرٌ بـالحـرمْ
كـاده تُبَّـعُ في مَنْ جنَّـدتْ
حِـمْـيَـرُ والحيُّ من آل قـدم
فـانثنى عنه وفي أوداجِـهِ
جـارحٌ امـسـكَ عنه بالكظم

(١) السيرة لابن هشام ١/ ١٩٠، وأخبار مكة للأزرقي ١/١٤٥، وإتحاف الورى ١/٣١

نحن أهلُ اللهِ في بلدته
لم يزلْ ذاكَ على عهد ابْرَهَمْ
نعبدُ اللهَ وفينا شيمةٌ
صلةُ القربى وإيفاءُ الذمم
إن للبيت لربّاً مانعًا
من يُرِدْهُ بإثامٍ يَصطَلم

وقال المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم يذكر حادثة الفيل، ويصف حبس الفيل بالمغمس:

أنتَ حبستَ الفيلَ بالمغمَّسْ
حَبَسْتَهُ كأنَّهُ مُكردسْ
من بعد ما همَّ بامرٍ مُخلسْ
بمحبسٍ تُزْهقُ فيهِ الأنفسْ
وقت ثياب ربنا لم تُدنَّسْ
يا واهبَ الحيِّ الجميع الأحمسْ
وما هُمُ من طارق ومنفسْ
وجاره مثل الجواري الكنَّسْ
أنت لنا في كلِّ أمرٍ مُضرسْ
وفي هِنَاتٍ إخذت بالأنْفُسْ

ويذكر لنا ابن أذينة الثقفي قصة الفيل، وكيف أتى جيش أبرهة بآلافه العديدة التي تسد عين الشمس، ويصمُّ صراخهم الآذان، فهم كالشياطين، وعددهم كالتراب، فيقول:

لعَمْرُكَ ما للفتى منْ مَفَرْ
معَ الموتِ يلحقه والكِبَرْ
لعمرك ما للفتى عُصرةٌ
لعمرك ما إنْ له مِنْ وَزَرْ

أَبَعْدَ قبائلَ منْ حِمْيَرٍ

أتوا ذاتَ صُبْحٍ بذاتِ العِبَرْ

بألْفِ ألوفٍ وحَرَّابةٍ

كمثلِ السماءِ قُبَيْلَ المطر

يُصِمُّ صُراخُهمُ المُقْرَبا

تِ ينفون من قاتلوا بالذَّفَر

سَعاليَ مثلَ عديدِ الترابِ

تَيبَسُ منها رِطابُ الشَّجَر[1]

وقال نفيل يذكر قصة حادثة الفيل وما رآه من هلاك أبرهة وجيشه:

الا حُيِّيتِ عنَّا يا رُدَيْنا

نَعِمْناكمْ مع الإصباحِ عَيْنَا

رُدَيْنةُ لو رأيتِ ولن تَريْهِ

لدى جَنْبِ المُغَمَّسِ ما رأينا

إذًا لعذرْتِنِي ورضيتِ أمري

ولن تأسَيْ على ما فاتَ بَيْنا

وكلُّ القومِ يسألُ عن نُفَيلٍ

كأنَّ عليَّ للحُبْشانِ دَيْنا[2]

وتذكر سبيعة بنت الأحب هلاك جيش الفيل في وصيتها لابنها:

والفيل أهْلك جَيْشُهُ

يُرمون فيها بالصخور[3]

وعبدالله بن الزبعرى يتحدث عن حرمة مكة، ويضرب المثل بحرمتها ما صنع الله بجيش أبرهة، فيقول:

---

(١) إتحاف الورى ٤٤

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦

سـائلْ أمـيـرَ الجـيش عنهـا مـا رأى

ولسـوفَ يُنْبي الجـاهلينَ عَليـمُـهـا

سـتُّـونَ الفًـا لم يَؤُوبوا ارضَـهمْ

بل لـم يعشْ بعـد الإيابِ سـقـيـمُـهـا[1]

وذكر أبو هلال العسكري أنّ (اول ما عظم أمر قريش فسميت آل الله وقرابته حين هزم الله جيش أبرهة الأشرم، وقال أمية بن أبي الصلت الثقفي في شأن الفيل:

إنّ آيـاتِ ربّـنـا بـاقـيـاتٌ

مـا يُمـاري بهـنّ إلاّ كـفـورُ

حَـبَسَ الـفـيلَ بالـمُـغـمّس حـتى

ظلّ يَحْـبـو كـأنّهُ مَـعْـقـورُ

وقال يصف جيش أبرهة وكثرته، وكيف ردّهم الله بجيوش الطيور الحاصبة:

وعـنـدكمُ مـنـهُ بـلاءٌ مـصـدّقٌ

غـداةَ ابي يَكْسـومَ مُـهـدي الكتـائبِ

كـتـائبـهُ بالسـهلِ تمشي ورَجْلُهُ

على القُـذُفـاتِ في رؤوس الـمـراقبِ

فلمّـا اجـازوا بَطْنَ نَعْـمـانَ رَدّهمْ

جـيـوشُ الإله بين سـافٍ وحـاصبِ[2]

وجيوش الإله التي تسفي وتحصب جيش ابرهة هي تلك (الطير الأبابيل اشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل، وهو طين خلط بحجارة، خرجت من البحر مع كل طير ثلاثة أحجار، فأهلكهم الله عز وجل) [1].

---

(١) أخبار مكة ١ / ١١٢ إتحاف الورى ١ / ٣٧

(٢) الأوائل لأبي هلال العسكري١/ ٥٧-٦٢

(٣) مروج الذهب ١ / ٥٢

وبذلك هلك أبرهة وجنده، وفي ذلك يقول الدكتور محمد حسين هيكل عن نتيجة هذه الحملة: (زاد هذا الحادث الفذ العجيب في مكانة مكة الدينية، وزاد تبعًا لذلك في مكانتها التجارية، وزاد أهلها انصرافًا عن التفكير في شيء غير الاحتفاظ بتلك المكانة الرفيعة الممتازة)[1].

وإذا كانت نتيجة هذه الحملة قد أعلت من مكانة مكة في ما ذكر، فإن النشاط الشعري هو الآخر قد تفاعل مع هذه النتيجة، وفي ذلك يقول فؤاد علي رضا: (كان إخفاق حملة الفيل محورًا لنشاط أدبي كبير، فقد اتخذه كثير من الشعراء موضوعًا لقصائد عصماء، نذكر منهم: عبدالله ابن الزبعرى، وأبا قيس بن الأسلت، وطالب بن أبي طالب، وأبا الصلت بن ربيعة الثقفي، والفرزدق، وعبدالله بن قيس الرقيات، وغيرهم)[2].

ويشير جواد علي إلى أثر هذه الحملة في دخول بعض الألفاظ الحبشية في الشعر العربي، فيقول: (أشار علماء اللغة المسلمون والمستشرقون إلى عدد من الألفاظ العربية ذكروا أنها من أصل حبشي، وهي من الألفاظ التي كانت مستعملة ومعروفة قبل الإسلام، وقد ورد بعضها في الشعر الجاهلي)[3] ويقول كلثوم بن عُميس عندما أسره أبرهة وكبله بالحديد، يصف كثرة جيشه بالماء الذي ملأ الوادي:

ألا ليتَ أنَّ اللهَ أسمعَ دعوةً
وأرسلَ بينَ الأخشبين مناديَا

أتتْكمْ جُموعُ الأشرمِ الفيلُ فيهمُ
وسودُ رجالٍ يركبونَ السَعاليا

ورَجْلٌ جِسامٌ لا يكُتُّ عديدُهمْ
يهزُّونَ واللاتِ الحرابَ الصَّواديا

أتَوْكمْ أتَوْكُمْ تبشعُ الأرضُ منهمُ
كما سالَ شؤبوبٌ فابشعَ واديا[4]

(١) حياة محمد ٦٤
(٢) أم القرى مكة المكرمة ٢٢٩
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٦ / ١٩٣
(٤) سيرة ابن هشام ١/ ١٧٠

وفخر ذو الرمة بقتل أبرهة الأشرم، فيقول:

وابرهةَ اصطادتْ صدورُ رماحنا
جهارًا وعُثنونُ العجاجة اكدرُ
تنحّى له عمرٌو فشكَّ ضلوعَهُ
بنافذةٍ نجلاء والخيلُ تَضْبِرُ[1]

وفي شعر العصور المتوسطة من القرن الخامس وحتى الثاني العاشر يمر ذكر هذه الحادثة ضمن قصائد المديح النبوي، ومن ذلك ما أورده أبو الفضل عبدالمحسن بن محمود التنوخي الحلبي من شعراء القرن السابع في مدحيته اللامية التي يصف فيها حادثة الفيل قائلاً:

ماذا اقولُ وإنْ اسهبتُ في ملأٍ
قد جاءَ في مدحهمْ وحيٌ وتنزيلُ
لولاهمُ هُدمَ البيتُ العتيقُ وقد
وافاهُ قومٌ عُصاةٌ فيهمُ الفيلُ
عادوا وقد عادَ في التضليلِ كيدُهمُ
وأرسلتْ فوقهم طيرٌ ابابيلُ
ترمي باحجارِ سجّيلٍ تغادرهم
إذا رمتهمْ كعصفٍ وهْو ماكولُ[2]

وفي الشعر المعاصر يبقى أبرهة ماثلاً للعيون، ويبقى هلاكه وهلاك جنده عبرة وعظة، ويبقى الرمز والإيحاء بأن لكل عصر أبرهة من الظالمين المعتدين، كما في هذه القصيدة التي تحمل في طياتها الكثير من المعاني الإيحائية، التي تعبر عن أن نهاية الظالمين ليست ببعيد، وأن نصر الله قريب من عباده المستضعفين، فالشاعر مصطفى أبو الرز من الشعراء المعاصرين، يسيِّر جيش أبرهة في رؤية تناصية إسقاطية، ينقل لنا أحداث عام الفيل، ويتحدث عن أبرهة وجيشه وفيله، وما لاقاه بحجارة الطير الأبابيل،

---

(١) ديوان ذو الرمة ٢/ ٦٤٤

(٢) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٣ / ٣٨

وقراءتك للقصيدة توحي بأن الشاعر لا يروم سوى تأريخ هذا الحدث، فتفاصيله كما يذكرها معروفة لصغارنا الذين يقرأون (سورة الفيل) ويعرفون تفسيرها، لكنَّ المتأمِّلَ في القصيدة يلمح من خلال هذه البساطة عمقًا وربطًا يؤدي إلى تشكيل رؤية استنباطية تقول: مهما عتا المجرم في إجرامه، فإنَّ له يوم الفيل، واقرأ معي لقطات القصيدة التي لا تبعد كثيرًا عن صور الحدث كما حدث، ولكن هذه البساطة تغري بالتأمل:

إلى أينَ تزحفُ يا ابرهه؟

فما الأمرُ ما شئتَ أنْ تصنعهْ

إلى أين ؟ أين ؟ تضجُّ السَّماءُ

ويُغلقُ ابرهةُ مَسْمعه

ويزحفُ يكسوهُ ثوبُ الغرورِ

وكلُّ الشياطين جاءت معه

وتفعلُ في راسهِ فِعْلَها

وتُسكرهُ كاسُهُ المُتْرَعه

وفي قدرة الله كان الجوابُ

وانّى لمن شطَّ أن يسمَعَه

فما امرُ افئدةِ المؤمنينَ

بايدي اللئيمِ لكي تتبَعَه

ولكن كما شاءَ ربُّ الأنامِ

ففي الكونِ اركانُهُ الاربعه

إلى غيرِ ذي الزرع تَهْوي القلوبُ

ويمتلكُ القلبَ من ابْدَعَه

ويمتلئُ الجوُّ من فورهِ

بطيرٍ اطلَّتْ لكي تَرْدَعَه

ابابيلَ يرميهِ سِجِّيلُها

بضربٍ اقضَّ لهُ مَضْجَعَه

ويضطرِبُ الفيلُ من هولهِ
ويَلْقى من الطير ما اوجَعَهْ
كعصفٍ تبخَّرُ احلامُهُ
ومن يا تُرى المرءُ قد جَرَّعَه؟
فما ظنُّ للبيتِ من مالكٍ
سيصرعُهُ قبلَ ان يصرعَه[1]

وما أظن الشاعر يروي لنا هذه الحكاية إلا وفي ذهنه أبرهة العصر، والطيور الأبابيل، طيور الانتفاضة.

وهذا الاكتشاف ليس بحاجة إلى كبير بحث، فقد صدرت دواوين وقصائد في شعر الانتفاضة تمزج في الصورة وتماهي ما بين طيور الأبابيل وأطفال الحجارة.

وهذا ياسين قطب الفيل أيضًا في خطابه لبيت الله يمزج بين تلك الحجارة القديمة وحجارة الانتفاضة، فيقول:

يا بيتَ اللهِ ومعذرةً
إنّي عربيُّ الأمنيّهْ
ابرهةٌ يلعنُ ابرهةً
لَعَنات الحقدِ الأزليّهْ
وماذنْكِ البيضُ ارتفعتْ
تتحدّى مُهَجًا حَجَريّهْ
والموكبُ يمضي ملتمسًا
كلّ الجَنَباتِ القدسيّهْ[2]

ونجد بعض الشعراء يذكرون هذه الحادثة، كلون من ألوان التذكير والوعظ، فينقلونها لنا بأسلوب سردي يقترب من النثر الخبري، كما في قول سراج مفتي:

---

(١) مناولة باليد من ديوان له مخطوط

(٢) مجلة المنهل عدد ٤٨٥ مجلد ٥٢ جمادى الآخرة ١٤١١هـ / ديسمبر ٩٠ ويناير ١٩٩١م

تلكمُ البلدةُ الحـبـيـبـةُ في القلـ
بِ ومَنْ مِـثْلُ مكةٍ نَهْـواها
كَـرّمـتْـهـا عنايةُ الله بالبيـ
ـتِ به زاد مـجْـدُها وعُـلاها
وحَـمـاها من كلّ صـاحبِ مكرٍ
ولئـيمٍ يريد مسّ حِـمَـاها
تلك ذكـرى السنين هيـهـات تُنسى
قـصـةُ الفـيلِ خُلّدَتْ ذِكْـراها
بَيّـتُـوا الكَيْـدَ يا لهـا مُـخْـزِياتٍ
دبّروها فـأُحْـرِقُـوا بِلَظَاها
نزلوا مكةً وسـاقـوا المـواشي
قَـصْـدُهُمْ فـتنةٌ تثـيـرُ أذاها
فـأتـاهمْ جـدُّ النبيَّ ليَـحْظَى
بنيـاقٍ من مـالهِ إشـتـراها
أنـا ربٌّ لـهـا وللـبـيت ربٌّ
سـوف يحـمـيـه من ظَلُومٍ تَبَـاهى
دمّـرتهمْ طيـرُ الأبابيل رَجْـمًـا
بحـجـارٍ في الفـتك مـا أمْـضاها[1]

● حرب الفجار

الفجار الثاني أو الآخر، ذكر ابن عبد ربه الأندلسي أنه (خمسة أيام في أربع سنين: أولها يوم نخلة، ولم يكن لواحد منها على صاحبه، ثم يوم شمظة لهوازن على كنانة، وهو أعظم أيامهم، ثمّ يوم العبلاء، ثمّ يوم شَرْب وكان لكنانة على هوازن، ثمّ يوم الحريرة، وكان لهوازن على كنانة، وتظاهر الناس بعد ذلك إلى السلم، على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا) [2].

(١) شعر كنانة من الجاهلية إلى العصر الأموي ٤٤٨ .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ٥ / ٢٥١ – ٢٥٣

وذكر أبو عبيدة أنه كان بعكاظ أربعة أيام: يوم شمطة، ويوم العبلاء، ويوم شرب، ويوم الحريرة وهي كلها من عكاظ فشمطة من عكاظ هو الموضع الذي نزلت فيه قريش وحلفاؤها من بني كنانة بعد يوم نخلة، وهو أول يوم اقتتلوا به من أيام الفجار بحول على ما تواعدت عليه من هوازن وحلفائها من ثقيف وغيرهم، فكان يوم شمطة لهوازن على كنانة وقريش، ولم يقتل من قريش أحد وقال خداش بن زهير:

فأبلغْ إن مررتَ به هشامًا
وعبدَ الله ابلغْ والوليدا

بأنّا يوم شمطةَ قد أقمْنَا
عمودَ الدين إنّ لهُ عَمُودا

ثم التقى الأحياء المذكورون على رأس الحول من يوم شمطة بالعبلاء، إلى جنب عكاظ، فكان لهوازن أيضًا على قريشٍ وكنانة، قال خداش بن زهير:

ألم يَبْلُغْكُمُ أنّا جَدَعْنا
لدى العَبْلاءِ خِنْدِفَ بالقِيادِ

ضربناهُمْ ببطنِ عكاظَ حتى
تولّوْا ظالعينَ من النّجَادِ

فهو يوم العبلاء. ثم التقوا على رأس الحول وهو اليوم الرابع من يوم نخلة بشرب، وشرب من عكاظ، ولم يكن بينهم يوم أعظم منه، فحافظت قريش وكنانة، وقد كان تقدم لهوازن عليهم يومان، وقيد سفيان وحرب ابنا أمية وأبو سفيان ابن حرب أنفسهم، وقالوا لا يبرح منا رجل مكانه حتى يموت أو يظهر، فسموا العنابسة وجعل بلعاء بن قيس يقاتل ويرتجز:

إن عكاظًا ماؤنا فخلّوهْ
وذا المجازِ بَعْدُ لن تحلّوهْ

فانهزمت هوازن وقيس كلها إلا بني نصر، فإنها صبرت مع ثقيف، وذلك أن عكاظًا لهم فيها نخل وأموال، فلم يغنوا شيئًا، ثم انهزموا، وقتلت هوازن يومئذ قتلاً ذريعًا، قال أمية بن الأسكر الكناني:

ألا سائلْ هوازنَ يوم لاقوا
فوارسَ من كنانةَ مُعلمينا

لدى شربٍ وقد جاشوا وجشنا
فأوعبَ في النفيرِ بنو أبينا

ثم التقوا على رأس الحول بالحريرة، وهي حرة إلى جنب عكاظ، مما يلي مهب جنوبها، فكان لهوازن على قريش وكنانة وهو يوم الحريرة.

شهد خداش بن زهير من بني عامر بن صعصعة حرب الفجار، وكان من أكثر الشعراء حديثًا في شعره عن أيام هذه الحرب، وكان يوم نخلة هو أول أيام الأفجرة، وفيه يقول خداش بن زهير:

يا شَدَّةً ما شَدَدْنا غيرَ كاذبةٍ
على سخينةَ لولا البيتُ والحرمُ

لمَّا رأوا خيلَنا تُزجى أوائلُها
آسادُ غيلٍ حمى أشبالَها الأَجَمُ

واستقبلوا بضرابٍ لا كِفَاء له
يُبدي من العُزْلِ الأكفالَ ما كَتَمُوا

ولَّوْا شِلالاً وعُظْمُ الخيلِ لاحقةٌ
كما تَخُبُّ إلى أوطانها النَّعَمُ

ولَّتْ بهم كلُّ مِحضارٍ مُلَمْلَمَةٍ
كأنَّها لِقْوَةٌ يَحْثُثُها ضَرَمُ

إذ يَتَّقينا هشامٌ بالوليد ولو
أنَّا ثَقِفنا هشامًا شالتِ الخَدَمُ

قد قرَّتِ العينُ إذ يدعون خيلَهُمُ
لكيْ تكرَّ وفي آذانها صَمَمُ

بين الأراكِ وبين المرجِ تبطَحُهُمْ
زرقُ الأسنَّةِ في أطرافها السُّهُمُ

فإنْ سمعتمْ بجيشٍ سالكٍ سَرِفًا
او بطنَ مرٍّ فاخفوا الجَرْسَ واكتتموا[1]

---

(١) المستدرك في شعر بني عامر ١٧٩/٢، وسخينة: قريش. وكانت العرب تسميها سخينة لأكلها السخن. زجّى الشيء وأزجاه: ساقه ودفعه، وآساد: جمع أسد. والغيل: الأجمة وموضع الأسد. لا كفاء له: لا نظير. والأكفال: جمع كفل، والكفل من الرجال الذي يكون في مؤخر الحرب إنّما همته في الفرار. والشلال: القوم المتفرقون، وذهب القوم شلالا: أي انشلّوا مطرودين والخبب:السرعة. وفرس محضار:إذا كان شديد الحضر وهو العدو. والململة: المعتدلة الخلق. وقيل الغليظة الصلبة.واللقوة: العقاب الخفيفة السريعة الاختطاف. وهشام والوليد: ابنا المغيرة المخزومي.وشالت: اضطربت. والخدم السيقان. وسرف: موضع من مكة على عشرة أميال. وبطن مر: واد قريب من مكة، وهو مرُّ الظهران، يعرف الآن بوادي فاطمة.

وفي اليوم الثاني من الفجار الثاني وهو يوم شمظة كانت الغلبة في أول النهار لكنانة، فلما صار آخره صبرت هوازن ومن معها من بني عامر، فاستحر القتل في قريش، وخداش هنا يبين عن ذلك، وكيف كان القتال والعراك متكافئًا في المعركة، إلاّ أنّ الغلبة في النهاية كما يقول وكما ورد لمن معه، ولذلك فإنّ ابن سلام الذي أورد أبياتًا من هذه القصيدة في طبقات الشعراء، يعدّها من المنصفات، وفيها يقول:

فأبلغ إنْ عرضتَ بنا هشامًا
وعبدَالله أبلغْ والوليدا

أولئك إنْ يكنْ في القوم خيرٌ
فإنَّ لديهمُ حَسَبًا وَجُودا

همُ خيرُ المَعَاشرِ من قريشٍ
وأوراها إذا قُدِحَتْ زُنُودا

بأنّا يومَ شَمْظَةَ قد أقمْنا
عمودَ المجدِ إنَّ لهُ عمودا

جلبنا الخيلَ ساهمةً إليهمْ
عوابسَ يَدَّرِعْنَ النَّقعَ قُودا

وبِتْنا نعقدُ السِّيمى وباتوا
وقالوا صَبِّحُوا الأَنسَ الحريدا

وقد حَتَموا القضاءَ ليجْعَلونا
معَ الإصباح جاريةً وئيدا

فجاءوا عارضًا بَرِدًا وجئنا
كما أضْرَمْتَ في الغاب الوقودا

فقالوا يالَ عمروٍ لا تفرّوا
فقلنا لا فرارَ ولا صُدُودا

فعارَكْنا الكُماةَ وعاركونا
عراكَ النُّمْرِ واجهتِ الأسُودا

عَلَوْناهُمْ بكلِّ أفلَّ عَضْبٍ
تخالُ جَماءَ وقْعتهِ خُدودا

فلم أرَ مثلَهمْ هُزموا وفُلّوا
ولا كَذيادِنا عُبُقًا مَذُودا

عددتمْ عطْفَتَيْنِ ولم تعدّوا
وقائعَ قد تَرَكْنَكُمُ حَصيدا

تركنا البيدَ والمَعْزاءَ منهمْ
تخالُ خلالها معزى صريدا

وعبداللهِ قد قتلوا فصاروا
همُ الأنكاسُ يَرْعَوْنَ النَّقيدا

تركنا عامِريهم مثل عادٍ
ومُرَّةَ أهْلكوا إلاّ الشَّريدا

أنا الحامي الذِّمارَ وليثُ غابٍ
أشُبُّ الحربَ أُشْعِلُها وَقُودا(١)

وفي اليوم الثالث وهو يوم العبلاء الذي انتصرت فيه بنو عامر وبقية فروع هوازن، وانهزمت كنانة، ويوم العبلاء هو اليوم الثاني من أيام الفجار الثاني، وكان اللقاء على قرن الحول بالعبلاء، وهو موضع قريب من عكاظ، وفيه انهزمت كنانة، يقول خداش:

ألمْ يبْلغكَ ما لاقت قريشٌ
وحيُّ بني كنانةَ إذْ أُثيروا

دهمناهمْ بأرعنَ مُكْفَهِرٍّ
فظلَّ لنا بعقوتهمْ زئيرُ

نُقَوِّمُ مارنَ الخطِّيِّ فيهمْ
يجيءُ على أسنّتنا الجزيرُ(٢)

(١) شعر خداش بن زهير ٥٥٥-٥٥٦

(٢) شعر خداش بن زهير ٥٦٤- ٥٦٥ وأرعن: جيش عظيم جرار. والعقوة: المكان المنفسح أمام المحلة ومارن الخطي: الرماح اللدنة. والجزير: فعيل بمعنى مفعول من الجزر

وقال أيضًا في هذا اليوم:

ألم يبلغكَ بالعبلاء أنَّا
ضربنا خُنْدفًا حتى استقادوا

نُبَنِّي بالمنازل عزَّ قيسٍ
وَودّوا لو تسيخُ بنا البلادُ[1]

ويتكرر هذا المعنى، ويذكر مكان حدوث الواقعة في عكاظ، فيقول:

ألمْ يَبْلُغْكُمُ أنَّا جَدعْنا
لدى العبلاء خُنْدفَ بالقيادِ

ضَربْنَاهُمْ ببطنِ عكاظَ حتَّى
تولّوا ظالعينَ من النِّجادِ[2]

وفي يوم الحريرة وهو اليوم الذي كان لهوازن على كنانة، وفيه قُتل أبو سفيان بن أمية أخو حرب بن أمية، وقُتل من كنانة ثمانية نفر، وفي ذلك يقول خداش بن زهير:

لقد بلَوْكمْ فأبلَوْكمْ بلاءَهُمُ
يومَ الحريرةِ ضربًا غيرَ تكذيبِ

إنْ تُوعِدوني فإنّي لابنُ عمِّكُمُ
وقدْ أصابوكمُ منهم بشُؤبوبِ

وإنَّ ورقاءَ قد أودى أبا كنفٍ
وابنَيْ إياسٍ وعمرًا وابنَ أيّوبِ

وإنَّ عثمانَ قد أرْدى ثمانيةً
منكمْ وأنتم على خُبْرٍ وتجريبِ

يُخالس الخيلَ طعنًا وهْي مُحْضِرةٌ
كأنما ساعِداهُ ساعِدَا ذيبِ[3]

---

(1) شعر خداش بن زهير ٥٥٢

(2) المستدرك من شعر بني عامر ١٦٥

(3) شعر خداش بن زهير ٥٤٨ والحريرة: تصغير حَرّة موضع بين الأبواء ومكان قرب نخلة.

وفي هذا اليوم يقول ربيعة بن عثمان يصف قتل ابن محمية الديلي لزهير بن ربيعة ابي خداش في يوم الحريرة من أيام الفجار:

فسائلْ جعفرًا وبني ابيها
بني البرزي بطفخةَ والملاحِ
عشيّةَ لم يكنْ للرمحِ حظٌ
وكان الحظُ فيهِ للصِّفاحِ
غداةَ اتتهُمُ حُمرُ المنايا
يَسُقنَ الموتَ بالأجلِ المُتاحِ
تركنا ثاويًا يزقو صداهُ
زهيرًا بالعوالي والصِّفاحِ
أُتيحَ لهُ ابنُ محميةَ بنَ عبدٍ
فاعجلهُ التُسومُ بالبطاحِ[1]

وهذا رياح بن الأعلم القشيري ينتقد هذه الحرب، وهو لا يشعر بالندم عن تغيبه عنها، بل لو تكررت، فإنه لن يندم لو تغيب أيضًا، بل هو يقرر أنه سيتغيب حتمًا عنها لو تكرر حدوثها، فيقول:

تغيّبتُ عن يومي عكاظ كليهما
وإنْ يكُ يومٌ ثالثٌ اتجنّبُ
وإن يكُ يومٌ رابعٌ لا اعُدْ لهُ
وإنْ يكُ يومٌ خامسٌ اتنكّبُ[2]

● الأحلاف

تعاهدت قريش في الجاهلية على عدة أحلاف بين قبائل مكة، ومع جيرانها أحيانًا، ومن هذه الأحلاف:

(١) شعر كنانة من الجاهلية حتى اخر العصر الأموي ٢٥٠، البرزي: لقب بني بكر. طفخة: جبل لبني كلاب.
(٢) المستدرك في شعر بني عامر ٢/١١٨.

• **حلف الفضول**

هذا الحلف من أفضل أعمال قريش في الجاهلية، فقد تحالفوا على رد كل مظلمة وقد حضره رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأيده، وفيه قال: «قد شهدتُ مع عمومتي في دار ابن جدعان من حلف الفضول ما لو دُعيتُ إليه اليوم لأجبت، وما أُحبُّ أنّي نقضته ولي حمرُ النِّعم [1]».

قال أبو هلال العسكري: ومن أوائل أفعالهم حلف الفضول وروي (أن رجلاً من بني زبيد من مذحج قدم مكة بسلعة، فباعها من العاص بن وائل وكان شريفًا، فظلمه ثمنها، وأبت الأحلاف: عبدالدار ومخزوم وجمح أن يعينوه عليه، فأوفى الزبيدي على أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته):

يا آلَ فهرٍ لمظلوم بضاعتُهُ
ببطن مكةَ نائي الدار والنَّفرِ
ومُحْرِمٌ شَعِثٌ لم يَقْضِ عُمْرَتَهُ
يا للرجال وبين الحِجْرِ والحَجَرِ
هل مُخْفِرٌ من بني سهمٍ بخُفرتِهِ
فعازلٌ أم ضلالٌ مالُ معتمرِ
إنَّ الحرامَ لمن تمَّتْ حرامتُهُ
ولا حرامَ لثوبِ الفاجرِ الغُدُرِ [2]

فقال الزبير بن عبدالمطلب: ما لهذا مترك، فاجتمعت: زهرة وتيم وأسد في دار عبدالله بن جدعان وصنع لهم طعامًا، فتحالفوا ليكونُنَّ يدًا على الظالم للمظلوم حتى يردوا حقه إليه، وعلى التأسي في المعاش.

فقالت قريش: قد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثمَّ أتوا العاص بن وائل، فانتزعوا سلعة الزبيدي من يده، فدفعوها إليه.

---

(١) الأوائل لأبي هلال العسكري ١ / ٩٦

(٢) الأوائل ١ / ٩٤ – ٩٥

وفي ذاك يذكر الزبير بن عبدالمطلب بن هاشم حلف الفضول قائلاً:

حلفتُ لنعقدنْ حلفًا عليهمْ
وإنْ كنّا جميعًا أهْلَ دارِ
نُسمّيهِ الفضولَ إذا عقدْنا
يعزُّ به الغريبُ لدى الجوارِ
ويعلمُ مَنْ حوالي البيت أنّا
أُباةُ الضّيْمِ نمنعُ كلَّ عارِ
إذا رامَ العُداةُ لنا حَرَامًا
أقمنا بالسُّيوفِ والازْوِرارِ[1]

وقال أيضًا:

إنَّ الفضولَ تحالفوا وتعاقدوا
ألاّ يقيمَ ببطن مكةَ ظالمُ
أمرٌ عليه تعاهدوا وتواثقوا
فالجارُ والمُعْتَرُّ منهمْ سالمُ[2]

وورد في سبب آخر (أنّ رجلاً من ثمالة باع متاعًا من أُبيٍّ بن خلف فلَوَاهُ وذهب بحقه، فاستجار برجل من بني جُمح، فلم يقم بجواره، فقال:

يا لقصيٍّ كيف هذا في الحرمْ
وحرمة البيت واخلاق الكرمْ
أُظْلَمُ لا يُمْنعُ منّي مَنْ ظلمْ

وبلغ الخبر عباس بن مرداس، فقال:

إنْ كان جارُكَ لم تنفعْكَ ذِمّتُهُ
وقد شربتَ بكاسِ الذّلِّ أنفاسَا

---

(١) إتحاف الورى ١ / ١٢١

(٢) إتحاف الورى ١/ ١٢١

فـاتِ الـبـيــوتَ وكنْ من أهـلـهــا صَـدَدا

لا تـلـقَ نـاديَـهمْ فُــحْـــشـًـــا ولا بـاسَــا

ولـم تكُنْ بفناءِ الـبـيـتِ مُـعْـتَـصِـمًـا

تـلـقى ابنَ حــربٍ وتـلـقَ الــمــرءَ عَـبَّــاسـا

ســـاقي الـحـــجــيـج وهـذا يـاســرٌ فـلـجٌ

والـمــجـدُ يورثُ أخـمــاسًـا وأسـداسـا

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردّا عليه متاعه.

ويُقال: إنّ سبب حلف الفضول أن قريشًا كانت تتظالم في الحرم، فقام عبدالله بن جدعان، والزبير بن عبدالمطلب فدعوا إلى التحالف على التناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابوهما وتحالفوا في دار ابن جدعان)[1].

وقال الزبير بن عبدالمطلب:

حـلـفـتُ لـنـعْـــقــدَنْ حـلـفًـــا عـلـيــــهمْ

وإنْ كـنّـا جـــــمــــيـــــعًــــا أهـلَ دارِ

نُـســمّـــيــهِ الـفــضــولَ إذا عــقــدنـا

يَـعــــزُّ بـهِ الـغــــريـبُ لـدى الـجــــوارِ

ويـعـلـمُ مَـنْ حَــــوالـي الـبـــــيـتِ أنّـا

أُبـاةُ الـضّــــيـمِ نـمـنـعُ كـلّ عـــــارِ

إذا رامَ الـعــــــداةُ لـنـا حــــرامًــــا

أقــــمـنـا بـالـسُّــــيـــوفِ والازورار[2]

وفي قصة تتعلق بحلف الفضول يورد أبو هلال العسكري أنه (ورد رجل من خثعم مكة، ومعه بنت يقال لها القَتول، من أحسن الناس وجهًا، فعلقها نُبيهُ بن الحجاج، وغلب عليها أباها، فأتى أبوها حلف الفضول، فحالوا بينها وبينه، قال نُبيهُ:

---

(١) إتحاف الورى١٣٢

(٢) الروض الانف ١/ ١٥٦ والسيرة النبوية لابن كثير ١/ ٢٥٩

لولا الفضولُ وحِلْفُها
والخوفُ من اعدائهَا
لدنوتُ من ابياتها
ولَطُفْتُ حولَ خِبَائها
وشربتُ فضلةَ ريقِهَا
ولثمْتُ في اخْشَائِها[1]

وقال:

راح صحبي ولم أُحيِّ القَتولا
لم اودِّعهمُ وداعًا جميلا
إذْ اجدَّ الفضولُ ان يمنعوها
قد اراني ولا اخاف الفضولا[2]

ويمدحهم حذيفة العدوي بجمع حلف الأحابيش، فيقول:

وهم جمعوا حلفَ الأحابيش كلُّها
وهم نكلوا عنّا غواة بني بكرِ[3]

وفي الحرب التي جرت بين خزاعة وكنانة قبل فتح مكة يقول الأخزر بن لعط الديلي ذاكرًا الأحابيش:

الا هلْ اتى قُصوَى الأحابيش انَّنا
رددنا بني كعبٍ بافْوَقَ ناصلِ
حبسناهمُ في دارةِ العبدِ رافعٍ
وعندَ بُديلٍ مَحبسًا غيرَ طائلِ
نُذَبِّحُهُمْ ذبحَ التيوسِ كانَّنا
أُسودٌ تَبارَى فيهمُ بالقواصلِ[4]

---

(١) الأوائل ١/ ٩٥
(٢) المصدر نفسه ١/ ٩٦
(٣) سيرة ابن هشام ١ / ١٧٤
(٤) شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي ٣٧٦

قال الحارث بن حلزة اليشكري ذاكرًا حلف ذي المجاز في معلقته:

واذكروا حلفَ ذي المجاز وما قُدْ
دِمَ فيه العهودُ والكفلاءُ(١)

ويمدحهم الحطيئة بتوثيق أحلافهم، وأنهم يوفون بهذه الأحلاف التي يعقدونها عند البيت، كما في قوله:

لله درّهمُ قومًا ذوي حَسَبٍ
يومًا إذا جُلْبةٌ حلّتْ مراسيها
أَهْلُ الحِفاظِ إذا ما أزْمَةٌ أزَمَتْ
بالنّاس حاضِرِهِمْ منها وباديها
والموثقون لجارِ البيت إن عقدوا
ومنهمُ سابقُ الجلّى وداعيها(٢)

• **صحيفة قريش**

قام مجموعة نفر من القرشيين هم: هشام بن عمرو، ومطعم بن عدي بن نوفل، وزمعة ابن الأسود بن المطلب، وأبو البختري بن هشام بن الحارث، فمزقوا الصحيفة، وتبرّؤوا منها، وفي ذلك يقول أبو طالب:

جزى اللهُ رهطًا من لؤيٍّ تتابعوا
على ملأ يُهدى لحزمٍ ويُرشَدُ
قعودًا لدى جنب الحَطيم كأنّهمْ
مَقاولةٌ بلْ همْ أعزُّ وأمجدُ
همُ رجعوا سهلَ بنَ بيضاء راضيًا
فسُرَّ أبو بكرٍ بها ومحمدُ
ألم يأتكُمْ أنَّ الصّحيفةَ مُزِّقتْ
وإنْ كانَ ما لمْ يرْضَهُ اللهُ يَفْسُدُ

(١) أسواق العرب ٣٥٠
(٢) ديوان الحطيئة ٢٨٢

أعـــانَ عليـــهـــا كلُّ صـــقـــرٍ كـــانّهُ
شـــهـــابٌ بكفّيْ قـــابسٍ يتـــوقّـــدُ
جـــــريءٌ علـى حلِّ الأمــــورِ كـــــانّهُ
إذا مــا مـشى في رفـرفِ الدرعِ أجْـوَدُ[1]

● الهجرة إلى الحبشة

شارك الشعر في تصوير عذابات المسلمين في مكة، وكيف تحولت حياة من أمن إلى حياة خوف واضطهاد، وهذا عبدالله بن الحارث السهمي بعد أن استقر في الحبشة يدعو إخوانه من المسلمين ليلحقوا به، يقول:

يا راكـــبًـــا بلِّغَنْ عني مـــغلغلـةً
من كـــان يرجـــو بلاغَ الله والدينِ
كلّ امـرئٍ من عـبـادِ الله مـضطهـدٍ
ببطن مكةَ مــقــهــورٍ ومــفــتــونِ
إنّا وجــــدنا بلادَ اللهِ واســـعــــةً
تُنجي من الذلِّ والمــخــزاةِ والهــونِ
فــلا تقــيــمــوا على ذلِّ الحــيــاة وخــزْ
يٍ في الـمـمـات وعـيبٍ غـيـرِ مـامـونِ[2]

ويذكر نفي قريش إياهم من بلادهم:

نَفَـتْـهم عـبـادُ الجنّ من حـرِّ أرضـهمْ
فـاضْحَـوا على أمـرٍ شـديد البـلابلِ

---

(١) نسب قريش ٤٣١
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٠ وهديل الحمام ٢/ ٦٣٨

• فتح مكة

لقد كان فتح مكة هو فتح الفتوح، والفتح الأعظم الذي أطلق عليه في القرآن الكريم (الفتح) فأصبحت علمية الفتح عليه وحده دون سواه، فقال تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح [1]».

وكانت بداية الفتح أن أعانت قريش بالسلاح وفي نفر منها بني الديلي بن بكر على خزاعة، فجاؤوهم ليلاً فقتلوا منهم عشرين رجلاً، وأحست قريش بالندم لأن في هذا العمل نقضًا لصلح الحديبية، ولما حدث لخزاعة ما حدث، خرج عمرو بن سالم الخزاعي ومعه رجال من خزاعة حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:

يا ربِّ إنّي ناشدٌ محمدا ... حلفَ أبينا وأبيهِ الأتلدا

قد كنتمُ وُلْدًا وكنّا والِدًا ... ثُمَّتَ أسلَمْنا ولم نَنْزِعْ يَدا

إنَّ قريشًا أخلفوكَ الموعدا ... ونقضوا ميثاقَكَ المؤكّدا

وجعلوا لي في كَداءَ رُصَّدا ... وزعموا أنْ لستُ أدعو أحدا

وهم أذلُّ وأقلُّ عددا ... همْ بيَّتونا بالوَتِيرِ هُجَّدا

وقتَّلونا رُكَّعًا وسُجَّدا [2]

ويبشر حسان بن ثابت بهذا الفتح، في قوله مهددًا ومتوعدًا كفار قريش، ويصور لنا الفتح عيانًا، فها هي خيول المسلمين تعبر مكة من ثنية كداء في أعالي مكة، ولا تجد من الرجال من يصدها، فتقف النساء بخمرهن يحاولن صدّ الخيول المغيرة، وفي ذلك من الاستهزاء والتهوين من أمر المشركين، والطعن في رجولتهم حين يتركون نساءهم في مواجهة الخيول بخمرهن:

عَدِمنا خَيلَنا إنْ لم تَرَوْها ... تثيرُ النقعَ موعِدُها كَداءُ

(1) سورة النصر آية ١ (2) إتحاف الورى ١/ ٤٨٦ – ٤٨٧

تظلُّ جيادُنا مُتَمَطِّراتٍ
تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ
لنا في كلِّ يوم من مَعَدٍّ
سِبابٌ أو قِتالٌ أو هِجاءُ[1]

ويتفق عبدالله بن رواحة مع حسان في هذه البشرى، فيقول:

عَدِمْتُ بُنَيَّتي إنْ لم تَرَوْها
تُثيرُ النَّقْعَ من كَنَفَيْ كداءِ[2]

وينقل لنا الشعراء كيف تم تطهير الكعبة من الوثنيات، وتدمير الأصنام، ففي ما ترويه كتب السيرة في فتح مكة، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما مرّ بصنم اشار إليه بقضيب في يده، وهو يتلو قول الله تبارك وتعالى: «قل جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا [3]»، «وما يبدئ الباطل وما يعيد [4]» فيقع الصنم على وجهه حتى مرّ عليها كلها، وفي ذلك يقول فضالة بن عمير بن الملوّح الليثي:

لو ما رايتَ محمدًا وجنودَهُ
بالفتح يوم تُكسّرُ الأصنامُ
لرايتَ نورَ الله اصبحَ بيِّنًا
والشركَ يَغْشَى وَجْهَهُ الإظلامُ[5]

وهذا ضرار بن الخطاب يناشد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، ويستنجد به على سعد بن عبادة الذي يرى قصم ظهر قريش في هذا الفتح كما يقول:

يا نبيَّ الهدى إليكَ لَجَاحَيْ
يُ قريشٍ وانتَ خيرُ لَجَاءِ

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ٨
(٢) ديوان عبدالله بن رواحة ١٥٥
(٣) سورة الإسراء آية ٨١
(٤) سورة سبأ آية ٤٩
(٥) شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي ٤٩١

حين ضاقتْ عليهمُ سَعَةُ الأر
ضِ وعاداهمُ إلهُ السَّماءِ

فالتقتْ حَلْقَتا البطانِ على القو
م ونُودوا بالصَّيْلَمِ الصَّلعاءِ

إنَّ سَعْدًا يريدُ قاصِمةَ الظهـ
ـرِ باهلِ الحَجُونِ والبطْحَاء

خزرجيٌّ لو يستطيعُ من الغيـ
ـظِ رَمَانا بالنَّسْرِ والعوّاء

واغِرُ الصَّدرِ لا يهمُّ بشيءٍ
غير سفك الدما وسَبي النساء

قد تلظّى على البطاح وجاءتْ
عنهُ هندٌ بالسَّوءةِ السَّواء

إذْ يُنادي بذُلِّ حيِّ قريشٍ
وابنُ حربٍ بدا من الشهداء

فلئنْ اقحمَ اللقاء ونادى
يا حُماةَ اللّواء أهلَ اللّواء

ثُمَّ ثابتْ إليه من بُهَمِ الخز
رَجِ والأوس أنْجُمُ الهيجاء

لتكونَنْ بالبطاح قريشٌ
فقعةَ القاع في اكفِّ الإمَاء

فأنهَيْنهُ فإنَّهُ اسَدُ الأُسْـ
ـدِ لدي الغاب والغٌ في الدماء

إنَّهُ مُطرقٌ يُديرُ لنا الأمـ
ـرَ سكوتًا كالحيَّةِ الرقْطَاء[1]

(1) العقد الثمين ٥ / ٥٠

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة، فنزع اللواء من يده، فجعله بيد قيس ابنه.

ويتأهب حماس بن قيس لقتال المسلمين القادمين لفتح مكة، فيقول:

إنْ يُقبلوا اليوم فما لي علّهْ
هذا سلاحٌ كاملٌ وألّهْ
وذو غرارين سريعُ السّلّهْ[1]

فانهزم حتى دخل على امرأته، وقال لها: أغلقي عليَّ بابي. فقالت له: أين ما كنت تقول؟ فأنشد:

وأنتِ لو رأيتنا بالخندمهْ
إذ فرَّ صفوانٌ وفرَّ عكرمهْ
ولحقتنا بالسيوف المسلمه
يقطعنَ كلَّ ساعدٍ وجمجمهْ
ضربًا فلا تسمعُ إلاّ غمغمه
لهم نَهيتٌ حولنا وهمهمهْ
لم تنطقي في اللّوم أدنى كلمهْ[2]

ويستمر الحديث عن أعظم فتح وأجله، وبخاصة في شعر المديح النبوي، وبالذات في العصر الوسيط، الذي جعله الشعراء حلقة من ضمن حلقات المدح السيَري، فهم يعرضون في أغلب مديحهم جوانب من سيرة النبي الأعظم عليه السلام، ويبدو فتح مكة من طاقات النور المبهرة في مسيرته عليه السلام، وحتى لا يتكرر الكلام والنماذج التي مرت في الحديث عن مدحه عليه أفضل الصلاة والسلام، فسأقتصر على نموذج واحد، وأشير إلى مواضع النماذج المتعددة التي ذكرت هذا الحدث الهام، ومن جميل وصف هذا الحدث ما أورده الإمام أبو محمد عبدالله بن زكريا الشقراطيسي المغربي المتوفى في نهاية القرن الخامس الهجري، يقول:

---

(١) شعر كنانة من الجاهلية إلى العصر الأموي ٤٨٤

(٢) إتحاف الورى ١/ ٥٠٠

ويومَ مكةَ إذْ اشرفتَ في أُمَمٍ
تضيقُ عنها فِجاجُ الوعثِ والجبلِ

خوافقٌ ضاقَ ذرعُ الخافقَيْنِ بها
في قاتمٍ من عجاجِ الخيلِ والإبلِ

وَجَحْفَلٍ قذفِ الارجاءِ ذي لجبٍ
عَرَمْرمٍ كزهاءِ الليلِ مُنسحلِ

وانتَ صلّى عليكَ الإلهُ تقْدُمُهمْ
في بهوِ إشراقِ نورٍ منكَ مكتملِ

خشعتَ تحتَ بهاءِ العزِّ حينَ سمتْ
بك المهابةُ فِعْلَ الخاضعِ الوَجلِ

وقد تباشرَ املاكُ السماءِ بما
ملكتَ إذ نلتَ منهُ غايةَ الأملِ

والأرضُ ترجفُ من زهوٍ ومن فرحٍ
والجوُّ يُزهِرُ إشراقًا من الجذلِ

والخيلُ تنثالُ زهوًا في اعنّتها
والعيسُ تنثالُ زهوًا من ثُنى الجُدُلِ

لولا الذي خطّتِ الأقلامُ من قَدَرٍ
وسابقٌ من قضاءٍ غيرِ ذي حِوَلِ

اهلّ ثهلانُ بالتهليلِ من طربٍ
وذابَ يذبلُ تهليلاً من الذُّبُلِ

الملكُ للهِ هذا عزُّ من عَقِدَتْ
لهُ النبوّةُ فوقَ العرشِ في الأزلِ

شعبتَ صَدعَ قريشٍ بعدما قذفتْ
بهم شَعوبُ شِعابِ السّهلِ والقُلَلِ

قالوا محمدُ قد زارتْ كتائبهُ
كالأُسْدِ تزارُ في انيابها العُصُلِ

فويلُ مكةَ من آثارِ وطأتهِ
وويلُ أمِّ قريشٍ من جوى هُبَلِ
فجُدْتَ عفوًا بفضلِ العفوِ منكَ ولمْ
تُلْمِمْ لهمْ بأليمِ اللومِ والعذَلِ
زانَ الخشوعَ وقارٌ منهُ في خَفَرٍ
أرقُّ من خفرِ العذراءِ في الكِلَلِ
وطُفتَ بالبيتِ مسرورًا وطافَ بهِ
من كانَ عنهُ قُبَيْلَ الفتحِ في شُغُلِ
حجزْتَ بالأمنِ أقطارَ الحجازِ معًا
ومِلْتَ بالخَيْفِ عن خوفٍ وعن مللِ[1]

وشارك الشعر الحديث في الحديث عن فتح مكة، فكان هذا الفتح الأعظم من ركائز الحديث عن القصيدة النبوية أو المكية، ولذلك نجد كثيرًا من الشعراء الذين تحدثوا عن ولادة الرسول عليه السلام، أو الهجرة فإنهم قد جعلوا فتح مكة منفذًا من منافذ القصيدة، وأساسًا من أسس بنائها.

وهذا أحمد الجدع شاعر معاصر، يصوِّر لنا فتح مكة بأنّه وحي إلهي، وفي ذهنه (سورة النصر) وكيف لبّى صحابته نداء الفتح، فكان النصر الأسمى، يقول:

ورفَّتْ على قلب الحبيبِ رسالةٌ
روائعُ آياتٍ بها ربُّنا أوحى
أضاءَ سماءَ الدينِ أنباءُ نصرهِ
وأعداءُ دينِ اللهِ في ساحنا صَرْعَى
ونادى أسودُ اللهِ لبيكِ مكةُ
فهبَّتْ زحوفٌ نحوَ كعبتها تَتْرَى
وأعطى رسولُ الله أمنًا لأهلِهَا
وطارَ بلالٌ فوق كعبَتِها يَرْقَى

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٣ / ١٥٧ –١٥٨ والفجاج: الطرق. والوعث: اللين السهل. والجحفل: الجيش العظيم. واللجب: الصوت. والقذف: الفلاة البعيدة. والرهاء: شبيه الدخان والغبرة. والمنسجل: الجاري. والحول: التحول. وثهلان ويذبل: جبلان. والذبل: الرماح. وانظر فيما ورد من شعر في المدائح النبوية ويخص فتح مكة ١ /٩٢، ٢١٦، ٢٨٠، ٣٧٤ / ٣ / ١٦٧

ونـادى بـلالٌ بـالأذان مُـكَـبِّـــــــرًا
وسـارَ صـدى التكبـيـرِ من صـوتهِ يَنْدَى
جــيـــوشُ نبيٍّ اللـهِ تجنـي ثـمــارها
ومكةُ رَبْعُ الفــتحِ والـوَثْبَـــةِ الأولى[1]

● الفتن والحوادث

كانت الحرب التي وقعت بين عبدالله بن الزبير والجيش الأموي بقيادة الحجاج، وتم فيها ضرب الكعبة بالمنجنيق، من الحوادث المؤلمة التي ظهر أثرها في الشعر ظهورًا واضحًا، وعبَّر الشعر فيها عن شدة أثر هذه الفتنة في نفوس من عاشوها، وارتبطت بهذه الفتنة ألفاظ ومعاني وصور، مثلتها تمامًا.

من ذلك أن الجيش الأموي لمَّا حاصر ابن الزبير عاذ بالكعبة، وأصبح هذا اللقب يطلق على ابن الزبير، ونجده في قول زوجته أم هاشم زُجلة بنت منظور بن زبَّان الفزارية تهجو الحجاج، وتصفه بالجهل، كونه يطلبها للزواج بعد مقتل زوجها، فتقول:

ابعــــدَ عــــائذِ بيت اللـهِ تَخْطِبُني
جــهـــلاً وغيُّ الجــهلِ مــذمــومُ[2]

وقال عمرو بن سعيد متمنيًا نجاة ابن الزبير:

فــإنْ ينجُ منهــا عــائذُ البـيـتِ ســالـمًـا
فــمــا نالنا منكمْ وإنْ شــفَّنا جللْ[3]

ويفتخر جرير بإجارة عائذ البيت، فيقول:

وعــــائـذ بـيت ربِّك قــــد اجَـــرْنـا
وابلـينـا فــــمـــا نُسِيَ البــــلاءُ[4]

---
(١) قصيدة باليد من ديوان مخطوط
(٢) غاية المرام ١ / ١٦١
(٣) المصدر نفسه ١/ ١٦١
(٤) المصدر نفسه ١/ ١٦٢

وتستدعي هذه الفتنة ما حصل عام الفيل، وما كان فيه من هلاك أبرهة وجنده، كقول الفرزدق يهجو الحجاج بن يوسف الثقفي الذي رمى الكعبة بالمنجنيق، ويدعو عليه بأن يصيبه ما أصاب أصحابَ الفيل، يقول:

فلما عَتَا الحجاجُ حينَ طغى بهِ
غنىً قالَ إنّي مرْتقٍ في السّلالمِ
فكان كما قال ابنُ نوحٍ سأرتقي
إلى جبلٍ من خشيةِ الماءِ عاصمِ
رمى اللهُ في جثمانهِ مثلَ ما رمى
عن القبلةِ البيضاءِ ذاتِ المحارمِ
جنودًا تسوقُ الفيلَ حتى أعادها
هباءً وكانوا مُطْرَخِمّي الطّراخِمِ[1]

ويقابل هذه الرؤية رؤية أخرى مضادة، ترى في ما حدث هو تطهير للبيت الحرام من الفاسقين الملحدين، فهجاء الحجاج من قبل الفرزدق، يقابله مدح يزيد من قبل أبي صخر الهذلي الذي يقول فيه:

وقدْ أميرَ المؤمنينَ الذي رَمَى
بِجَاواءَ جُمهورٍ تمورُ إكامُها
من ارضِ قُرى الزيتونِ مكةَ بعدما
غُلبنا عليها واستُحِلَّ حرامُها
والحدَ فيها الفاسقون وافسدوا
فخافتْ قَواشيها وطارَ حمامُها
فطهَّرَ منهم بطنَ مكةَ ماجدٌ
ابيُّ شَبَاةِ الضَّيْمِ حينَ يُسامُها[2]

ومن الفتن والحوادث ما ورد في شعر عائشة العثمانية من حريق ألم بمكة فأثّر فيها، ويبدو أنَّ هذا الحريق جاء نتيجة الحروب التي وقعت فيها، وتصف لنا حال الناس، وما آلوا إليه من موت وأسر وهروب، تقول من قصيدة وصفها ابن المعتز بالمستحسنة:

---

(١) ديوان الفرزدق ٨٥٣

(٢) شرح شعر الهذليين ٢/ ٩٥٥

ارقتُ لبرقٍ بدا ضوءُهُ
بمكةَ يبدو ويخفى مِرارا
فبتُّ أُمَلْمَلُ في مَضْجَعي
وأبكي جِهارًا وأبكي سِرارا
لأمِّ القرى خُرِّبَتْ بالحريق
ومات بها الناسُ سَيْفًا ونارا
إلى الله أشكو مقامَ العِدَى
بمكة قد حاصروها حصارا
وأسرى تقطَّعُ أيديهمُ
فماتوا صفوفًا وماتوا حذارا
فمن صابرٍ نفسهُ في البلاءِ
ومن خائفٍ فرَّ منها وطارا
ومن حاملٍ نفسهُ في السُّفنِ
يجوبُ الدُّجى ويخوضُ البحارا
فيا قريةً كنتِ مأوى الضعيفِ
إذا لم يجد في سواها قرارا
ومأوى الغريبِ ومأوى القريبِ
وآمنةً لَيْلَها والنَّهارا
سأبكي قريشًا لِمَا نالها
وبدَّلها الخوفُ دارًا فدارا
وأضحوا عبابيدَ قد شُرِّدوا
وحَلُّوا الجبالَ وحَلُّوا القفارا
بجيرانِ بيتكَ حلَّ النَّكالُ
وقد عزَّ من كان لله جارا[1]

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ٤٢٤

وفي دخول الخوارج لمكة بقيادة أبي حمزة الشاري، هرب عبدالواحد بن سليمان، وخلّى مكة وسار إلى المدينة، فدخلها أبو حمزة بغير قتال، فقال أحد الشعراء في عبدالواحد يهجوه:

زارَ الحجيجَ عصابةٌ قد خالَفُوا
دينَ الإله ففرَّ عبدُ الواحدِ
تركَ الحلائلَ والإمارةَ هاربًا
ومضى يُخَبِّطُ كالبعيرِ الشاردِ[1]

ويحذِّر الوزير أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني مما يحدث من فتن بمكة، فيقول:

أيا أسفًا للدين إذ ظلَّ نُهْبَةً
بأعْيُنِنا والمسلمون شُهودُ
أفي حَرمِ الرحمن يُلحدُ جَهْرَةً
ويُجْعَلُ أشراكَ الإلهِ يهودُ
ويُثْلَبُ بيتُ الله بين بيوتكمْ
وقادرُهُ عن ردِّ ذاكَ قعيدُ
ويوضعُ للدّجالِ بيتٌ بمكّةٍ
ويخفى عليكم منزعٌ وقصودُ
أعيذكُمُ أنْ تُدهنوا فيَمَسّكُمْ
عقابٌ كما ذاقَ العذابَ ثمودُ[2]

ومن هذه الفتن ما حدث في عام ٩٩٥ هـ في زمن الشريف محمد بن بركات أبو نمي الثاني، فقد حصلت فتنة في يوم عيد النحر بين أمير الحج المصري المسمى محمود وبين الشريف المذكور، ويبدو أن محمودًا هذا كان طامعًا في إمارة مكة، فحصلت مقتلة، مما أدى ترك الحجاج لبعض المناسك، لكنه لم يحقق أهدافه، فقال الخطيب عبدالباسط بن أيوب يذكر هذه الوقعة، ويرفعها شكوى إلى السلطان سليمان خان، يقول منها:

---

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٩٥ والكامل لابن الأثير ٥/ ١٥١، والعقد الثمين ٧/ ١٥٣، وإتحاف الورى ٢/ ١٦١
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢/١/ ٩٢-٩٣

يا إمــامًــا بالعــدل في الناس ســارا
وهُمَـــامًـــا قـــد دمّـــر الكفّـــارا
هذه قـــصـــةٌ لبـــابِكَ جـــاءتْ
من أُنـاسٍ ممّا دهـاهُمْ حَـــيَـــارى
نَظَمــتْــهــا قــريحــةٌ شــاهدتْ في
عِـتْـرةِ الـمـصطفى امــورًا كِـبَـارا
هُوجــــمتْ دورهُم بـخــــيلٍ وَرَجْلٍ
واســتــبــاحــوا عِـرضًـا ومــالاً ودارًا
ورمُـــوا بالنّـبـــال في حـــرم الـلـ
ـهِ فَـضَـحّـوا صـغـارَهُمْ والكِبـارا
آل بيت الرســولِ حلّ حِـــمــــاهُمْ
واســتـبـيـحتْ لهمْ دمـاءٌ جـهـارا
مــا اســتـمـعنا ولا رأينا كـهـذا
لا رعـى الـلـه من بـهــــذا أثـارا
قــد أتانا مـحـمـودُ في إمــرة الحَجْ
جِ وقـــد صـــار بالأذى أمّـــارا
حكّمَ السّــيْفَ في أعـــزِّ نفـــوسٍ
وســـقـــاها كـــاس الرّدى وأدارا
قَـــتَلَ الناسَ أظهــر السّــفْكَ ظلمًـــا
جـــال بالســيف يَمْنَةً ويســـارا
ترك الـهَــدْيَ والـضــحــايا وضـحّى
بدمــاء الأشــراف فــيــهــا وســارا
حَـــرَمٌ آمنٌ ويُقـــتلُ فـــيــــه
عِـتْـرَةُ الـمـصطفى جـهـارًا نـهـارا
إنّ هـذا أمـــــــرٌ فظيـعٌ شـنـيـعٌ
مُـنْكرُ الشّـــانِ يُذْهِشُ الأبصـــارا

قـــــــد تركنـا لأجلـهِ واجـــبــــاتٍ

ورَفَــضْنا الــمــبــيتَ والإعـــتِــمــارا[1]

ومما ورد من شعر في حوادث مكة وصف الشعراء للسيول التي كثرت في القرن الحادي عشر الهجري، وألحقت أضرارًا جسيمة في بنية الحرم الشريف، ومن أهمها «سيل سنة ١٠٢٣هـ، وسيل سنة١٠٣٣هـ وقد سالت منه أودية مكة، وامتلأ المسجد الحرام، وعلا الماء حتى حاذى الحجر الأسود [2]»، وقد وصف أحمد بن بكر بن سالم سيلاً عام ١٠٧٣هـ فقال:

قَــهْـقَــةَ الرَّعْــدُ عندمــا ابتــسمَ البر

قُ فــابكى الـغــمــامُ قطرَ الـمــيــاهِ

واذابـا قـلـوبَـنَـا الـخـــــوفُ والـرعـ

ـبُ فـــويلٌ لـغـــافلِ القلبِ ســـاهِ

واتـانـا طوفـــــانُ نـوحٍ وبـالـمــــــو

تِ قــطـــعــنــا لــولا جــنــابُ الإلـــهِ[3]

• فتنة القرامطة

في عام سبعة عشر وثلاثمائة وفي يوم الإثنين السابع من ذي الحجة هاجم أبو طاهر القرمطي في ما يقارب الألف من أتباعه المسجد الحرام، وتروي كتب التاريخ أنهم: (دخلوا المسجد الحرام وأبو طاهر سكران راكب فرسًا له، وبيده سيف مسلول، فصفر لفرسه، فبال عند البيت، وأسرف هو وأصحابه في قتل الحجاج، وأسرهم ونهبهم، مع هتكه لحرمة البيت، وكان الناس يطوفون حول البيت والسيوف تقرضهم، وكان علي بن بابويه يطوف بالبيت والسيوف تأخذه، فما قطع طوافه، وهو ينشد:

تـرى الـمُــحـــبينَ صَـــرْعَى في ديارهِمُ

كَـفِـتْـيَـــةِ الكهفِ لا يدرونَ كم لبـــثــوا

(١) الإشراف في تاريخ الأشراف ٣٠٠

(٢) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشرالهجري ٢٧٢

(٣) المرجع نفسه ٢٧٢

وصعد أبو طاهر بنفسه على باب الكعبة، واستقبل الناس بوجهه، وهو يقول:

انـــا بـــالـــلـــهِ وبـــالـــلـــهِ انـــا
يَخلُقُ الخَلْقَ وافنيـــــــهم انا)[1]

وكان هذا الحدث أعظم فتنة تعرض لها الحرم الشريف، حيث قام هذا القرمطي بعد قتل الآلاف من عباد الله، بأخذ أموال الكعبة وهتك أستارها، ونهب دور مكة، وقلع الحجر الأسود، وفعل كل القبائح والمنكرات، واستباح الحرمات، وأتى الكبائر في بيت الله وحرمه، ثم لم يكفه ذلك، بل قال شعرًا يدل على عظيم زندقته كما يقول ابن النجم، يقول في هذا الشعر:

فلو كـــان هذا البـــيتُ للهِ ربِّنا
لصبَّ علينا النارَ من فـــوقنا صَـــبّـــا
لأنّا حَـــجَـــجْنا حـــجـــةً جـــاهليـــةً
مُـــحَلّلَةً لم تُبْقِ شَـــرْقًـــا ولا غَـــرْبا
وأنّا تركنا بين زَمْـــزَمَ والصَّـــفـــا
جنائزَ لا تبـــغي سِـــوى ربِّهـــا ربّا[2]

****

(١) العقد الثمين ٦/ ١٤٣، وإتحاف الورى ٣٧٥
(٢) إتحاف الورى٢/ ٣٧٨

القســم الرابع

الخصائص والسمات الفنية

الخصائص والسمات الفنية

للشعر في مكة سمات وخصائص خاصة، ارتبطت بمكة ارتباطًا موثقًا، عبَّر عنه الحال والزمان والمكان والحدث، وذلك ما استدعته مكة بكل تميزها وخصائصها، وظهرت هذه السمات والخصائص في: التشبيه والتمثيل بالقدرة والقوة ويمتد ذلك ليشمل كل ركن من أركان مكة، وفي كل مشعر من مشاعرها، وصفة من صفاتها، وفي المعاني تظهر معاني الدوام والثبات، والقياس بمكة، وتعبر المجانسة فضاءً جديدًا لا يقف عند حد الجناس البلاغي المعروف، وإنما تتجانس الأفعال والأقوال بالمشاعر والمشاهد، وتأتي الأمثال المختصة بمكة لتوشح الشعر بوشاحها، أما الأسلوب فيظهر رونقه من خلال القسم والدعاء والتضمين والاقتباس، ويطل التصوير فيبدي لنا عن صور ملونة رائعة، يتحول فيها المعنوي إلى المحسوس، والجماد إلى الإنساني، وتنطلق هذه الصور معبرة عن لوحات جمالية.

التشبيه والتمثيل لونان من ألوان السمات الفنية سيطرا على الرؤية الفنية للشعر في ما تمثله مكة من قداسة ومشاعر وصفات ومكانة، وفي ما تمثله أماكنها وطبيعتها وبيئتها، وسواءً أكان الشعر يتحدث عن موضوع لصيق بمكة، أو كان موضوعًا بعيدًا عن ذلك كالمدح، أو الفخر، أو الوصف، فإن التشبيه بما تمثله مكة كان يستدعيه سياق النص، وتماثل الحال، ممّا خلّف لنا ثروة تشبيهية تمثيلية، لم تتوقف عند عصر واحد، بل استمرّ مريرها في سائر العصور.

- **التشبيه والتمثيل بالقوة والقدرة**

يشبه ذو الرمة شدة هلال بن أحوز التميمي، وقوته على أعدائه بأنه لو صدم بها ثبير لأمالَهُ عن مكانه:

في طَخْمَةٍ من تميمٍ لو تصكُّ بها
ركنيْ ثبيرٍ لأمسى مائلَ السَّنَدِ[1]

ويصور أبو المواهب البكري المجد والعلو بطأطأة رضوى و ثبير:

هل المجدُ إلا عَزْمَةٌ قُرَشيَّةٌ
تطاطيءُ رضوى دونها وثبيرُ[2]

ويقول أبو الفتح البستي في تبيان قوة جيش السلطان، وأن جبل أبي قبيس الراسخ الطود الذي لو اجتمعت الأمم على قلعه ما استطاعت، فإن هذا الجيش في قوته وقدرته قادر على ذلك، مبالغة في التخويف والترهيب:

الم ترَ ما ارتاهُ ابو عليٍّ
وكنتُ اراهُ ذا لبٍّ وكيسِ
عَصَى السلطانَ فَابتَدرتْ إليه
جيوشٌ يقلعونَ ابا قبيسِ[3]

ومن المشابهة بالحرم والشهر الحرام، قول بحير بن عبدالله القشيري، مشبهًا ممدوحه بالحرم في الأمن والأمان في الشهر الحرام:

وكنتُ إذا الاقيهِ كانِّي
إلى حَرَمٍ وفي الشَّهرِ الحرامِ[4]

وهذا شاعر هو فخر بن سيف يشبه كرم الممدوح الأمير عيسى بن فليتة بالكعبة، ويتعجب من وجود كعبتين في الحرم، فيقول:

---

(١) ديوان (ذو الرمة) ١/ ١٨٥ والطحمة: الدفعة والشدة، والدفعة من الناس. وثبير الجبل المعروف بمكة. والسَّنَد: الجمع أسناد وهو المكان المرتفع.

(٢) ريحانة الألباء ٢/ ٢٣٩

(٣) ثمار القلوب ١٤٦

(٤) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ١٠٥

أضحتْ مكارمُ عيسى كعبةً ولقد

تعجَّبَ الناسُ من ثنتينِ بالحَرَمِ

فهذه تُحْبِطُ الأوزارَ ما برحتْ

وهذه تشملُ الأحرارَ بالنِّعَمِ[1]

وقال شهاب الدين الفاسي يمدح علي بن الحسن بن عجلان الحسني بألفاظ يستخدمها من خلال ألفاظ الحج مشابهًا بينها وبين صفات الممدوح:

إنْ بانَ وجهُ الصَّفا من راكدِ الكدرِ

وانشقَّ فجرُ الضِّيا عن ظُلمةِ الفِكَرِ

لأنثرنَّ على أبي عليا أبي حسنٍ

تالٍ من الحمد أو نظمًا من الدُّررِ

وأوقف القصدَ في ساحاتِ مَشْعَرِهِ

كيما أُفيضَ بنُسك النُّجحِ والظَّفرِ[2]

وقوله مشبهًا الوفود التي تأتيه كتلك التي تطوف بالبيت:

كم طافَ حولك من مولًى ومن مَلكٍ

وحول بيتكَ من حاجٍّ ومُعْتَمِرِ[3]

ويقايس عرقلة الكلبي بين صيد النساء وصيد الظباء، وكل الصيد بالبلد الحرام حرام، كما يقول:

في كلِّ يومٍ رحلةٌ ومقامُ

ووداعُ من أحْبَبْتُهُ وسلامُ

---

(١) غاية المرام ١ / ٥٣٠

(٢) العقد الثمين ٦ / ٢١٥

(٣) العقد الثمين ٦ / ٢١٥

قذفتْ بنا أيدي النّوى جوزَ الفلا
وكأنّها قوسٌ ونحنُ سهامُ
لا تبعثنّ مع الحَمامِ رسالةً
في القلب منها لوعةٌ وغرامُ
فالكُتْبُ عند العاشقينَ كأنّها
ممّا يهيّجُ والحَمامُ حِمامُ
من لي بصيدِ ظباءِ مكةَ موهِنًا
والصَّيْدُ في البلدِ الحرامِ حَرامُ[1]

ويقول أبو محمد المكناسي في المشابهة بين أمرين في الاختصاص، فإذا كانت المرية داره، وفازت مرسية بحظ من الممدوح، فلا غرو في ذلك، فهذه مكة تستقل بنشأة النبي عليه السلام فيها، ويختص بيت المقدس بالمعراج:

لا غروَ أن تُضحي المريّةُ دارَهُ
وتفوزُ مرسيةٌ بحظٍّ أنفسِ
فبمكّةٍ نشأ النبيُّ محمدٌ
واختُصَّ بالمعراجِ بيتُ المَقْدسِ[2]

وهذه خرشنة وهي بلد من بلاد الروم تشبه بعض مواضع مكة، فالبحتري يجعل منها مشابهة لحراء في تلاوة القرآن وإقامة الصلاة، من خلال مدحه لأبي سعيد الثغري، يقول:

أحسنَ اللهُ في ثوابكَ عن ثغـ
ـرٍ مضاعٍ أحسنتَ فيه البلاءَ

(١) ديوان عرقلة الكلبي ٩٣
(٢) زاد المسافر ٧٧

حين أبدتْ إليك خَرشنةُ العُلـ
ـيا من الثلجِ هامةً بيضاءَ
بِثُهَا والقرانُ يَصْدَعُ فيها الـ
ـهَضْبَ حتى كادتْ تكونُ حِراءَ[1]

وابن الرومي يشبه بيت أبي العباس بن ثوابة بالبيت العتيق، فيقول مادحًا:

جُعلتْ بيوتهُمُ مع الـ
ـبيتِ العتيقِ لنا مثابة[2]

ويشبِّه رمي الناس الزمان، برمي الجمار في المحصب، فيقول:

بلى قد رماهُ الناسُ من كلِّ جانبٍ
بتأنيبهمْ إيّاهُ رَمْيَ المُحَصَّبِ[3]

ويقول السري الرفاء مشبهًا دار ممدوحه أبي عبدالله بن عمرو الكاتب بالكعبة وطواف الزائرين كطوافهم بزمزم والحطيم، يقول:

ودارٌ شُيِّدتْ بعظيمِ قدرٍ
يُهينُ كرائمَ النَّشبِ العظيمِ
يطوفُ المادحونَ بِعَقْوَتِيْها
طوافَهُمُ بزمزمَ والحطيمِ[4]

ويقول مادحًا:

ومكارمًا تسعى إليهنَّ المنى
سعيَ الحجيجِ إلى الصّفا والمشعرِ[5]

---

(١) ديوان البحتري ١/ ١٦
(٢) ديوان ابن الرومي ١٦٣
(٣) ديوان ابن الرومي ٢٩٨
(٤) ديوان السري الرفاء ٢ / ٦٦٢
(٥) المصدر نفسه ٢ / ٢١٣

ويشبّه يد الممدوح في تقبيلها بالحطيم وزمزم:

إذا ما سَقَتْ يُمناهُ رِيًا وقُبِّلَتْ
توهَّمْتُ يُمناهُ الحطيمَ وزَمْزَما[1]

وقال ابن الأقفاصي من قصيدة في رثاء الوزير علي بن الحسن بن صدقة في تشبيه تقبيل تربة المرثي كلثم البيت ذي الأستار:

نزورك في ثَوْبَيْ خُشوعٍ وذلَّةٍ
كأنَّكَ تُرجى في الضَّريح وتُرهَبُ
ونلثمُ تُرْبًا من رفيعٍ مُحَجَّبٍ
كما يُلثمُ البيتُ الرفيعُ المُحَجَّبُ[2]

ويمدح ابن الحداد ابن صمادح بأن العافين والمحتاجين يحجون ذراه كما تلتقي الجموع في المشاعر:

ولولا أبو يحيى ابنُ معنٍ محمدٌ
لما كانت الأيامُ عندي ذَخَائِرَا
فلا تنكروا مني بديعًا فَمَجْدُهُ
نوادرُ قد اوحتْ إليَّ النَّوادرا
يَحُجُّ ذَرَاهُ الدَّهْرَ عافٍ وخائفٌ
جموعًا كما وافى الحَجيجُ المَشاعرا
فَزُرْ مكةً مهما اقترفتَ مأثمًا
وزُرْ أُفْقَهُ مهما شَكَوْتَ مَفاقِرا[3]

وما يقارب ذلك قول الرمادي في التشبيه والتمثيل بازدحام الناس حول غرة الممدوح كازدحام الحجيج في عرفات:

---

(١) ديوان السري الرفاء ٢ / ٦٨٣

(٢) معجم الأدباء ٤/ ١٦٨٨

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/٢/ ٧١٨

بأبي غُرّةٌ تَرَى الشَّخْصَ فيها
في صفاءٍ أصْفَى من المرآةِ
تُبصِرُ الناس حولَهَا في ازدحامٍ
كازدحامِ الحجيج في عرفاتِ[1]

وهذا مادح آخر يرى في وجه الممدوح حجة مبرورة، كما في قول الوزير أبو عامر محمد بن عبدالله بن سلمة:

حجَّ الحجيجُ مِنًى ففازوا بالمُنى
وتفرّقت عن خَيْفِهِ الأشْهادُ
ولنا بوجهكَ حجةٌ مبرورةٌ
في كلِّ يومٍ تُقْتَضَى وتُعادُ[2]

وللأمير سليمان الموحدي في مدح الأمير يعقوب المنصور حيث يشبه الوفود التي جاءت للأمير من الشام والغُز والديلم كتلك التي تفد للحج، يقول:

يا كعبةَ الجودِ التي حجّتْ لها
عربُ الشام وغُزُّها والدَّيْلَمُ
طوبَى لمن أمسى يطوفُ بها غدًا
ويُحِلُّ بالبيت الحرام ويُحْرِمُ
ومن العجائبِ أن يفوزَ بنظرةٍ
من بالشّام ومن بمكةَ يُحْرَمُ[3]

(١) معجم الأدباء ٦/ ٢٨٥٠
(٢) مطمح الأنفس ٢٠٥
(٣) النبوغ المغربي في الأدب العربي ٨١٤

وابن حمديس يشبه ساحة الممدوح وما يؤمها من جموع الوافدين كساحة منى حيث تزدحم بالحجيج، يقول:

وكـــانَ الحجُّ لســـاحـــتـــهِ
فـــي يـــومِ نـــداهُ يـــومُ مِـــنـــى[1]

ويقول ابن المقرب في مدح الخليفة الناصر لدين الله مشبهًا الملوك الذين يقدمون عليه كالذين يطوفون بالركن اليماني:

تطوفُ الملوكُ الصِّيدُ حولَ قبائهِ
كما طافَ بالركن اليمانيِّ مُحْرِمُ[2]

وهذا شاعر يشبه السلو عن الأحباب بالسلو عن البيت الحرام، كما في قول الأسواني أحمد بن علي في رده على أخيه المهذب عن قصيدته التي أولها:

يا ربعُ أين ترى الأحبــة يَمَّــمُــوا

فيقول:

رحلوا فـــلا خَلَتِ المنازلُ منهُمُ
ونَأَوْا فـــلا سَلتِ الجَـــوانِحُ عنهمُ

إلى أن يقول:

هيـــهـــاتَ لا أسلوكُمُ أبدًا وهلْ
يسلو عن البيتِ الحرامِ المُحْرِمُ[3]؟

وللحسن كعبة، كما يقول ابن نباتة متغزلاً:

(١) ديوان ابن حمديس ٥١١
(٢) ديوان ابن المقرب ٢ / ٧٦٥
(٣) معجم الأدباء ١/ ٤٠٤

يا كـعـبـةَ الحـسنِ الـمـمنَّعِ لا يكنْ
بيني وبينكِ للجـفـاءِ حـجـازُ
حـاشـا لهـا من قـامـةِ الفـيـّـةٍ
يثني لقـاها كـاشحٌ همّـازُ(1)

ومثله قول ابن الفارض:

أيا كـعـبـةَ الحُـسْنِ التي لجـمـالهـا
قلوبُ اولي الألبـابِ لبَّتْ وحـجَّتِ(2)

وفي تشبيه الغربة عن الوطن بهجرة المصطفى عليه السلام عن مكة، ما ورد من قول أحد الشعراء:

وكم نَبَتِ الأوطانُ يومًـا باهلهـا
فـاورثَهمْ عـزُّ الحـيـاةِ التـغـرُّبُ
وهـذا رسـولُ الله فـارقَ مكـةً
على جـفـوةٍ لم تَرْضَـهـا فـيـه يثـربُ(3)

وفي التمثيل والمشابهة أورد الثعالبي قال: (ومن بارع التمثُّل به قول بعض المحدثين في الحسن بن مخلد، وقد خُلِعَ عليه:

ابا مـحـمـدٍ الـمـسـعـودَ طالعُـهُ
فُتَّ البـريةَ طُرّاً ايّمـا فَـوْتِ
زَهَتْ بكَ الخُلعـةُ الـمـيـمـونُ طائرُها
كـزهـوِ خُلْعَـةِ بيت الله بالبـيْتِ(4)

والجمع بين مكة والقدس هو لون من ألوان المشابهة، فكما تفرح القدس، تقرُّ عيون مكة كما في مدح ابن الساعاتي لصلاح الدين عندما فتح طبرية، حيث يقول:

---

(1) ديوان ابن نباتة ٢٦٢
(2) ديوان ابن الفارض ٢٣٩
(3) ريحانة الألباء ٢/ ٦
(4) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١٨

جَلَتْ عَــزمــاتُكَ الفـــتحَ الـمُــبــينا
فــقـــدْ قــرّتْ عـــيــونُ الـمـــؤمنينا

إلى أن يقول:

تــهــزُّ مــعــاطفَ القــدسِ ابتــهــاجًــا
وتُرضي عنك مكّةَ والحــــجـــــونا[1]

ويقول العماد الأصبهاني في مدح صلاح الدين عندما فتح القدس مبينًا الموافقة بين بيت المقدس ومكة، ومشبهًا فتحها بفتحها، وإزالة الصلبان كإزالة الأصنام:

ابشــرْ بفـــتحِ أمــيـــرَ الـمـــؤمنين أتى
وصـــيـــتُـــهُ في جــمــيع الأرض جــوّابُ
بفــتــحـــهِ القـدسَ للإســلام قـد فُـتِـحَتْ
في قـــمـعِ طاغـــيـــةِ الإشــــراكِ ابوابُ
فــفي مُــوافــقــةِ البــيتِ الـمــقــدسِ للـ
ـبــيتِ الحـــرامِ لنا تيــهٌ وإعـــجـــابُ
والصَّــخــرُ والحَــجَــرُ الـمَلْثـومُ جــانبُــهُ
كــلاهمــا لاعــتــمــار الخَلْقِ مـــحـــرابُ
نَفَى من القـــدسِ صُلبــانًا كـمــا نُفِـيَتْ
من بـيـتِ مكـةَ ازلامٌ وأنْـصـــــــــابُ[2]

وفي رثاء نور الدين يجمع العماد في الحزن بين بيت المقدس والبيت الحرام، فيقول:

وكـــعـــادة البــيــت الـمـــقـــدس يحـــزُن الـ
ـبــيتُ الحـــرامُ عليـــه بل عـــرفـــاتُهُ[3]

والإحسان لبيت المقدس هو إحسان للبيت العتيق، كما في مدح ابن الساعاتي لصلاح الدين في فتح بيت المقدس، إذ يقول:

---

(١) ديوان ابن الساعاتي ٢ / ٤٠٦

(٢) الروضتين لأبي شامة المقدسي ٢ / ١٠٢ – ١٠٣

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٢١٥

أوتيتَ عـزمًـا في الحـروب مـسـدّدًا

لا زَيْغُـةُ يُخشى ولا هفـواتُهُ

أحسنتَ بالبيت العتيق ويثربٍ

ولكَ الفَعالُ كثيرةٌ حسناتُهُ

هذي سـيـوفُكَ مُخرِمـاتٌ دونهُ

لبكائهنَّ تبسّمتْ حُجُراتُهُ[1]

ومن المقايسة المعكوسة قول الشاعر أحمد بن محمد الجوهري:

ولو أنَّ أرضَ الهند في الحسن جنةٌ

وسكانها حورٌ وأملِكُها وحدي

لما قِسْتُها يومًا ببطحاءِ مكةٍ

ولا اخترتُ عن سُعْدَى بديلاً هوى هِنْدِ[2]

● المعاني

تظهر لنا عدة معان تتكرر كثيرًا في الشعر المكي، مثل: معاني الدوام والثبات والبقاء، والقياس بمكة، والتشبيه بها.

● الدوام والثبات

كقول ميمون بن عامر القشيري بأنه محافظ على ذكر محبوبته، ولن ينساها ما دام الناس يحجون:

فيا خيرَ لا انساكِ ما لاحَ بارقٌ

وما نَسَمَتْ ريحٌ صبًا وجَنوبُ

وما حجَّ بيتَ الله فتيانُ شُقَّةٍ

بهمْ شَعَثٌ ممّا لَقُوا وشُحُوبُ[3]

---

(١) المصدر نفسه ٢ / ١٠٦

(٢) هديل الحمام ١ / ٢٤١

(٣) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ٣٧٦

وهذا قيس يغلظ الأيمان في البقاء على حب لبنى، وأن حبه لها دائم ثابت لا يزول إلاَّ إذا زال ثبير من مكانه، ولن ينسى حبها ما دام الحَجُون جارًا للمحصّب:

فــلا والـذي مَــسَّــحتْ أركــانَ بيــتــهِ
اطـوفُ بـه فـي مَنْ يـطوفُ ويَـحْــــصِبُ
نســـيـــتُكِ مــــا ارسى ثبـــيــرٌ مكانَهُ
ومــا دام جــارًا للحَــجُـون الـمُـحَـصَّبُ[1]

وفي نفي الود وتشبيه هذا النفي في بقائه ودوامه كثبات ثبير في مكانه، قول ميمون بن عامر:

يُـعـــــاتِبُـنـي فـي الـودِّ لا وُدَّ بـيـنَـنـا
طوالَ الليــالي مــا اقــامَ ثَبِـــيــرُ[2]

و قول شهاب الدين الجعفري في الصلاة الدائمة على محمد عليه افضل الصلاة وأزكى التسليم:

وصلِّ يا ربِّ علـى مـــحـــــمـــدِ
والآلِ والـصَّـــــــحْـبِ دوامَ الأبَــدِ
مـــا طافَ بالبــيت الـعــتــيق طائفُ
ومـــا لجـــا إلى حِــمَـــاك خـــائفُ [3]

ويتكرر عند الشعراء معنى الدوام والثبات بطواف الحجاج بالبيت الحرام، كما في قول كثير عزة في مدح عمر بن عبدالعزيز:

فَـــعِـــشْتَ بـه مـــا حَجَّ للّـهِ راكبٌ
مُــغِــذٌّ مُطيفٌ بـالـمــقـــام وزمـــزمِ[4]

---

(١) قيس ولبنى شعر ودراسة وجمع وتحقيق د. حسين نصار
(٢) شعراء بني قشير ٢/ ١٥٨
(٣) هديل الحمام ١/ ٢٠١
(٤) ديوان كثير ٣٢٣

ويمدح إسحق الموصلي الخليفة الواثق، داعيًا له بدوام الملك ما دام ثبير، يقول:

يا بني العباسِ انتم شفاءٌ
وضياءٌ للقلوب ونورُ

انتمُ اهلُ الخلافةِ فينا
ولكم منبرُها والسَّريرُ

لا يزالُ المُلْكُ فيكم مدى الدّهـ
ـرِ مقيمًا ما اقامَ ثَبيرُ(١)

وفي مثله يقول ابن حيّوس مادحًا:

والعيدُ يقصُرُ عن سلامتك التي
هي في النفوس اجلُّ منهُ واعظمُ

فاسعدْ بها وبه ودمتَ مُسلَّمًا
ما طاف بالبيت المُحرّم مُحْرِمُ(٢)

ويمدح ابن عنين الملك العادل سيف الدين بن أيوب، ويصف رباطة جأشه وثباته كثبات جبل حراء، يقول:

كم حادثٍ خفَّتْ حلومُ ذوي النُّهى
خوفًا وجاشكَ فيهِ اربطُ من حِرا(٣)

ويكرر هذا المعنى في مدح الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، فيقول:

ثَبْتُ الجَنَانِ لهُ حِلمٌ يُوقّرُهُ
إنْ خامرَ الطيشُ رُكْنيْ يَذْبلٍ وحِرا(٤)

وهل يتزعزع هذا الثبات والرسو، هذا ما يصوره السري الرفّاء فالخطوب لشدتها زعزعت ثبيرًا وقلقلته كما يقول:

غَريتُ بذمِّ الحادثاتِ لأنّني
ارى فِعْلَها في المَكْرُمَاتِ مُذمَّما

(١) ديوان إسحاق الموصلي ١٢٧
(٢) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٥٥٦
(٣) ديوان ابن عنين ٧
(٤) ديوان ابن عنين ٥٦

أزلنَ جـبـالَ الأزدِ عن مُستقـرِّها
وَفـرَّقْنَهـا في الأرضِ فـذًا وَتوْامـا
فـقـد زَعْـزَعَتْ منهـا ثَبِـيرًا وقَلْقَلَتْ
شُـمـامًـا وزلَّتْ يَذْبُلاً ويَرَمْـرَمـا(١)

ويشد هذا المعنى ابن مقرب العيوني، فيستخدمه في شعره كثيرًا، إذ نجد التشبيه للممدوح في قوته وعزمه وثباته برسو ثبير وشدته وصلابته، يقول:

تـلقّـاهُ بِعَـزْمٍ لَوْ ثَبِـيـرٌ
وثَـهْـلانٌ بـهِ رُدِيَا لَـمَـادَا(٢)

ويكرر هذا المعنى في قوله:

مَلْكٌ تَحَـمَّلَ مـا لا يَسْـتَطيعُ لهُ
حَـمْـلاً ثبـيـرٌ وثَـهْـلانٌ فَـيَـحْـتَـمِلُ(٣)

وفي الرسوخ والثبات يقول:

إذا مـا الحِلْمُ عُـدَّ فـمـا ثَبِـيـرٌ
ومـا حَـضَنٌ لديهِ ومـا شُـمَـامُ(٤)

وفي البقاء والدوام، يقول:

فـعشْ للمـعـالي وابقَ للمـجـدِ مـا بقي
ثبـيـرٌ على مـرِّ الليـالي ويذبلُ(٥)

ويقول جعفر الخطي في بقائه وديمومة حبه كديمومة رسو ثبير:

فَـدومِي على هذا الجـفـاءِ فـإنَّني
على الودِّ مـا ارسى وقـرَّ ثبـيـرُ(٦)

---

(١) ديوان السري الرفاء ٢ / ٦٦٣
(٢) ديوان ابن المقرب ١ / ٣٤٦
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٧٠٣
(٤) المصدر نفسه ٢ / ٩٨١
(٥) المصدر نفسه ١ / ٦٣٧
(٦) ديوان جعفر الخطي ٤٧٠

- **القياس بمكة والتشبيه بها**

وفي أهمية الوطن، وأنّ العزة لا تكون إلاّ فيه، قال أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي في ضرب من القياس مع مكة:

وما عِزّةُ الضّرغامِ إلاّ عرينُهُ
ومن مكةٍ سادتْ لؤيُّ بنُ غالبِ[1]

وفي تحبيب الانتقال عن المكان وتعليله، يقول ابن حيّوس في انتقال أمير الجيوش الدِّزبري ووصوله إلى دمشق:

ودمشقُ فهْي لهُ الغداةَ قسيمةٌ
إنّ المعالي من جوارك تُكْسَبُ
لولا انتقالُ محمدٍ عن قومِهِ
ما شاركتْ في الفخْرِ مكةَ يثربُ[2]

ويشبه هذا القول قول ابن مقرب العيوني، حيث يشبه ارتحاله عن موطنه بارتحال المصطفى عليه الصلاة والسلام عن مكة، يقول:

فإنْ ارتحلْ عن دارِ قومٍ لِنَبْوَةٍ
ويصبحُ ربعي فيهمُ قد تابدا
فقدْ رَحَلَ المُخْتارُ عن خيرِ مَنْزلٍ
إلى يثربٍ تَسْعَى بهِ العيسُ مُصْعِدا[3]

---

(١) نفح الطيب ٢/٢٦٧
(٢) ديوان ابن حيّوس ١ / ٨٦
(٣) ديوان ابن المقرب العيوني ١ / ٢٨٤

ويقترب منه قول جعفر الخطي في تغيير إقامته وارتحاله:

نبتْ بي أرضكمْ فرحلتُ عنها
فخيرٌ من إقامتيَ الرَّحيلُ
فمكةُ وهْي اشرفُ كلِّ ارضٍ
تحمَّلَ ظاعنًا عنها الرسولُ(١)

وفي التشبيه بمكة في الأمن كانت تُشبَّه الأماكن مدحًا لها كما يقول الخالديّان(*):

كانَ الدارَ مكةُ وهْيَ امنٌ
لتلك الوحشِ من سَفْكِ الدماءِ(٢)

ويشبه علي السنجاري الشام بمكة في الأمن:

فالشامُ اضْحَى مِثْلَ امِّ القُرى
امنًا بكمْ والحلُّ لا يؤمنُ(٣)

وفي التضحية بالنفس، وتشبيه ذلك بأضاحي النحر في منى، قول محمد بن حيدر الحسيني الذي يرى أنه بين قوة تحميه، أو علم يغنيه، وإلاّ ذهب كأضاحي منى:

ولو انَّ نفسًا بينَ جنبيَّ أعطيتْ
مُناها ومن ذا في الدُّنا أُعطيَ المُنى؟
اتتْ في زمانٍ كانَ يفْزعُ مِثلُها
إلى السيفِ إنْ لم يُسْعفِ العلمُ بالغنى
فإمّا قضتْ من موقفِ الجدِّ حجَّها
وإلاّ حكتْ بعضَ الأضاحيَ في مِنى(٤)

وفي موازنة ومقارنة بين العبادة في الحرم، وبين المرابطة في سبيل الله يقيم عبدالله بن المبارك هذه الرسالة التي وجهها إلى صاحبه الفضيل بن عياض، فالأول مقيم في ثغور الإسلام مواجهًا للروم، والثاني مقيم في مكة متعبدًا فلأيهما المزية، يقول:

---

(١) ديوان جعفر الخطي ٤٦٣ (٢) ديوان الخالديين ١٢

(٣) الإشراف في تاريخ الأشراف ٤١٧ (٤) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري ١ / ٢٨٦

(*) الخالديّان هما الأخوان (أبوبكر محمد وأبوسعيد عثمان) من الأدباء الذين عاشوا في بلاط سيف الدولة في حلب، وكانا يؤلفان الكتب معًا (القرن الهجري الرابع).

يا عـابدَ الحـرمـيْنِ لو ابْصَـرْتَنا

لـعلمتَ أنَّكَ في العـبـادةِ تلعبُ

من كـان يخـضبُ خـدَّهُ بدمـوعِـهِ

فَنُحـورنا بدمـائنا تَتَـخَـضَّبُ

أو كـان يُتْـعِبُ خَـيْلَهُ في باطلٍ

فـخُـيولنا يومَ الصبـيحـةِ تَتْعَبُ

ريحُ العـبـيـرِ لكم ونحنُ عـبـيـرُنا

رَهَجُ السَّنابكِ والغـبـارُ الأطْيَبُ

ولقـد اتانا عن مـقـالِ نبـيِّنا

قـولٌ صـحـيحٌ صـادقٌ لا يكذبُ

لا يسـتـوي وغـبـارُ خيـل الله في

انفِ امـرئٍ ودخـان نـار تَلْهبُ

هذا كـتـابُ الله ينطقُ بيننا

ليس الشـهـيـدُ بميِّتٍ لا يكذبُ(١)

وفي التشبيه بالمكان يقول جعفر الخطي:

من لي بحـضـرتِهِ التي مَنْ زارها

فكأنَّمـا قـد زار وادي الخـيـفِ(٢)

ويشبه الأمير عبدالقادر الجزائري ممدوحه الشيخ أبو النظر الطرابلسي بالكعبة، فيقول:

ولا زالَ مـحْـجُـوجَ الأفـاضلِ كـعـبـةً

وممدوحـةً افـعـالهُ وطبَـاعُـهُ(٣)

● المجانسة

ولا نقصد هنا الجناس البلاغي المعروف بأشكاله المختلفة، وإن كان يتضمنه حديثنا هنا، لكن المقصود هنا هو هذه المجانسة التي يجريها الشعراء بين المشاعر

(١) إتحاف الورى ٢/ ٢٢٨ (٢) ديوان جعفر الخطي ١٧٢

(٣) ديوان عبدالقادر الجزائري ١٣٠

والمناسك وما يجانسها من ألفاظ الحب والشوق والحنين، فمن ذلك هذه المجانسة المتنوعة التي يجريها ابن زقاعة فيقول:

مُلَبيًا جئتُكم وسَعْيي
إليكمُ كاشفًا غِطَائي
بكُمْ انا طائفٌ دوامًا
فمن صباحي إلى مَسَائي
وقِبْلَتي نَصْبُها إليكمْ
بالحال من مبتدا صبائي
هذا حَطيمُ الغرامِ ركني
وانتمُ عامرٌ بنائي
رَقيتُ فوقَ الصَّفا برقي
فَرَقٌ من شدَّةِ الصَّفاءِ
وهبَّ لي من مِنًى نسيمٌ
مزّقني صِرْتُ كالهَباءِ
بِخَيْفِكُمْ قد خفيتُ حتى
لا ينظروني من الخفاء
والهجرُ يرمي صميمَ قلبي
جمارَ جَمْرٍ على الولاء
ببابكُمْ وقفتي وحَجي
لكم وقُربانُكُمْ دمائي
إن يَنْقَضي في الغرام نَحْبي
فَعُمْرتي عُمْرَةُ القضاءِ[1]

وها هي جمار النار من قلبه تناسب الجمرات، والصفا تجانس صفاء الحب، والطواف والتضحية والحجر والخيف كلها تلتقي في رحاب التجانس والتماثل ما بين ألفاظها وألفاظ الحب وحركاته ومعانيه وتطلعاته وأشواقه، كما يقول ابن زقاعة:

(١) ديوان ابن زقاعة المخطوط ورقة ٥

لمّا دعاهُ الهوى لبّاهُ مُنْخَلِعًا

من بعد تمزيقه اطمارَ سلوتِهِ

وسدّدتْ ساعة الإحرام سادته

عليه كلَّ طريقٍ غيرَ شِرعتِهِ

واوْقفوهُ على ابواب عِزهِمُ

عسى ينال الاماني يومَ وقفتهِ

والجَفْنُ بالنّومِ ضنَحى في عِراصِ مِنًى

وها بقايا الدّما تجري بمُقلَتهِ

ولو رمى جَمْرةً من ناره احتَرَقَتْ

تلك البطاحُ وما فيها لجمرتهِ

سَعَى لذات الصّفا لمّا صَفاهُ صَفا

وطاف بالحب سبعًا بعد عُمْرتهِ

والحِجْرُ لو انّ قَلْبَ ركنهِ حَجَرٌ

اضحى حَطيمًا على جدرانِ كعبتهِ

لا خنتمُ يا أهَيْلَ الخَيْفِ دهْرَكُمُ

ولا رحلتمْ عن الوادي وايْكتِهِ

وزاركم كلّ وسْمَيٍّ عارضٍ هتِنٍ

يسقي كثيبَ المصلّى صَوْبُ مُزْنَتِهِ

حتى يغادرَهُ مُعْشَوْشِبًا عبِقًا

كانّ رضوانَ وافاه بروضتِهِ[1]

وتملّ معي هذا الإحرام بالشوق، وإهداء القلب كالهدي والأضحية، كما في هذه المجانسة من ابن جبير:

بدتْ ليَ اعلامُ بيت الهدى

بمكةَ والنّورُ باد عليه

(١) ديوان ابن زقاعة المخطوط ورقة ٢١– ٢٢

فـــاحـــرمتُ شـــوقًـــا لهُ بـالهَـــوَى
واهـديـتُ قـلـبـي هـديًـا إلـيـــــــه[1]

وهذا عبدالجليل بن وهبون المرسي يرمي جمار شعره على الرغم من بعد ما بينه وبين المحصب، كما في هذا المدح:

دنا العـيـدُ لو تدنو لنا كـعـبـةُ المُنى
وركنُ المـعـالـي من ذؤابةِ يَعْـرُبِ
فـيـا أسـفًـا للشِّـعـر تُرمَى جـمـارُهُ
ويا بُعـدَ مـا بيني وبين المُـحَـصَّبِ[2]

وفي مشابهة ومجانسة غزلية رائقة يقول أبو الحسن بن أضحى في قلائد العقيان، مشبهًا رمي الحبيب برمي الجمار، والمرمي هو القلب الذي يشبه المحصب، والتضحية ليست بالشاة والنعم ولكن بالمهجات، يقول:

اتتني ابا نصـرٍ نتـيـجـةُ خـاطرٍ
ســريـعٍ كـرجعِ الطَّرفِ في الخطراتِ
فَـأُغْـرِبَ عن وجـدٍ كـمينٍ طويَّتُـهُ
بـاهْـيَـفَ طـاوٍ فـــاترِ اللحظاتِ
غــزالٍ احمَّ المـقلتينِ عـرفـتُـهُ
بخَـيْفِ مِنىً للحينِ او عـرفـاتِ
رمـاكَ فـاصْـمَـى والقلوبُ رمـيَّـةٌ
لكلِّ كـحـيلِ الطرفِ ذي الفَـتَكاتِ
وظنَّ بـانَّ القلبَ منكَ مُـحَـصَّبٌ
فلبَّـاكَ مِنْ عـينيـهِ بالجَـمَـراتِ
تـقـرُّبَ بالنُّسَّـاكِ في كلِّ منسكٍ
وَضَـحَّى غـداةَ النَّحْرِ بالمُـهـجاتِ[3]

---

(1) نفح الطيب ٢/٣٨٤
(2) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ٢/ ١/ ٤٧٥
(3) قلائد العقيان للفتح بن خاقان ٦٤٩

وهذه محبوبة ابن قاضي ميلة ترد عليه بكيد ظاهر من خلال مجانسة لطيفة ما بين المشاعر المقدسة ومشاعرها نحوه، فيقول بلسانها:

لئن كنتَ ترجو في مِنًى الفوزَ بالمُنى
فبالخَيْفِ من إعراضِنا تَتَخوّفُ
وقد انذرَ الإحرامُ انّ وصَالَنا
حرامٌ وانّا عن مزارِكَ نَصْدِفُ
فهذا وقَذْفي بالحَصَى لك منذرٌ
بانَّ النّوى بي عن ديارِكَ تقذفُ
فبادرْ نفَاري ليلةَ النَّفْرِ إنَّهُ
سريعٌ وقلْ من في العيافةِ اعرفُ[1]

ومن الجناس قول محمد الفارضي:

للهِ حينٌ سَمَحَ الدهرُ بهِ
في دارةٍ تمَّ بها ثَمَّ المُنى
كنتُ بها لم اخشَ بيْنًا آمنًا
ارفلُ بين الأخشبين فمِنًى[2]

فالمجانسة بين قوله في الشطر الأول: اخش بينًا، وقوله في الشطر الثاني: الأخشبين.

وهذا شاعر يقابل بين أضحية العيد، وتضحية حبيبه بقلبه، وتقوم المشاكلة هنا ما بين عيد الناس وعيده، وحج الناس وحجه، ويبالغ في ذلك حتى يجعل طوافهم بالبيت كطوافه بمحبوبه، كما يقول:

ضحّى الحبيبُ بقلبي يومَ عيدهمُ
والنّاسُ ضحّوا بمثل الشّاء والنَّعَمِ
إنّ الحبيبَ الذي يُرضيه سَفْكُ دمي
دمي حلالٌ له في الحلّ والحرمِ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٤/٢/ ٥٣٣
(٢) ريحانة الألباء ٢ / ١٧٣

للناس حجٌّ ولي حجٌّ إلى سكني

تُهدي الأضاحيَ واهدي مُهْجَتِي ودَمي

يطوفُ بالبيت قومٌ لو بجارحةٍ

بالحبِّ طافوا لألهاهمْ عن الحرمِ

يا لائمي لا تَلُمْني في هواهُ فلو

عاينتَ منهُ الذي عاينتُ لم تَلُمِ[1]

ومن جميل المجانسة ما يذكره شمس الدين النواجي صراحة في قصيدة مدحية للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فيقول:

فيا كعبةَ الأشواقِ هل لمُتَيَّمٍ

يفوزُ ولو في العمرِ يومًا بعمرةِ

ويا قِبْلةَ العُشاق ماذا عليكِ لو

سمحتِ لهُ في الحالِ منكِ بقُبْلةِ

صدَدْتِ فجانستِ اللقا منكِ بالقلى

وعاينتُ حقّاً مُنْيَتي في مَنيَّتي

وابديتِ في فنِّ الطباقِ بدائعًا

فقيَّدْتِ اشجاني واطلقتِ عَبْرَتي

فموتي حياتي وانقطاعي تواصُلِي

ومحوي ثباتي واجتماعي تَشَتُّتي

بعيشكِ جودي بالتواصل وارحمي

غريبَ ديارٍ من بلادٍ بعيدةِ[2]

(١) مثير العزم الساكن إلى اشرف الاماكن ٣١٠

(٢) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ١ / ٤٣٢

● **الأمثال الشعرية في مكة**

ورد في كتب الأمثال العديد منها المختص بمكة، وخصائصها ومشاعرها ووصفها وما يحدث فيها، من ذلك:

– **اخسر صفقة من ابي غُبْشَان**

وأندم من أبي غبشان، وأحمق من أبي غبشان، وصفقة أبي غبشان، هذا التي يُضرب بها المثل في الخسران، ملخصها: أنّ أبا غبشان كان ممن ولي أمر الكعبة من بني خزاعة، وبيده مفاتيحها، وفي جلسة شرب مع قصي بن كلاب خدعه قصي بعد أن سكر، واشتراها منه بزق خمر، ودفع المفاتيح إلى ابنه عبدالدار الذي رفع عقيرته بالصراخ عندما أشرف على مكة، وقال: يا معاشر قريش، هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد ردّها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم.

وأفاق أبو غبشان من سكره نادمًا خاسرًا، فقيل في ذلك:

باعت خزاعةُ بيتَ اللهِ إذ سَكِرتْ
بزقّ خمرٍ فما فازتْ ولا ربحتْ

وقال آخر:

أبو غُبْشَانَ أظلمُ من قصيٍّ
وأظلمُ من بني فِهْرٍ خُزاعةْ
فلا تَلْحُوا قُصَيّاً في شراها
ولوموا شيخَكُم إذ كان باعهْ

وقال آخر:

إذا افتخرتْ خُزاعةُ في قديمٍ
وجدنا فَخْرها شُرْبَ الخُمورِ
وبيعًا كعبة الرحمن حُمْقًا
بزقٍّ بئس مفتخر الفخور[1]

وفي هذا يقول ابن مقرب العيوني:

وارضَوا رِضَاهُ فإنّ سَاخِطَ امْرِهِ
منكمْ لأخسرُ من أبي غُبْشانِ[2]

(١) ثمار القلوب ١٣٥– ١٣٦
(٢) ديوان ابن المقرب ٢ / ١١٤٦

ولنا وقفة عند هذه الحادثة، وهذه الأمثال، فما ورد في كتب التاريخ والسير المعتبرة، أنّ مفاتيح الكعبة كانت مع قصي و (كان قصي رجلاً جليدًا حازمًا بارعًا، فخطب إلى حليل بن حبشية بن سلول الخزاعي ابنته حبي.. وحليل يومئذٍ يلي الكعبة، وأمر الكعبة.. فلما حضرت حليلاً الوفاة، نظر إلى قصي وإلى ما انتشر له من الولد من ابنته.. فدعا قصيّاً، فجعل له ولاية البيت، وأسلم إليه المفتاح)[1]، ولكن خزاعة بعد وفاة حليل أبت عليه ذلك، فقامت حرب بينه وبينهم قتل فيها الكثير من الطرفين، ثم تحاكموا إلى يعمر بن عوف، الذي حكم لقصي بحجابة الكعبة، وولاية أمرها دون خزاعة، وبذلك تكون قصة أبي غبشان محل تساؤل؟ فهل غصبته خزاعة المفتاح، ثم ردّه بهذه الحيلة التي ترويها كتب الأدب في قصة أبي غبشان هذا؟ ثم قامت الحرب بعد ذلك، ثم حكم له برده، على كل حال تبقى هذه الحكاية مثار استفهام.

- أصحُّ من عيرِ أبي سيّارة

قال الثعالبي: هذا عير مشهور يُتمثّل به، فيقال: أصحُّ من عير أبي سيارة، للرجل الصحيح في بدنه، وأبو سيارة رجل من عدوان، واسمه عُمَيْلة بن خالد بن أعزل، وكان له حمار أسود، أجاز الناس عليه من مزدلفة إلى منى أربعين سنة وكان يقف، فيقول شعرًا:

خلّوا الطريق عن أبي سيّاره
وعن مواليه بني فَزَارهْ
حتى يُجيزَ سالمًا حماره
مستقبل القبلة يدعو جاره[2]

- أصفى من ماء زمزم

قال الثعالبي: (يُتمثّل بشرفه على سائر المياه لشرف مكانه، ولما ورد في فضائله وفوائده وبركاته، قال أبو هفان يمدح رجلاً:

لو كنتَ نوءًا كنتَ نوءَ المِرْزَمِ
او كنت ماءً كنتَ ماءَ الزمزمِ)[3]

(١) اخبار مكة للازرقي ١ / ١٠٥
(٢) المصدر نفسه ٣٦٩
(٣) ثمار القلوب ٥٦٠

- آمن من حمام مكة

قال الثعالبي: (يضرب به المثل في الأمن والصيانة، كما يضرب بظباء مكة، قال الشاعر:

لعنَ اللهُ مَنْ يَسبُّ عليّاً
وحسيناً من سُوقةٍ وإمامِ
يأمنُ الظبيُ والحمامُ ولا يأ
مَنُ آلُ الرسولِ عند المقامِ

وقال آخر:

ليالِ تمنّى أن يكون حَمَامةً
بمكةَ يأويكَ السِّتارُ المُحَرَّمُ

ومن أمثل وأبلغ ما سمعت في التمثيل بحمام الحرم قول عبدان الأصبهاني، وقد أحسن على إساءته:

رَغيفُكَ في الأمنِ يا سيِّدي
يَحُلُّ محلَّ حَمَامِ الحَرمْ
فللهِ دَرّكَ من سيِّدٍ
حرامِ الرغيفِ حلالِ الحُرَمْ(1)

ويستنهض عقبة الأسدي عبدالله بن الزبير للقتال، ويرى أن بقاءه في مكة كالطيور والحمام التي تأمن على نفسها فيه، لايليق بمن يطلب الخلافة، يقول:

ما زلتَ مُذْ حِجَجٍ بمكةَ مُحْرِمًا
في حيثُ يأمنُ طائرٌ وحَمَامُ(2)

(1) ثمار القلوب ٤٦٤- ٤٦٥ وانظر في المثل آمن من حمام مكة في مجمع الأمثال للميداني ١ / ٨٧ وفرائد الخرائد للخويي ٧٩

(2) شعر قبيلة أسد ٤٢١

ويصف عبدالله بن الرقيات مكة في قوله:

بلدٌ يامنُ الحـــمـــائمُ فـــيـــه
حـــيث عـــاذَ الخليـــفـــةُ المظلومُ(١)

وكان عبدالله يُسمّى العائذ ببيت الله لأنه تحصّن فيه من الحجاج، ولما حبس عبدالله بن الزبير محمد بن الحنفية لرفضه مبايعته بالخلافة قال:

تُخـــبِّـــرُ من تلقـــاهُ أنّك عـــائذٌ
بل العائذُ المحبوسُ في سجنِ عارمِ(٢)

وقال الفرزدق مشبهًا نفسه بحمام الحرم، من قصيدة يتضرّع فيها إلى زياد بن أبيه، يقول منها:

وعـــيـــدٌ أتاني من زيادٍ فلم أنمْ
ومـــيلُ اللّوى دوني وهَضْبُ التـــهـــايمِ
فـــبتُّ كـــأنّي مُـــشـــعَـــرٌ خـــيـــبـــريةً
سَـــرَتْ في عظامي أو سِـــمـــامُ الأراقمِ
زيادَ بنَ صـــخـــرٍ لو أظنُّكَ تاركي
وبالظنُّ قد جـــسّـــمـــتني غـــيـــر ظالم
فـــإلاّ تداركني من الله نعـــمـــةٌ
ومن آلِ حـــربٍ ألقَ طيـــرَ الأشـــائم
ألم يأتهِ أنّي تـخـلّلُ نـاقـــتـــي
بنعـــمـــانَ أطرافَ الأراكِ النّواعم
مـــحـــبَّـــســـةً ترعى الأراكَ وربُّهـــا
بمكةَ يُلقى عـــائذًا بالمـــحـــارم
فـدعني أكنْ مـا عـشتُ دهري حـمـامـةً
من القـاطنات البـيت غـيـر الروائم(٣)

---

(١) ديوانه ١٩٣
(٢) ديوانه ١٩٣
(٣) ديوان الفرزدق ٧٥٦

فعيّره أبو العطاف جرير بن خرقاء البجلي، لما هجا الفرزدق بكر بن وائل:

لَعَمْري لئن كان الفرزدقُ عاتبًا
واحدثَ صُرْمًا للفرزدقُ ألْوَمُ

لقد وسّطتكَ الدارَ بكرُ بنُ وائلٍ
وضمّتكَ للأحشاء إذ انتَ مجرمُ

ليالي تمنّى ان تكون حمامةً
بمكةَ يُؤْويكَ السِّتارُ المحرّمُ

فإنْ تَنْأَ عنّا لا تَضرْنا وإنْ تُقِمْ
تجِدْنا على العهدِ الذي كنتَ تعلمُ[1]

ولمّا مات زياد، وخرج الفرزدق مطرودًا قال:

ابلغْ زيادًا إذا ما جئتَ مَصرَعَهُ
انّ الحمامةَ قد طارتْ من الحَرمِ

طارتْ فما زال تنميها قوادمُها
حتى استغاثتْ إلى الأنهارِ والأجَمِ[2]

وأمن الحمام ينسحب على جميع الطيور، كما يقول النابغة الذبياني:

والمؤمنِ العائذاتِ الطَّيْرَ يَمسَحُها
رُكْبانُ مكةَ بينَ الغَيْلِ والسَّندِ[3]

والحمام يقطن مكة آمنًا في ألفة، لا يروعه مروع، كما يقول العجاج من هذه الأرجوزة:

---

(١) العفو والاعتذار ٢/٣٤٢-٣٤٣

(٢) العفو والاعتذار٢/٣٤٩

(٣) ديوان النابغة ١٥

فالحمدُ للهِ العليِّ الأعظَمِ
ذي الجبروتِ والجلالِ الأفخَمِ
بنى السّماواتِ بغيرِ سُلَّم
وربِّ هذا البلد المحرَّمِ
والقاطناتِ البيتَ غيرِ الرُّيَّمِ
اوالِفًا مكة من وُرْقِ الحَمي[1]

ويظهر هذا المثل في الشعر الحديث، يقول الأمير عبدالقادر الجزائري يصف حاله بعد أن أطلقت فرنسا سراحه:

اسكنْ فؤادي وقرَّ الآنَ في جسدي
فقد وصلتَ بحزبِ اللهِ احبالا
هذا المرامُ الذي قد كنتَ تَامَلُهُ
فَطِبْ مالاً بلقياهُ وطبْ حالا
وعشْ هنيئًا فانتَ اليومَ آمنُ من
حمامِ مكةَ إحرامًا وإحلالا[2]

- آمن من ظباء مكة

قال الثعالبي: يُضرب بها المثل في الأمن، لأنها لا تهاج ولا تصاد في الحرم لمجاورتها الحرم، فهي ترتع، وتلعب آمنة، وقد ضرب بها المثل عبدالله بن حسن بن حسن، فأحسن في قوله يصف نسوة:

أُنْسٌ حرائرُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ
كظباءِ مكةَ صَيْدُهُنَّ حَرامُ[3]

(١) ديوانه ٢٩٤. القاطنات: الملازمات. الريم: غير المفارقات. ورق الحمى: يريد الحمام فرخم بحذف الميم الأخيرة.
(٢) ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري ١٥٦
(٣) ثمار القلوب ٤٠٨

● الأسلوب

تظهر في أساليب القصائد المكية الوان واضحة فرضها الموضوع المكي، كالقسم، والدعاء، والتضمين، والاقتباس، وسأمثل لها سريعًا دون وقوف طويل:

● القسم

من أساليب الشعر في مكة القسم، الذي يتنوع ويتعدد استخدامه، واستعماله من شاعر لآخر، ويتنوع أيضًا في المقسم به، فهناك القسم المقبول شرعًا، وهو القسم بالله تحت ألفاظ عدة، ولكنها كلها لا تخرج عما هو مباح في الحلف والقسم، فمنه القسم برب البيت، وبرب البيت العتيق، والقسم برب الراقصات، وبالذي حجت إليه قريش، وحج له الحجيج، ومنهم من تعدى طوره، فاقسم بما يحرم القسم به شرعًا، كالقسم بالبيت العتيق وزمزم، والحرم والمشاعر، وإذا كان القسم الذي لا ينضبط شرعًا مبررًا في الشعر الجاهلي، فإنّ كثيرًا من الشعراء بعد الإسلام في مختلف العصور قد أخطأوا في ما ورد عن بعضهم من حلف.

فزهير بن أبي سلمى يقسم بالبيت الذي طاف حوله رجال من قريش وجرهم، يقول:

فأقسمتُ بالبيت الذي طافَ حولَهُ
رجالٌ بنوهُ من قريشٍ وجُرْهُمِ
يمينًا لَنِعْمَ السَّيدانِ وُجِدْتُما
على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ[1]

ويقسم زهير بالمنازل من منى مادحًا هرم بن سنان والحارث بن عوف، فيقول:

فأقسمتُ جَهدًا بالمنازلِ من مِنىً
وما سُحِقتْ فيهِ المَقادِمُ والقَملُ
لأرتحلنْ بالفجرِ ثمّ لأدابنْ
إلى الليلِ إلاَّ أنْ يُعرِّجَني طِفلُ
إلى معشرٍ لم يورثِ اللؤمَ جدُّهُمْ
أصاغرَهمْ وكلُّ فحلٍ لهُ نَجْلُ[2]

(١) شرح القصائد العشر صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ص ١٧٣ . السّحيل: ثوب لا يُبْرم غزْلُه.

(٢) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ٩٦ – ١٠٠ والمقادم: مقاديم الرأس. والقمل: يريد الشعر. الطفل: الليل

وهذا عدي بن زيد العبادي الجاهلي يقسم برب مكة جامعًا وخالطًا، فيقول:

سعى الأعداءُ لا يالون شرًا
علىَّ وربَّ مكةَ والصليبِ(١)

وهذا كاهل العامري صاحب سلمى يحلف ويقسم برب مكة والمصلّى والحجاج، فيقول:

حلفتُ بربِّ مكةَ والمُصلّى
وشُعْثٍ يَحْلِقونَ بها اللُّمَامَا(٢)

وهذا شاعر جاهلي من يثرب هو درهم بن زيد الأوسي يحلف بمن يحج الناس إليه فيقول:

إنّي لَعَمْرُ الذي يحجُّ لهُ النّا
سُ ومَنْ دونَ بيتهِ سَرِفُ
يمينُ برٍّ باللهِ مجتهدٍ
يحلفُ إنْ كانَ ينفعُ الحَلِفُ
لا يُرفعُ العبدُ فوق سنّتهِ
ما دامَ مِنّا ببطنه شَرَفُ(٣)

والحطيئة يقسم بالإبل الراقصات السائرات إلى منى:

لعَمْرُ الراقصاتِ بكلِّ فجٍّ
من الركْبانِ موعدُها مِنَاها(٤)

والقسم ببيت الله يسري في الشعر القديم وبخاصة الشعر الجاهلي، فهذا خداش بن زهير، يقسم قائلاً:

كذبتمْ وبيتِ اللهِ حتى تُعالِجوا
قوادمَ حربٍ لا تلينُ ولا تَمري(٥)

وعبدالله بن الزِبَعْرى يؤكد على أنه في قسمه بار، ولا يحلف على إثم:

وإنْ احلفْ وبيت الله لا احلف على إثم(٦)

---

(١) شعر عدي بن زيد العبادي ٣٣ . (٢) المستدرك في شعر بني عامر ٣٥٤

(٣) الأغاني ٣/٢٢

(٤) ديوان الحطيئة ٩٧ لعمر: يمين يُحلف به. والرقص: ضرب من سير الإبل. والراقصات: الإبل تهرول في سيرها. الفج: الطريق.

(٥) شعر خداش بن زهير ٥٧٩

(٦) شعر عبدالله بن الزبعرى وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي ١ / ٢٤٠

وقال ذو الجوشن الأعور مقسمًا:

كذبتمْ وبيتِ الله لا تبلغونني
ولم يكُ قومي قومَ سوءٍ فاجزعا[1]

والتعوذ بالبيت ذي الأركان قديم في الشعر، وهو لون من ألوان القسم، والتعبير عن المكانة القدسية لمكة في النفوس، فهذا عبدالمطلب في ما يُروى عنه أنه لما دخل بحفيده محمد بن عبدالله عند ولادته إلى الكعبة، قال:

الحمدُ للهِ الذي أعطاني
هذا الغلامَ الطَّيِّبَ الأردانِ
قد ساد في المهدِ على الغلمانِ
أعيذُه بالبيتِ ذي الأركانِ
من كلّ ذي حقدٍ وذي شنانِ
حتى أراه سَيِّدَ الفتيانِ[2]

ويقول أبو طالب في لاميته:

أعوذ بربِّ الناس من كلِّ طاعنٍ
علينا بسوءٍ أو مُلِحٍّ بباطلِ
وبالبيت حقُّ البيتِ من بطنِ مكةٍ
وبالله إنَّ اللهَ ليس بغافلِ[3]

ويحذر قريش من المساس بالنبي عليه الصلاة والسلام، ويؤكد من خلال القسم أن عليهم أن يتيقنوا أنه لن يفعل ما يحلمون به، فلا هو تارك مكة، ولن يسلمهم محمدًا، يقول:

كَذبتُمْ وبيتِ الله نَتْركُ مكّةً
ونَظْعَنُ إلاّ أمْرُكُمْ في بَلابِلِ

(١) المستدرك في شعر بني عامر ٢٢
(٢) الطبقات لابن سعد ١/ ٧٠
(٣) هديل الحمام ١/ ١٠٥

كذبتم وبيتِ الله نُبْزَى محمدًا

ولمّا نُطاعنْ دونَه ونناضل

ونُسلمُهُ حتى نُصَرَّع حولَهُ

ونَذْهَلَ عن ابنائِنا والحَلائل

ويَنْهض قومٌ في الحديد إليكُمُ

نهوضَ الرَّوايا تحت ذات الصَّلاصل

وحتى ترى ذا الضِّغْنِ يركبُ رَدْعَهُ

من الطَّعن فِعْل الأنْكَبِ المُتحامل

وإنّا لعمرُ الله إنْ جدَّ ما ارى

لَتَلْتَبِسَنْ اسيافُنا بالأماثل

وفي المدح يقسم المقسمون بمن حجَّ له الحجيج، كما يظهر في مدح الأحوص لعمر بن عبدالعزيز:

ولَعمْرُ من حجَّ الحجيجُ لبيته

تهوي بهم قُلُصُ المطيِّ الذُّمَّلُ

إنَّ امرءًا قد نالَ منك قرابةً

يبغي منافعَ غيرِها لمُضلَّلُ[1]

وفي قول الفرزدق:

حلفتُ بربِّ مكةَ والمطايا

واعناقِ الهديِّ مُقلّداتِ[2]

ويقسم حميد بن ثور الهلالي برب الراقصات، أي الإبل الذاهبات إلى الحج في تأكيد حبه، وثباته وأنه لا يرضى سواه عوضًا ولو كان ملء الأرض، أو ما يعدله، فيقول:

حلفتُ بربِّ الراقصاتِ عَشيَّةً

زفيفًا وربِّ الواقفينَ على الحَبْلِ

(١) شعر الأحوص الانصاري ١٧١

(٢) ديوان الفرزدق ١١٧

لَوَ انَّ ليَ الدنيا وما عُدِلَتْ بهِ
وجُمْلُ لغيري ما اردتُ سوى جُمْلِ[1]

ويتكرر الحلف برب الراقصات عند الكثير من الشعراء في مختلف العصور، فهذا ابن عنين يقسم هو الآخر بهنَّ قائلاً:

حلفتُ بربِّ الراقصاتِ إلى مِنىً
ومَنْ فَرضَ السَّبعَ الجِمَارَ ومَنْ رَمَى[2]

ومن طريف القسم أن يقسم المقسم بأنه كاذب، كما في هذا القسم لنصيب الشاعر، يقول:

لقدْ هتفتْ في جُنْحِ ليلٍ حمامةٌ
على فنن وهْنًا وإنّي لنائمُ
كذبتُ وبيتِ اللهِ لو كنتُ عاشقًا
لما سَبَقَتْني بالبكاءِ الحَمَائمُ[3]

وهذه بلد الممدوح أفضل من بلد المادح، كما يقسم ابن المقرب في قوله:

وبلدةٍ انتَ يا خيرَ الملوكِ بها
احظى لديَّ - وبيتِ الله - من بلدي[4]

ونراه يقسم بما لا يجوز القسم به كقوله:

فامّا واعلام المُحَصَّبِ من مِنًى
ومواقف الركبان من عرفاتها[5]

وفي العتاب يقسم سعيد بن سليمان المساحقي للعباس بن محمد حين غضب عليه برب منى، والمندفعين إلى مزدلفة، فيقول:

(١) ديوانه ١٢٣
(٢) ديوان ابن عنين ٨٢
(٣) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١٢٨٩ وورد مثل هذا القول منسوباً للمجنون في ديوانه ١٨٦
(٤) ديوان ابن المقرب ١ / ٢٩١
(٥) المصدر نفسه ١ / ٢٠٥

أمـــا وربِّ منًى والعـــامـــداتِ لهُ
والدافـعينَ بجـمعٍ يُوضِـعـونَ مَـعـا
لو كـان غـيــرُك يطوي حَـبْلَ خلّتـهِ
دوني ويلبسُ ثوبَ الهـجـرِ مـا اتبـعَـا
فَــارْعَ الذِّمـــامَ ولا تقطعْ وســائلَه
وارجعْ فـإنَّ أخـا الإحـسـان من رَجَـعـا(١)

ويقول جعفر الخطي:

أمَـا والراقــصــاتِ كــانَّ وَخْـشَــا
تنـدُّ بمـا حَـــمَلْنَ منَ الرجـــالِ(٢)

ويقسم بغير الله في قوله:

هذا وأُقْــسمُ بـالـمُـحَـصَّبِ من منًى
ووقــوفِ وفْـدِ الحَجِّ من عَـرَفَــاتِ
وبما أُطيحَ هناكَ من شَـعَـرِ امـرئٍ
وبمـا أُريقَ هـنـاكَ مـن دَمِ شـــاةِ(٣)

وشعراء الغزل يجعلون من القسم شاهدًا على صدق حبهم وما يقولون، فالشاعر عبيد بن عبدالعزى السلامي يأخذ من حبيبته قسمًا، فها هي تحلف برب الحجيج كما يقول:

وقــد حلفتْ والسِّـتْـرُ بيني وبينَهـا
بربِّ حـجـيـجٍ قـد أَهَلُّوا وعـرَّفـوا(٤)

والأحوص يقسم على إلمامه بها، وصدوره عنها بالداء الدوي نفسه، يقول:

كَـــــفِّـنـانـي إنْ مـتُّ فـي درعِ أروى
وامْـتَـحـا لي من بئـرِ عـروةَ مـائي

---

(١) غاية المرام ١ / ٣٦٠
(٢) ديوان جعفر الخطي ٢٥٦
(٣) المصدر نفسه ١٧٥
(٤) قصائد جاهلية نادرة ٦٩

إنّني والذي تحجّ قريشٌ
بيتَهُ سالكين نَقْبَ كداءِ
لَمُلمٌّ بها وإنْ أُبْتُ منها
صادرًا كالذي وردتُ بداء[1]

ويحلف لها قيس بن الملوح بالذي حجّ الملبّون بيته بأنّ يحبها على الرغم من بخلها وضنّها، فيقول:

أحُبًّا على حبٍّ وأنتِ بخيلةٌ
وقد زعموا أنْ لا يُحبّ بخيلُ
بلى والذي حجّ الملبُّون بيتَهُ
ويشفي الجَوَى بالنَّيْلِ وهْو قليلُ[2]

وعمر بن أبي ربيعة يحلف برب المواسم بأنه لم يخن عهدها ووددها:

قلتُ بالخَيْفِ مرةً
لجَوارٍ نَواعِمِ
قلنَ بالله للّتي
سمعتْ قولَ ظالمِ
اقْبَلي العذرَ من فتًى
صادقٍ غيرَ آثمِ
لم يَخُنْكِ الودادَ لا
لا وربِّ المَواسمِ[3]

بل يقسم بأنها تساوي عنده جنة الخلد:

واللهِ والبيتِ العتيقِ لقدْ
ساويتِ عندي جَنّةَ الخُلْدِ[4]

(١) شعر الأحوص الأنصاري ٧١
(٢) ديوان مجنون ليلى ١٧٤
(٣) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٢٥٣-٢٥٤
(٤) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ٣٢٥

ويتأفّف قيس بن ذريح لكثرة الحلف التي لا يفي بحقها، فيقول:

الحمدُ لله قد امسَتْ مجاورةً
اهلَ العقيقِ وامسينا على سَرِفِ
حيٌّ يمانون والبطحاءُ منزلُنا
هذا لَعَمْرُكِ شملٌ غيرُ مُؤتلفِ
قد كنتُ آليتُ جهدًا لا افارقُهَا
افٌّ لكَثْرةِ ذاك القيلِ والحلفِ[1]

وينفي ابن الدمينة الخيانة والغدر عن نفسه، كما تتهمه محبوبته، ويقسم على ذلك قائلاً:

حلفتْ اميمةُ انَّ وُدّيَ كاذبٌ
مَذِقٌ وانّيَ خائنٌ غدّارُ
كذبتْ اميمةُ والذي حجّتْ لَهُ
شُعثُ الرؤوسِ بمكةَ الأبرارُ[2]

ويكرر الحلف بأنه ما اضمر حبّاً لسواها:

أمَا والرّاقِصَاتِ بذاتِ عِرْقٍ
ومن صلّى بِنَعْمانِ الأراكِ
لقد اضمرتُ حبّكِ في فؤادي
وما اضمرتُ حبًا من سِواكِ[3]

وهل تُحبُّ البخيلة، يقسم قيس بن الملوح، فيقول:

احُبًا على حبٍّ وانتِ بخيلةٌ
وقد زَعَمُوا انْ لا يُحَبُّ بخيلُ
بلى والذي حجَّ الملبُّونَ بيتَهُ
ويشفي الهوى بالنَّيلِ وهو قليلُ

---

(١) شعر قيس بن ذريح ٢٣

(٢) ديوان ابن الدمينة ٥٥

(٣) ديوان ابن الدمينة وشرح ديوان الحماسة ٣ / ١٣٧٦ومثير العزم الساكن ١٣٢

وإنَّ بِنا لو تَعْلَمينَ لَغُلَّةً

إليكِ كما بالحائماتِ غليلُ[1]

ويتحدث الدكتور يحيى الجبوري عن تدين المتوكل الليثي، فيقول: «وتدين المتوكل أمر ظاهر في سلوكه وفي شعره.. وقد ظهر أثر الإسلام في كثير من شعره، في معانيه وصوره، ويرد فيه ذكر الحج ومناسكه، ومكة ومواضعها، والبيت الحرام، وتظهر في شعره شخصية المحرم بالحج، وفي أيام الحل والإحرام، وإذا أقسم فهو يقسم بالله وبيته الحرام[2]».

ففي القسم يقول المتوكل متغزلاً:

لا والذي يَهوي على بيتهِ

مِنْ كلِّ فجٍّ مُحْرِمٌ نائلُ

ما ليَ من علمٍ بها باطنٍ

وقد براني حُبُّها الداخلُ[3]

ويقسم نصيب فيقول:

حلفتُ بربِّ المُوضِعينَ لربِّهم

وحُرْمَةِ ما بينَ المقامِ إلى الحِجْرِ[4]

وحتى الشاعر النصراني الأخطل التغلبي يحلف برب الراقصات، فيقول:

إنّي حلفتُ بربِّ الراقصاتِ وما

أضحى بمكةَ من حُجْبٍ وأستارِ

وبالهدايا إذا احمَرَّتْ مَذارِعُها

في يوم ذبحٍ وتشريقٍ وتِنْحارِ

وما بزمزمَ من شُمْطٍ مُحَلَّقَةٍ

وما بيثربَ من عُونٍ وأبكارِ[5]

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١٢٩٦

(٢) شعر المتوكل الليثي ٣٥ – ٣٦

(٣) المصدر نفسه ٢٣٩

(٤) شعر نصيب بن رباح ٩٥

(٥) جمهرة أشعار العرب ٣ / ٩٢٥

ويقسم أحد شعراء قرطبة برب مكة:

حلفتُ بربِّ مكةَ والجمالِ
لقد وُزِنَتْ كروبي بالجبالِ[1]

ويقسم ابن حيّوس برب من صلّى وضحّى:

حلفتُ بربِّ من صلّى وضحّى
وما ضَمِنَ المُحَصَّبُ والحَجُونُ[2]

ويجعل ابن الفارض من حياة أهل مكة قسمًا له، كما في قوله:

وحياتكم يا أهل مكة وهْي لي
قَسَمٌ لقد كَلِفَتْ به أحشائي[3]

ويمدح علي بن محمد الحندودي الشريف أبا نمي محمد بن أبي سعد أمير مكة، فيقول مقسمًا بثلاثة:

وفي الحرم الشَّريف خِضَمٌّ جودٍ
كأنَّ البحرَ أنْحَلَهُ التِطَامَهْ
أما والحجر والحجرات منّي
وبيتِ الله ثالثة قسَامَه
لئنْ أنزلْ بسُوحِ أبي نُمَيٍّ
لقد أنزلْ على كعب بن مامَه[4]

وفي العتاب نجد القسم، فهذا محمد بن جعفر الصقلي يقول مقسمًا:

أما واللهِ والبيتِ الحرامِ
وتربةِ جعفرِ القرمِ الهمامِ

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/١/٢٣٤

(٢) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٦٦٠

(٣) شرح ديوانه ٣٧١

(٤) غاية المرام وهديل الحمام ٣/ ٩٠٢ والسوح جمع ساحة. وكعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادى ضرب به المثل في الجود، فهو من أجود العرب.

لقد أوْرَثْتِني داءً دخيلاً
أشدُّ عليَّ من وقعِ الحُسَامِ[1]

ويقسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي بأخياف منى ومن حلَّ بالمزدلفة، وبالحجاج الذين يقصدون بطحاء مكة:

حلفتُ بأخيافِ المخيِّمِ من مِنًى
ومن حلَّ جمعًا والرعانَ المتاليا
وبالركب يأتمُّونَ بطحاءَ مكَّةٍ
على أركُبٍ تحكي الحنيَّ حوافيا[2]

وفي الهجاء أيضًا يتم القسم، فها هو الفرزدق يقول في هجاء جرير مقسمًا برب الراقصات إلى منى:

حَلَفْتُ بربِّ الراقصاتِ إلى مِنًى
بقين نهارًا دامياتِ المناسمِ
عليهنَّ شُعْثٌ ما اتقُّوا من وديقةٍ
إذا ما الْتَظَتْ شَهْباؤها بالعمائمِ
لَتَحْتَلِبَنْ قيسُ بنُ عيلانَ لقحةً
صَرَى ثَرْمٍ أخلافُها غيرَ رائمِ[3]

● الدعاء

ومن الأساليب التي تكثر في هذا الشعر أسلوب الدعاء، ولا شك أن المواقف في مكة سواء في الحرم أو في المشاعر كلها تستدعي هذا الأسلوب، فمن ذلك قول ضباعة تدعو رب الكعبة بأن يحفظ لها ولدها:

اللهمَّ ربَّ الكعبةِ المُحَرَّمَهْ
انصرْ على كلِّ عدوٍّ سَلَمَهْ

(١) المحمدون من الشعراء ٢٥٠
(٢) معجم الأدباء ٢/ ٧٩٥
(٣) ديوان الفرزدق ٦١٠ وشرح ديوان الفرزدق للصاوي ٢/٨٥١

له يدان في الأمــور الـمُـبْـهَـمَـةْ
كفٌّ بهـــا يعطي وكفٌّ منعـــمـــةْ[1]

وذو الرمة ينصب وجهه نحو مكة، ويدعو الله، أن يمنَّ عليه بلقاء مي:

وكنتُ ارى من وَجْــهِ مَــيَّــة لَـمْـحَــةً
فــابرقُ مَــغْــشِــيّــاً عليَّ مكانيــا
وانْصُبُ وجــهي نَحْـــوَ مكة بالضُّـحَى
إذا ذاك عن فــرط الليــالي بدا ليـــا[2]

والدعاء للأصحاب بتلك البقاع، وتذكر قضاء الليالي الخالية معه، كما في هذا الدعاء لابن الفارض:

ورعى الإلهُ بهـــا أُصَــيْــحَـــابي الأُلَى
ســـــامــــرتهمْ بمجــــامعِ الأهواءِ
ورعى ليـالي الخـيفِ مـا كـانت سـوى
حُلْمٍ مـــضَى معْ يقظةِ الإغـــفـــاء[3]

والدعاء بالسقيا على الطريقة التقليدية في الشعر العربي ماثل للعيان، إذ نجد الشاعر في مختلف العصور يدعو الغيث لسقي تلك الربوع، كما في هذه الدعوة للبرعي الذي يدعو الغمام للانصباب على زمزم والحطيم:

هَطَل الغَـــمَـــامُ على الحَطيمِ وزمــزمِ
وعلى بقـــــاعٍ بالنَّقَـــــا ووهـادِ[4]

وابن الجوزي يدعو الله أن يسقي تلك الديار:

يا ســـــقى اللهُ الحِـــمَى انتمْ بهِ
ورعـــى تـلـك الـرُّبـا والـدِّمَـنَـا[5]

---

(١) المستدرك في شعر بني عامر ٢ / ١٢٣
(٢) ديوان ذو الرمة ٢ / ١٣٠٨
(٣) شرح ديوان ابن الفارض ٣٧٢
(٤) شرح ديوان البرعي ١٣٣
(٥) مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن ١٢٧

والإمام الصرصري يدعو بالسقيا للمصلى، وأعلام الصفا، ومنى، وسفح نعمان، والثنيات، وتستمر السقيا ممتدة إلى طيبة، يقول:

سَقَى المُصَلَّى وأعلامَ الصَّفا ومِنًى
وسَقيَ نَعْمَانَ صوبُ الفضلِ والنِّعَمِ

وسحٌ فوقَ ثَنِيَّاتِ الوداعِ وما
بارضِ طيبةَ من وهدٍ ومن أكَمِ

غَمَامُ روحٍ من الرحمن مُنْبَجِسٌ
بالنورِ يُربي على مُثْعَنْجِرِ الدِّيَمِ

فأصبحتْ برياضِ الأنسِ ناضرةً
يُشفى بنفحةِ ريّاها جَوَى السَّقَمِ[(1)]

ويدعو ابن الفارض أمطار الربيع لتسقي الصفا وأجياد:

سَقَى بالصَّفا الربعيُّ ربعًا به الصَّفا
وجادَ باجيادٍ ثَرى منه ثروتي

مُخَيَّم لذّاتي وسوق مآربي
وقِبْلة آمالي ومَوطن عِزّتي[(2)]

ويخصص المشاعر والمحصب:

وسقى المشاعِرَ والمُحصَّب من مِنًى
سَحًّا وجاد مواقفَ الأنْضَاءِ

ثم يعمم دعوته لتهطل بكل تلك الربوع:

حَيَّا الحَيَا تلك المنازلَ والرُّبى
وسقى الوليُّ مواطنَ الآلاءِ[(3)]

(1) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٤ / ٣٢
(2) شرح ديوان ابن الفارض ١/ ٣٦٠ - ٣٦٣
(3) شرح ديوان ابن الفارض ٢٦٥

ومن الدعاء ما ترفعه هذه الأم داعية لابنها الذي حجَّ عنها، كما ورد عن أسامة بن منقذ، قال: كان عمي نصر قد أخرج حجة عن والدته، فرآها في النوم كأنها تنشده، فانتبه والأبيات على حفظه، وهي:

جُـزيتَ من ولدٍ برٍّ بصـالحـةٍ
فـقـد كـسـبتَ ثوابًا آخـرَ الزمنِ
وقد حَجَجْتَ إلى البيت الحرام وقد
اتيـتَـهُ زائرًا يا خـيـرَ مُـحْـتَـضنِ
فـلا تَنَلْكَ يدُ الأيامِ مـا طَلَعتْ
شـمسٌ ومـا صَدَحَتْ وَرْقَـاءُ في فنِ[1]

وتمتلئ المدائح بالدعاء للممدوح، ويهمنا هنا الدعاء المرتبط بمكة، كما في هذا الدعاء الذي لكثرة ترداده كاد يفهمه الحطيم وزمزم، كما في مدح ابن حيّوس لأمير الجيوش المظفر مصطفى الملك:

فلكثـرةِ الدعـواتِ في أرجـائهَـا
قـد كـادَ يَفْـهَـمُـهَـا الحطيمُ وزمـزمُ
كلُّ الـوَرَى داعٍ وَجُلُّ دعـائهـا
ألاَّ يـزيـلَ الـلـهُ ظلَّـك عـنـهـمُ[2]

ويكرر دعاء الخلائق لمدوحه من حجاج بيت الله في مدحه للوزير الحسن بن عبدالرحمن اليازوري، فيقول:

دعتْ لكَ بالبـقـاء وقـد أجـيـبتْ
خـلائقُ أمّتِ البـيتَ الحـرامـا[3]

وجميع المحرمين يدعون له:

بهـجـةُ اعـيـادِنا بقـاؤُكَ مَـحْـ
ـروسًـا فَـبُـقِّـيتَ مـا بقيَ الأبدُ

---

(١) معجم الأدباء ٢/٥٩٢

(٢) ديوان ابن حيّوس ٢ / ٥٥٦

(٣) ديوان ابن حيّوس ١ / ٢٣٢

بذا دعـــا المُـحْـرِمـونَ مـذ نزلوا

مكةَ في كلِّ مـشــهـدٍ شَـهِـدُوا[1]

ومن الدعـاء في المـدح قـول مـوفق الدين مكي خطيب خـوارزم يمدح أبا العـلاء الهمذاني، ويدعو له وهو بين الحجون والصفا، فيقول:

بقـيتَ بقـاءَ الدَّهر في الناس خـالدًا

أيا خـيـرَ من في الأرض خـالاً ووالدا

لتـروي أحـاديثَ النبيِّ مـحـمـدٍ

وتحُـيي مـسـانيـدًا وتزوي مـعـانِدًا

فـهـذا دعـائي بالحَـجُـون وبالصَّـفـا

وهذا مـرامي حـيثُ مـا كنتُ سـاجِدا[2]

وهذا يزيد بن حبيب القشيري يرفع دعوته إلى الله هاتفًا:

ولما رأيتُ الهـاتفين ورفَّـعتْ

إلى الله بين الأخـشـبين السَّـوالفُ

دعـوتُ بأنْ يا ذا المـعـارج والعـلا

أرى كلَّ ذي بثٍّ بكَ اليـومَ هـاتفُ

أثبني بإحـسـانٍ جـمـالاً فـإنَّني

لكَ اليـوم عـانٍ في العـبـادة كـالفُ[3]

وها هم حجاج بيت الله الحرام يلجون بالدعاء للممدوح، كما يقول ابن حمديس مادحًا:

يدعـو لكَ الحـجـاجُ عندَ عـجـيـجـهِمْ

وصـيـاحـهِمْ بالبـيتِ في ترحـيبِ

من كلِّ أشـعـثَ مُـحْـرِمٍ بلغَ المُنى

بمِنـىً وأدركَ غـايةَ المطلوبِ

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٢٣٢

(٢) معجم الأدباء ٢/ ٨٣٨

(٣) شعراء بني قشير ٢/ ٢٥٩

يبكي بمكةَ والحَجُون مردِّدًا
وبيثربٍ يدعو بلا تثريبِ
فبقيتَ في العليا لتدمير العدى
وغنى الفقيرِ وفرجةِ المكروبِ[1]

ويكرر ابن حمديس دعاء الناس للممدوح مشبهًا إياه بدعاء الحجيج، يقول:

في كلِّ بيتٍ نعمةٌ ومسرَّةٌ
شربوا سُلافتَها بلا كِيزَانِ
ودعاؤهمْ لكَ في السَّماءِ مُحَلِّقٌ
حتى لضاقَ بعَرضهِ الأفْقانِ
كحجيجِ مكةَ في ارتفاعِ عجيجهمْ
وطوافهمْ بالبيتِ ذي الأركانِ[2]

- الاقتباس والتضمين

يمتاح الشعر في مكة بعد ظهور الإسلام من النبع القرآني الفياض، ولذلك فإنَّ آيات الكتاب الكريم كانت ماثلة أمام عيونهم، بل تملأ عليهم سمعهم وأبصارهم، وعواطفهم وخيالاتهم، وفي كثير من الشعر كانت الصياغة الشعرية لمعاني وألفاظ الآيات القرآنية هي الأسلوب الأمثل والمعبر عن الحالة أو الموقف، وكأن الشعراء يقولون: لا يستطيع الشعر أن يفعل أكثر من ذلك، فالآيات القرآنية التي عبرت عن الموضوعات التي نطرقها، لا يستطيع أن يدانيها قول، ومن هنا كان النقل والتضمين والاقتباس هو سبيلهم للتعبير، وقد غرف الشعراء من التعابير القرآنية الكثير، ولسنا بصدد الحصر، ومن الشواهد التي تدل على ذلك قول عبيدالله بن قيس الرقيات:

ليس للهِ حرمةٌ مثل بيتٍ
نحنُ حُجّابهُ عليهِ المَلاءُ
خصَّهُ اللهُ بالكرامةِ فالبا
دونَ والعاكفونَ فيهِ سواءُ[3]

---

(١) ديوان ابن حمديس ٦٣
(٢) المصدر نفسه ٥٠٠
(٣) ديوان عبيدالله الرقيات ٨٧

وهو وجهة الناس أحياء وموتى كما في قول الفرزدق:

هو البيت الذي من كلّ وجهٍ

إليهِ وجوه اصحاب القبورِ [1]

وعلى مدى العصور نجد هذه الاقتباسات كما نجد في العصر الحديث نهل بعض الشعراء كقول علي بن حسن أبو العلا:

بوّأ اللهُ لإبراهيمَ فيها

موضعَ البيت فلبّى وبنَاها

عندها أذّن في الناس فقالوا

ربّنا لبيكَ ربِّي من دعاها

اشْرَقَ التاريخ لمّا أُنْزلتْ

(إقرأْ) وازدان باللفظ حلاها

اهلُها قد امّن الله حِمَاهم

في جوارِ البيتِ والمولى حَماها[2]

وأنت بلا شك عندما تقرأ هذا الشعر فإنّك ستستحضر الآيات الكريمة التالية: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت [3]﴾ وقوله تعالى ﴿وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كلِّ فجّ عميق[4]﴾ وقوله تعالى: ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق[5]﴾ وقوله تعالى: ﴿الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف[6]﴾.

(١) ديوان الفرزدق ١ / ٣٥٠

(٢) هديل الحمام ٣ / ٨٤٧-٨٤٨

(٣) سورة الحج ٢٦

(٤) سورة الحج آية ٢٧

(٥) سورة العلق آية ١

(٦) سورة قريش ٤

فالآيات تنزلت في هذا المكان، وهذا نورها قد غطى كل الأنوار كما يقول حسين عرب:

حــــــرمٌ آمــنٌ وبـيـتٌ حـــــــرامٌ
وبـنـاءٌ مـطـهـــــــرُ الأركـــــــانِ
والتَّـســـابيحُ والتَّــراويحُ نَشْـــوَى
وجَـنَـى الجَـنَّـتَـــــيْنِ مـنـهـنَّ دانِ
وَصَلَ الأرضَ بالسَّــمـــاء حـــديثٌ
عـــبــقــــريُّ الظـلالِ والألـوانِ
آيـةٌ بـعــــد آيـةٍ بـعـــد أخــــرى
يَتَــــوارَى من نورهـا الـنَّـيِّـــرانِ
سُــوَرٌ كــالـنجــوم بل هي أســـمى
بـالـمــعــاني وبـالـهــدى والبــيــانِ(١)

والنهل من القرآن الكريم يتضح في غالب القصائد، فصفات مكة ومعاني تكريمها، وتصوير مكانتها يرجع إلى ما أتت به الآيات القرآنية، فقول طاهر زمخشري:

لحِــمَى البـــيـتِ عند أكــرم وادٍ
غــيــر ذي الزرع وهْو روضٌ نضــيـرُ
للقـــداســاتِ في ذُرا مَــهْــبطِ الفُــرْ
قــان للـخــيــر وهْو فـيضٌ وفــيــرُ
خَــيْــرُ وادِ به القــداســةُ تَـخْـتَــا
لُ وفــي الـعَـــــدْوتـينِ نـوْرٌ ونــور
وهْو مَــهْـوَى النُّفــوس يَهْـفُــو إليــهِ
كلُّ قلبٍ برحْــبِــهِ يَسْـتَــجــيــرُ(٢)

هو في هذا السياق القرآني الذي سار عليه أغلب الشعراء، وإيراد أدلة أخرى يؤدي إلى النتيجة ذاتها.

(١) مكتي قبلتي ٤٧ – ٤٨
(٢) المرجع نفسه ٩١ – ٩٤

وللحديث الشريف مكانة واضحة في التناص والتضمين والاقتباس، كما نجد في قول علي السنجاري مضمنًا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (هذه مكة قد ألقت إليكم افلاذ أكبادها)[1] عندما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بحضور زعامات قريش لمعركة بدر:

فهذهِ مكةُ القت لَكُم
افلاذَهَا واجْتَمَعَ الأذهنْ[2]

والشاعر عيسى السعلبوس يضمن الحديث الشريف في فضل الصلاة في الحرم المكي فيقول:

ومَسجِدُنا بيِّنٌ فَضْلُهُ
على غيرهِ ليسَ في ذا مِرَا
صلاةُ المُصلِّي تُعدُّ لهُ
مئينَ الوفًا صلاةَ الوفا
كذاكَ اتى في حديثِ النبيِّ
وما قالَ حقٌّ بهِ يُقتَدَى[3]

ويضمن الأميري قول عمر بن الخطاب المشهور في الحجر الأسود عندما قبله: (إني أعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك)، فيقول الأميري:

الحجرُ الأسودُ قبّلتُهُ
بشفتيْ قلبي وكُلِّي ولَهْ
لا لاعتقادي انَّهُ نافعٌ
بل لهيامي بالذي قَبَّلَهْ
محمدٌ اطهرُ انفاسِهِ
كانت على صفحتِهِ مُرْسَلَهْ

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ٥٧٠ وانظر معركة بدر في كتب السير
(٢) الإشراف على تاريخ الأشراف ٤١٧
(٣) إتحاف الورى ٢ / ٢٥٢

قَبْلَةُ والنُّورُ من ثَغْرِهِ
يُشْرِقُ آيات هدىً مُرسلة
قبلتُ ما قبلَةُ ثغرهُ النْـ
ـناطقُ بالوحي ابتغاءَ الصِّلة(1)

ويقول طاهر زمخشري:

لحمى البيت عند أكرم وادٍ
غير ذي الزرع وهْو روضٌ نضيرُ(2)

وقول محمد علي مغربي:

فما كان هذا البيتُ إلا مثابةً
يحجُّ إليها كلُّ ساعٍ وطائفِ(3)

والشواهد لا تكاد تخلو منها قصيدة من القصائد التي تحدثت عن مكة، والإكثار منها زيادة لا تضيف جديدًا، ولذلك فالعودة للشعر تنبئك عن استخدام التضمين والاقتباس بشكل وافر، لأن الموضوع ممهد في كتاب الله الكريم، وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

- التصوير

صوّر الشعراء البيت الحرام وأركانه في المدح والرثاء بصور إنسانية، فجردوا منه شخصًا يتشوق، ويتحرك، ويبكي ويضحك، وتنطق الأركان، وانظر إلى هذه الصور المشخصة في مدح شهاب الدين الفاسي للحسن بن عجلان:

سافرتَ عنّا فكان الفضلُ للسَّفَرِ
وقد رجعتَ فكان الفضلُ للحَضَرِ

(1) ديوان مع الله ١١٦
(2) مكتي قبلتي٩١
(3) المرجع نفسه ١٦٤

وحـــركَ الـبــيتُ أشـــواقًـــا إليكَ بـه
لـولا قُـــدومُكَ همَّ الـبــيتُ بـالسَّـــفَـــر

وكـــاد يبكيك الـمـــســـعى ومـــوقـــفـــهِ
فـــيـــجـــمـــعـــان لفـضـل العين والأثر

وأوحشَ الـحِـــجْـــرَ دوراتُ الـوقـــوفِ بـهِ
وفـــاقـــدُ الأنسِ يـحكي فـــاقـــدَ الـعـمـــر

وأنـطـقَ الـلـهُ ركنـيــــه: بـقـــــيتَ لـنـا
كلثـمكَ الرُّكن أو تَقْـبـيـلكَ الـحـجـرَ(*)

على الـمـــقـــام يمينًا لا مـــقـــام لـهُ
حـــتى تُرى فـيـــه في الآصـــال والبُكَر[1]

وانظر إلى هذه الصورة المقابلة في الرثاء، فإذا كان البيت في شوق إلى الممدوح، وأركانه تهتزّ فرحًا وطربًا للقائه، فإنه في الرثاء يتدثّر الحزن، وتتقرّح جفونه من البكاء:

وغـــدا الـصّـــفـــا مـــتـكدِّرًا وجـــفـــونُهُ
مُـــــذْ غـــــابَ لـم تُكحلْ بميلِ منـامِ

وعــــيـــونُ زمـــزمَ أترحت ودمـــوعـــهـــا
اســـــفًـــــا عليكَ على الـدوام دوامي

ومـــــقـــــامُ إبراهيـمَ امـــــسى لابسًـــا
ثوبَ الـحـــــدادِ اسىً وثوبَ ســـقَـــامِ

ولـركنِ بـيتِ الـلـه وحـــشـــةُ ذاكـــرٍ
أبدًا لِقُـــبْـلةِ ثَغْـــركِ البَـــسّـــامِ

ولِطَوْفِكَ الـبـــيت الـحـــرام مـكفَّنًا
ذكـــرى بطوفك حـــالـة الإحـــرامِ[2]

(*) اختلال في حركة الروي (هكذا في الأصل)

(١) العقد الثمين ٦ / ٢١٥ (٢) غاية المرام ٦٢٦/٢

ويشخّص أبو الخير بن عبدالقوي من مكة امرأة تبكي على عزل واليها، فيقول:

عـيـونُ مكةَ تبكي عـزلَ حـاكِـمِـهَـا
أبي الـسـعـاداتِ جـالي ظُلْمـةَ الرِّيَبِ(١)

ونراها مرة أخرى مشخصة في شكل زوجة تبكي فقد زوجها، كما في رثاء شهاب الدين بن خبطة لأبي القاسم بن عجلان وأخيه علي، فيقول:

وأمُّ القُـرى لـولا بـقـاءُ أبي القِـرى
لأبنائـهـا كـادت لَعَـمْـري تَـقَـبَّـرُ(٢)

ونكاد نجد الشيء ذاته في الشعر الحديث ولا داعي للإطالة.

****

(١) إتحاف الورى ٣/٦٣٨

(٢) غاية المرام ٢/ ٢٠٥

القسم الخامس

من شعراء العشق المكي

القسم الخامس

من شعراء العشق المكي

من خلال العبور الزمني، فقد وجدنا العديد من الشعراء الذين تعلقت قلوبهم بمكة، وهفت نفوسهم إلى مشاعرها، وقد تخيرت عددًا من الشعراء، وجدت فيهم حرارة العاطفة، وشدة التلهف، وقد أبانوا في أشعارهم عن تعلقهم بها، وهم: (الشريف الرضي، والزمخشري، وابن جبير، ويحيى الصرصري، والبرعي، وابن معصوم).

الشريف الرضي:

أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الطاهر الملقب بذي المناقب، يصل نسبه إلى موسى الكاظم، ولذلك لُقِّبَ بالشريف الموسوي، وُلد في بغداد سنة ٣٥٩هـ - الموافق ٩٦٩م وفيها تعلم، وتعمق في علوم القرآن واللغة وعلم الكلام، قال الشعر صبيًا لم يجاوز العشر سنين بقليل كما يقول عنه الثعالبي في اليتيمة، وأثنى على شعره فقال: (يعد اليوم أبدع أهل الزمان، وهو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المفلقين كالحماني وابن طباطبا والناصر، ولو قلت أنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق).

إنه صاحب القول المشهور:

وتلفّتتْ عيني فمذْ خفيتْ
عنّي الديارُ تلفّتَ القلبُ

وهو الذي يرى نفسه في الفخر مساويًا للخليفة العباسي لا فرق بينهما سوى رسوم الخلافة كما يقول:

عطفًا أميرَ المؤمنينَ فإنّنا
في دَوْحَةِ العَلْياءِ لا نَتَفَرّقُ

مـــا بيننا يومَ الفَــخَـــارِ تفـــاوتٌ
أبدًا كــلانا في الـمـــعـــالي مُـعْــرِقُ
إلاّ الخِـــلافـــةَ مَــيَّـــزَتْكَ فـــإنّني
أنـا عـــــاطلٌ منهـــــا وأنـتَ مُطوّقُ

وتتعدّد آهات الشريف الرضي في الحنين والاشتياق إلى أهل المصلّى والخيف، وهو ينشد قلبه الذي ضاع منه بين المزدلفة ومنىً:

أيُّهـــا الرائحُ الـمـــغـــذُّ تحـــمّلْ
حـــاجـــةً لـلـمـــعـــذّبِ الـمـشـــتـــاقِ
أقْــرِ عنّي الســـلامَ أهلَ الـمُـــصلّى
وبلاغُ السّـــــلام بـعـــــدَ الـتّـــلاقي
وإذا مـــا مَـــرَرْتَ بالـخَـــيْفِ فـــاشـــهـدْ
أنّ قـلـبـي إلـيــــــه بـالأشـــــــواقِ
وإذا مـــا سُـــئلتَ عنّي فـــقلْ: نضـ
ـوُ هـوىً مــــــاطلَتْهُ الـيــــومَ بـاقِ
ضـــاعَ قلبي فـــانشُـــدْهُ لي بين جَـــمْعٍ
ومـنـىً عـنـدَ بـعـض تـلـكَ الحِـــــداقِ
وابكِ عـنّي فطالـمـــــا كنتُ من قـــبـ
ـلُ أُعـــيـــرُ الدمـــوعَ للعـــشّـــاقِ(1)

وهو يبعث التحية الخالصة لتلك الأماكن الغالية على قلبه، إنها تحية الحب الخالص والذكرى اللوعة لكل مكان نزل فيه وهو حاج، ويجري حوارًا مع صاحبه يصدع القلب حين تشكو القلوب حرَّ شوقها لبعضها البعض، وما أن يحاول صاحبه أن يثنيه عن بكائه لفراق الديار، ويذكره بالنفر والتجهيز للعودة والسفر حتى يبل دمعه فضل ردائه، كما في هذه التحية الرقيقة العذبة:

حيِّ بـين الـنَّـقـــا وبـين الـمُـــصلّى
وَقَـــفـــاتِ الركـــائبِ الأنـضـــاءِ

(1) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٧٩

وَرَواحَ الحَجيجِ ليلةَ جَمْعٍ

وبجمعٍ مَجامعُ الأهْواءِ

وتذكَّرْ عنّي مُناخ مطيِّي

باعالي مِنىً ومَرْسَى خِبَائي

وتعمَّدْ ذكري إذا كنتَ بالخَيْـ

ـفِ، لظبيٍ من بعض تلك الظِّباءِ

قل له: هل تُراكَ تذكرُ ما كا

نَ بباب القُبَيْبَةِ الحمراءِ

قال لي صاحبي غداةَ الْتَقَيْنا

نَتَشاكَى حَرَّ القلوبِ الظِّمَاءِ

كنتَ خَبَّرْتَني بانَّكَ في الوجـ

ـد عقيدي، وأنَّ داءَكَ دائي

ما تَرَى النَّفْرَ والتَّحَمُّلَ للبيـ

ـنِ، فماذا انتظارُنا للبُكاءِ

لم يَقُلْها حتى انْثَنَيْتُ لما بي

اتلقّى دمعي بفَضْلِ ردائي[1]

وهذا الذي ترونه حرًا طليقًا، هو في حقيقة الأمر أسيرٌ عانٍ، أسره المكان حتى ما عاد يقوى على التفكير بمغادرته، فلْتقلُّوا اللوم والعذل أيها الأصحاب، ولا تعجبوا من حالته التي ترونه عليها، فهو يسمع ما لا تسمعون، ويرى ما لا ترون، وإن كانت الأذنان عاجزتين عن السمع، فقلبه يقظ ، وجنانه سامع لهمسات الحنين التي تتواصل بينه وبين هذه الأرض المقدسة:

تعجَّبَ صَحْبي من بُكَائي وأنْكَروا

جوابيَ ما لَمْ تسمعِ الأذنانِ

---

(١) المصدر نفسه ١ / ٣٥

فقلت نعم لم تسمع الأذن دعوةً
بلى إنّ قلبي سامعٌ وجَنَاني
ويا ايها الركب اليمانون خبّروا
طليقًا باعلى الخيف انّيَ عاني
ويا صاحبيْ رَحْلِي اقلاً فإنّني
رايتُ بقلبي غيرَ ما تَريانِ
ولم يبقَ من أيام جَمْعٍ إلى منىً
إلى موقف التّجميرِ غيرُ أماني
تعلّلَ دائي بالعراق طماعةً
وكيف شِفائي والطبيبُ يماني[1]

ويصدع قلبه البعد، ويتساءل عن الربع، وهل بقي كعهده ؟ ويعتذر لعاذلته التي تلومه على انشغاله بتذكر تلك المواطن، فيناشدها أن تكف عن عذله، فالأمر خارج عن إرادته، وكيف يسلو وليس له قدرة على ذلك، كما في قوله:

قِفا صاحِبَيَّ اليومَ أسألُ ساعةً
ولا تُرجِعا سمعي بغير بيانِ
هَلِ الرَّبْعُ بَعْدَ الظاعنينَ كعهدهِ
وهل راجعٌ فيه عليَّ زماني ؟
وهل مسَّ ذاك الشّيحَ عِرْنينُ ناشِقٍ
وهل ذاق ماءً باللِّوى شفتانِ؟
لقد غدرَ الأظعانُ يومَ سُوَيْقَةٍ
ويَدْمى لذكر الغادرين بناني
لكَ اللهُ هل بَعْدَ الصُّدودِ تَعَطُّفٌ
وهل بعد رَيْعانِ البِعَادِ تداني؟
وعاذلةٍ قُرْطٌ لأذنِيَ عَذْلُها
تلومُ وما لي بالسُّلُوِّ يدانِ

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ /٥٢٢

أعَـــاذِلَـتي لـو أنّ قلـبَكِ كـــان لـي

سلـوتُ، ولكنْ غــيـــرُ قلبكِ عـــانِ

ألا ليتَ لـي من مـــاء يَبْـرينَ شــربةً

ألـذُّ لـقلبي مـن غَـــريضِ لِبـــانِ

أداوي بـهـــا قلبًــا على النّأيِ لم تَدَعْ

بهِ فَــتَكاتُ الشَّـوْقِ غــيــرَ حنانِ(١)

ويمتدُّ حبل الشوق، ويشتدُّ عندما يرى الركب الراحلين إلى مكة، وهو مقيم بأرض العراق، هو بالعراق ودواءه هناك، إنه لديغ في هذا الموطن البعيد، يبتغي رقية ذاك الموطن الحبيب، يقول:

أقـــــولُ لِركْبٍ رائـحينَ لـعلّـكمْ

تَحِلّونَ من بعدي العَـقيقَ اليَـمانيَـا

خـذوا نظرةً مني فلاقـوا بها الحـمى

ونَجْـدًا وكـثـبـانَ اللّوى والـمطاليَـا

ومُـــرّوا على أبيـــاتِ حيٍّ برامـــةٍ

فـقولوا لديغٌ يَبْـتَـغي اليـومَ راقِيـا

عَـــدِمْتُ دوائي بالعـــراقِ فــربّمـــا

وجـدتمْ بنجـدٍ لي طبـيـبًـا مُـداويا

وقـولـوا لجـيـرانٍ على الخَـيْفِ من مِنًى

تُراكُمْ مَنِ اسْـتَـبْـدَلتُمُ بِجِــواريا

ومَـنْ وَرَدَ الـمــــاءَ الذي كنتُ واردًا

به ورَعَى الرَّوْضَ الذي كنتُ راعـيـــا

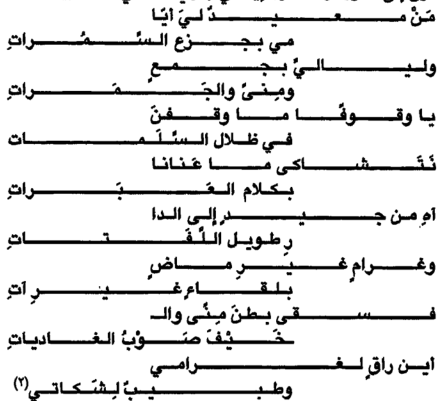
فَـوا لَهْـفَتي كم لي على الخَـيْفِ شـهـقـةً

تذوبُ عليـــهـــا قطعـــةٌ من فُــؤاديا

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٥٢٢ – ٥٢٣

ترحّلتُ عنكمْ لي أمامِيَ نظرةٌ
وعشرٌ وعشرٌ نحوكمْ لي ورائيا[1]

ويتحسّر على تلك الأيام الخالية التي جمعته بأحبابه في جمع ومنى، وفيها يتحول الحنين والشوق إلى الغزل، ولعله غزل إيحائي رمزي، كما في هذه الأبيات:



مَنْ معيدٌ ليَ أيّا
مي بجزعِ السَّمُراتِ
وليالِيَّ بجمعٍ
ومِنىً والجَمَراتِ
يا وقوفاً ما وقفنَ
في ظلال السَّلَمات
نتشاكى ما عنانا
بكلام العَبَراتِ
أمِ من جيدٍ إلى الدا
رِ طويل اللَّفَتاتِ
وغرامٍ غيرِ ماضٍ
بلقاءٍ غيرِ آتِ
فسقى بطنَ مِنًى والـ
ـخَيفَ صَوْبُ الغادياتِ
أين راقٍ لغرامي
وطبيبٌ لِشَكاتي[2]

وكما قلت فالشريف الرضي يخلط الشوق بالغزل، ولعل سائلاً يسأل أهي طريقة ابن أبي ربيعة ؟ حيث التغزل بالحاجات، والحديث عن جمال راميات الحصى، أقول: هناك فرق بين غزل عمر بن أبي ربيعة، وغزل الشريف الرضي، فالشريف يتوسل بالغزل ليعبر عن شوق عارم لتلك الأماكن، بينما عمر ليس في حاجة إلى ذلك إذ هو من المقيمين بتلك الديار، ثم إنّ إحساس الشريف الرضي بالبعد في العراق، وهذه الأرض هي أرض النبوة وأرض أجداده، يجعله يشتد في إثرها مستغلاً الغزل ليعبر عن هذه الحميمية التي تجمعه بهذه الأماكن، فهذه الظباء الرائحات الغاديات اللواتي يرمين بعيونهن النجل قبل الرمي بالحصيات، ويعقرن القلوب قبل عقرهن الأضحيات، ما هنّ إلا تلك الأشواق والعواطف الحارة، يتمثلها هذا العاشق المحب لهؤلاء الفتيات، كما في هذه الأبيات:

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٥٧٠ – ٥٧١
(٢) المصدر نفسه ٢١٧

وَظِبَاءٌ حَالِيَاتٍ
كَظِبَاءٍ عَاطِلاتِ

رائحاتٍ في جلابيـ
ـب الدُّجَى مُخْتَمِراتِ

راميات بالعيون النُّـ
ـجْلِ قَبْلَ الحَصَيَاتِ

أَلِعَقْرِ القلبِ راحوا
ام لعقرِ البُدُنَاتِ

كيف اودعتُ فؤادي
اعْيُنًا غيرَ ثِقَاتِ

ايها القانصُ ما احـ
ـسَنْتَ صَيْدَ الظَّبَيَاتِ

فاتكَ السِّرْبُ وما زُوْ
وِدْتَ غَيْرَ الحَسَرَاتِ

نظرٌ يَشْغَلُ منّا
كلُّ عينٍ بِقَذاةٍ

كم نأى بالنفر عنّا
من غزالٍ من مَهَاةٍ

آه مِنْ جيدٍ إلى الدَّا
رِ كثيرِ اللَّفَتَاتِ

وغرامٍ غيرِ ماضٍ
بلقاءٍ غيرِ آتِ

فَسَقَى بَطْنَ مِنىً والـ
ـخَيْفَ صَوبُ الغادياتِ

وزمانًا نائمَ العُذْ
ذالِ مأمونَ الوُشَاةِ

في ليالٍ كاللآلي
بالغواني مُقْمِراتِ[1]

---

(١) ديوان الشريف الرضي ١ / ٢١٧ – ٢١٨

ويكرر نشدان قلبه الضائع بأسلوب غزلي لطيف، يعبر فيه عن تعلقه بظبيات ذاك المكان، ويطلب من أصحابه البحث عنه، فإن وجدوا فتىً قد أهلكته العيون النجل فهو هو:

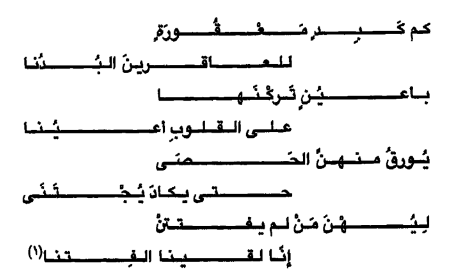
يا رفيقيَّ قِفا نِضْنويكُما
بينَ أعلام النقا والمُنْحَنَى
وانْشُدا قلبي فقد ضيّعْتُهُ
باختياري بين جَمْعٍ ومِنَى
عارِضَا السِّرْبَ فإنْ كان فتًى
بالعيونِ النُّجلِ يَقْضي فأنا
إنَّ من شَاط على الحاظِها
ضِعْفُ من شاطَ على طول القَنَا
تجرحُ الأعينُ فينا والظُّلَى
قاتلَ اللهُ الظُّلَى والأعْيُنَا
ما رأت عينيَ مذْ فارقتكمْ
يا نُزولَ الحيِّ شيئًا حَسَنا(١)

وهو يصف وفد راميات الجمار اللواتي يورق الحصى من مسّهن له، بعد أن تركن قلبه معقورًا:

أعادَ لي عيدَ الضّنى
جيرانُنا على مِنَى
يقول مَنْ عاينَ ها
تيكَ الظُّلَى والأعْيُنَا
هذا غزالٌ قد عَطَا
وذاك ظَبْيٌ قدْ رَنَا
مُجْتَمِراتٌ رُحْنَ عن
رَمْيِ الجِمارِ مَوْهِنَا
تَرَوُّحَ السِّربِ عن الـ
ـورْدِ إذا الليلُ دنا

---

(١) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٤٨٧ – ٤٨٨



كم كَبِدٍ مَعْقُورَةٍ
للعاقرينَ البُدْنا
باعينٍ تَركْنَها
على القلوبِ اعينا
يُورقُ منهنَّ الحَصَى
حتى يكادُ يُجْتَنَى
لِيُهْنَ مَنْ لم يفتتنْ
إنّا لقينا الفِتنا(1)

والمتتبع لديوان الشريف الرضي، يجد العديد من القصائد التي تبدأ بالشوق والحنين، ويقف على كثير من المقطعات المترعة بالنزوع إلى المكان، لقد كان إناء الشريف الرضي مفعمًا ومترعًا بعاطفة الحنين إلى مسقط رؤوس الآباء والأجداد، وظل هذا الشوق ينازعه على الرغم من مداواته أحيانًا بالسفر إليها حجاً وعمرة.

الزمخشري:

هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، وكنيته أبو القاسم، ولقّب بجارالله، لمجاورته بيت الله، ونسب إلى بلده زَمخشر في خوارزم، ولد سنة ٤٦٧هـ - في وقت كان النشاط العلمي والأدبي في ازدهار، ذكر من ترجم له كابن خلكان أنه رحل في طلب العلم إلى بخارى، ثم عمل في التدريس، متنقلاً في كثير من بلاد فارس، لكنه رغب في السفر إلى مكة، والمجاورة هناك، وفي ظلال البيت العتيق، تطول مدة بقاء الزمخشري معلمًا ومؤلفا للتصانيف المختلفة، كما يقول في ذكر تأليف كتابه الكشاف في التفسير:

وتمَّ ليَ الكشّافُ ثمَّ ببلدةٍ
بها هبطَ التنزيلُ للحقِّ كاشِفَا
على بابِ أجيادٍ بنى ليَ منزلاً
كركنِ شَمامٍ بالصَّفا متواصِلا

(1) ديوان الشريف الرضي ٢ / ٤٨٠ - ٤٨١

وانفقَ في إتمامهِ من تلاوةٍ

ثقيلاتٍ وزنٍ في البلادِ خفائفا[1]

ومع حبه لبلاده إلا أنه يرحل عنها، والدافع إلى هذا الرحيل بداية هو شعوره بعدم التقدير، كما ورد ذلك في قوله:

أحَبُّ بلادِ اللهِ شرقًا ومغربًا

إليَّ التي فيها غُذيتُ وليدا

ولكن تواسي بالكرامةِ غيرها

وهذي أرى فيها الهوانَ عتيدا

وما منزل الإذلالِ للحرِّ منزلاً

وإنْ كانَ عيشُ الحرِّ فيهِ رغيدا

سأرحلُ عنها ثمَّ لستُ براجعٍ

وأضربُ مرميً في البلادِ بعيدا[2]

ويتحول إلى مكة، وفيها يقضي سنوات طويلة من عمره، ويلقى عيشًا طيبًا في حمى شريف مكة ابن وهاس، الذي يقول فيه:

بمكةَ آخيتُ الشريفَ وفتيةً

حواليهِ من آلِ النبيِّ غطارِفا

يُتابعُ إنْ نوظرتُ رَدءًا لشاغبٍ

وينهضُ إنْ ذوكرتُ دَرءًا مُكاتِفا

متى أقبلَ العلاّمةُ انتفضوا لهُ

وحيّوهُ حيّا اللهُ تلكَ المعارِفا

وكانَ ابنُ وهّاسٍ لجنبيَّ فارشًا

كما تفعلُ الأمُّ الحَفِيَّةُ لاحفا[3]

---

(١) الأدب العربي في إقليم خوارزم ٢٤٤

(٢) الأدب العربي في إقليم خوارزم ٢٢٨

(٣) المرجع نفسه ٢٣٣ الرده: المعين. والدره: الدفع. والحفية: التي تبالغ في الإكرام

وبعد طول إقامة في مكة يهزه الشوق والحنين إلى مسقط رأسه، فيبعث هذه الأبيات من مكة إلى الوزير منتجع الملك في بلاده، يقول فيها:

إليكَ يهزُّني الحبُّ المطاعُ
ويشكرني لرؤيتكِ النُّزاعُ
فهل لكَ يا شقيقَ النفسِ علمٌ
بما انبات عنه واطّلاعُ
ولو اني قدرتُ لطرتُ شوقًا
بحرفٍ خطوها خطوٌ زماعُ
وكنت بحيث يوصلني إليكمْ
غدوّي أو رواحي لا أُراعُ
وفي عدواءِ داركَ عن دياري
أُراقبُ زورةً لا تُستطاعُ(١)

وتسمح الأيام، ويعود لبلده، ولكنه ما أن يصل إليها، حتى ينازعه الشوق لمكة، ويندم ندامة الكسعي، ويبكي بكاء الحنين الواله، ويصور بعده عن مكة تصويرًا فيه من شدة الندم ما فيه من شدة التحسر والألم، يقول:

بكاءٌ على ايامِ مكةَ إنَّ بي
إليها حنينَ النِّيبِ فاقدةَ البكرِ
تذكّرتُ ايامي بها فكأنّني
قد اختلفتْ زرقُ الأسنّةِ في صدري
ابيتُ على الصَّخْرِ المباركِ باكيًا
كما انَّتِ الخنساءُ تبكي على صخرِ
وحينَ تخطينا المناقبَ وارْتَمَتْ
بنا العيسُ تهوي في مسالكها القفرِ
وشطَّ باصحابي عن الأبطحِ السُّرَى
ولطَّ الجبالُ المُشْمَخِرّاتُ بالسِّترِ

(١) المرجع السابق ٢٢٨

وقلتُ: الا اينَ الحَطِيمُ وزمزمٌ
ومـا ليَ محجوزًا عن الركنِ والحِجْرِ
صفرتُ وراءَ الغورِ صفرةَ مفلسٍ
رأى يدَهُ صِفرًا من البيضِ والصُّفْرِ
وقلتُ لقلبي قد ملكتكَ مرّةً
فما انتَ إلاّ طائرٌ طارَ في وكرِ[1]

ويعود يهزه الشوق إلى مكة، ويرى أنه باع بالخسران، وأن صفقة العودة إلى بلاده كانت صفقة خاسرة، فيرسل أعذب الألحان، ويزفر أحرّ الآهات، قائلاً:

ابتاعُ بالفوزِ الشَّقاوةَ خاسرًا
واستبدلُ الدنيا الدَّنِيَّةَ بالأُخْرَى
إذا خطرتْ بالبالِ ذكرى إناختي
على حرمِ الله استفزَّتْنِيَ الذِّكْرى
أكابدُ ليلاً كالليالي وحسرةً
ودمعًا غزيرَ المُستَقَى غائرَ المَجْرى
وادعو إلى السّلوانِ قلبًا جوابُهُ
لداعيهِ مِهْراقٌ من المُقْلَةِ العَبْرَى
ومـا عُذْرُ مَطْروحٍ بمكةَ رَحْلُهُ
وربِّكَ لا عذرًا، وربِّكَ لا عُذْرا[2]

وتعود المياه إلى مجاريها، ويعود الجار مجاورًا، فتصفو له المشارب، تمامًا كما يعود الليث لعرينه، والسيف لقرابه، كما يقول:

انا الجارُ جارُ اللهِ مكةُ مركزي
ومَضْرِبُ اوتادي، ومَعْقِدُ اطنابي
ومـا كانَ إلاّ زورةٌ نهضتي إلى
بلادٍ بها اوطانُ رَهْطي وأحبابي

---

(١) المرجع نفسه ٢٢٩

(٢) المرجع السابق ٢٣٠

فلمّـــا قـــضَتْ نفـــسي ولـلـهِ درّها

لبـــانةَ دارٍ زندُهَا غـــيـــرُ خـــيّـــابِ

كـــررتُ إلى بطحـــاءِ مكة راجـــعًـــا

كـــأنّي أبو الشّـــبلينِ كـــرّ إلى الغـــابِ(١)

ولكن حنين المشتاق يعاوده، فينهض إلى بلده مرة أخرى، وفيها وافاهُ أجله، فقال أحد تلامذته يرثيه:

فـــأرضُ مكّةَ تذري الدمعَ مُـــقلتُـــهـــا

حـــزنًا لفـــرقـــةِ جـــارِ اللهِ مـــحـــمـــودِ(١)

هكذا كانت نهاية جار الله بعيدًا عن البيت الذي أصفاه خالص الحب، وأبان في شعره عن عاطفة صادقة، وارتباط أكيد ببيت الله الحرام.

ابن جبير:

محمد بن أحمد بن جبير الكناني، كان أجداده من الداخلين إلى الأندلس مع الطوالع الأولى للفتح الإسلامي، أديب وشاعر ورحالة، شهر بأدب الرحلة أكثر مما شُهر بالشعر على الرغم من وجود ثلاثة دواوين من الشعر له: أحدهما متوسط الحجم لم يذكر اسمه، والثاني بعنوان (نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح) في رثاء زوجته، وهذا يدل على عظم المحبة والوفاء، والثالث بعنوان (نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان) ولم يعثر على هذه الدواوين، لكن ما ورد له من شعر في المصادر الأندلسية يدل على شاعرية رقيقة ومتمكنة. ويعده عبدالقدوس الأنصاري من الموهوبين الأفذاذ الذين منحوا موهبة السمو في الشعر والنثر معًا، ويثني على شعره فيقول: (ما اطلعنا عليه في كتابي الإحاطة ونفح الطيب من شعره يدلنا على مدى تدفق شاعريته وفحولته، فهو في الأدب مزدوج الإنتاج: نثره بديع في مستوى عال لفظًا ومعنى، وشعره في منزلة رفيعة من الشعر العربي الرصين أهدافًا ومبنى) (٣).

---

(١) المرجع نفسه ٢٣٠ (٢) المرجع نفسه ٢٣٠

(٣) مع ابن جبير في رحلته لعبدالقدوس الأنصاري ٥١

كان همه الارتحال بدءًا إلى البيت الحرام، لقضاء الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وفي ذلك يقول أبو عبدالله المراكشي عنه: (ولم يزل دأبه تمني الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول):

هنيـــئـًـــا لمن حجَّ بيتَ الهُـــدَى
وحـــطَّ عـــن الـــنَّـــفْـــسِ أوزارهـــا
وإنَّ الســـعـــادةَ مـــضـــمـــونةٌ
لمـن حـلَّ طـيـــــبـــــةَ أو زارهـــا

وفي مثله يقول:

إذا بلـغ الـمـــرءُ أرضَ الحـــجـــازِ
فـــقـــد نـالَ أفـــضـلَ مـــا أمَّلَهْ
وإن زار قـــبـــرَ نـبـي الـهُـــدَى
فـــقـــد أكـــمـلَ الـلـه مـــا أمَّـلهْ

وله في هذا المعنى كلام كثير نظمًا ونثرًا.. ومنه مقالة سماها (رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار والمناسك)[1].

ولما تم فتح بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ، كان ذلك من أقوى الأسباب ليقوم برحلته الثانية كما يقول أبو عبدالله المراكشي، فتحرك لها من غرناطة أيضًا يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين، قال: وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام، وزيارة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وزيارة المساجد الثلاثة، وفي رحلاته هذه ألف كتابه المشهور المسمى برحلة ابن جبير، وهذا العلم الرحالة له من الأشعار ما يعدُّ فيها شاعرًا.

وتتغلب على شعره تلك النزعة العاطفية القوية، ظهر أثرها في هذا الشوق العظيم الذي أبداه في حنينه إلى مكة.

(١) الذيل والتكملة ٥ / ١ / ٦٠٤

إنّ هذا الشاعر البعيد الدار يحنُّ إلى مكة حنين الواله، وشوق المستهام، ويعلن أنّ سبب ارتحاله هو الوصول إلى البيت الحرام، وكأنّ هذه الأمنية كانت السبب في جعله من اشهر الرحالة في تاريخنا الجغرافي، يقول عندما تحرك للرحلة الحجازية:

اقـولُ وقـد دعـا للخـيـرِ داعٍ
حَنَنْتُ لهُ حنينَ المُستَهامِ
حـرامٌ انْ يلذَّ ليَ اغتماضٌ
ولم ارحلْ إلى البيتِ الحرامِ
ولا طافت بيَ الآمالُ إنْ لم
أطُفْ ما بينَ زمزمَ والمقامِ
ولا طابتْ حياةٌ لي إذا لم
ازرْ في طيبةٍ خيرَ الأنامِ
واهديهِ السّلامَ واقْتَضيهِ
رضىً يُدني إلى دار السّلامِ[1]

فبعد أن يحرِّم النوم على عينيه، ويدعو على نفسه بأن لا تطوف به الآمال، ولا تطيب له الحياة إذا لم يزر تلك الأماكن، فإنّه ينادي وفد الله من شدة الشوق الذي برّح به، حتى سالت دموعه على البعد وهو هناك بأرض المغرب، فيقول ولهيب الشوق يلفح حروفه وقلبه:

يا وفودَ اللهِ فزتمْ بالمُنى
فهنيئاً لكمُ اهلَ مِنًى
قد عرفنا عرفاتٍ بعدكمْ
فلهذا برّحَ الشّوْقُ بنا
نحن بالمغرب نُجْري ذكركمْ
وغروب الدمعِ تجري بيننا[2]

---

(١) نفح الطيب ٢/٣٨٤

(١) المغرب في حلى المغرب ٢/٣٨٥

ويشاء الله له أن يبحر مسافرًا، وتتم له أمنيته، فلما بدت له مناظر الحرم وأعلامه، هتف من صميم مشاعره:

بدتْ ليَ أعلامُ بيتِ الهُدَى
بمكةَ والنورُ بادٍ عليه
فأحرمتُ شوقًا لهُ بالهَوَى
وأهديتُ قلبيَ هديًا إليه[1]

ولما وصل ابن جبير إلى مكة أحسَّ بعودة الروح والشباب إلى جسده، فأنشد قصيدته التي أولها:

بلغتَ المُنَى وحللتَ الحرمْ
فعاد شبابُكَ بعدَ الهرمْ
فأهلاً بمكّة أهلاً بها
وشكرًا لمن شُكْرُهُ يُلْتَزَمْ[2]

ولا تبرح مخيلته تلك الأماكن المقدسة، فهو يستعيدها كلما أثاره مثير، فها هو يهنئ الحجيج العائدين من رحلة الحج، فيقول:

هنيئًا لمن حجَّ بيتَ الهدى
وحطَّ عن النفس أوزارها[3]

وتتكرر هذه التهنئة منه لحجاج بيت الله، وكأني به يسعى بهذه التهنئة ليشعر ببرد غليل شوقه لتلك الأماكن التي ملكت عليه كل مشاعره، وهذا التمني الذي يغلب على القصيدة يدل على برح الشوق، وما تعداد كل المشاعر إلا لكونه يستحضرها تلذذًا، ويعيدها إلى ذاكرته استشفاءً، ونلاحظ في هذه التهنئة: الشكوى من البعد عن مكة، ودعوة الخيال واستحضاره، ولمعان البرق الذي يذكر بما مضى من تلك الذكريات، يقول:

(١) نفح الطيب ٢/٤٩٣
(٢) نفح الطيب ٢/٤٩٣
(٣) الذيل والتكملة ٢/ ٥٩٩ – ٦٠٠

يا وفـــودَ اللـهِ فُـــزتم بالـمنَى

فـــهنيـــئًـــا لكمُ اهلَ مِنى

قـــد عـــرفنا عـــرفـــاتٍ مـــعكمْ

فلـهـــــذا برَّحَ الشَّـــــوقُ بـنـا

نحن بالـمـــغـــرب نُجْـــري ذكـــركمْ

فـــغـــروبُ الدمع تجـــري هتَّنا

انـتـمُ الأحـــبـــابُ نشكو بُعـــدكمْ

هل شكوتم بُـعْـــدَنـا من بَـعْـــدِنا

علَّنَـا نلقَـى خـــيـــالأ مـنكمُ

بلـذيذَ الـذكـــــــرِ وهْـنًا عَـلَّـنـا

لـو حَـنَـا الـدهـرُ عليـنـا لَقَـــضَى

باجـــتـــمـــاعٍ منكمُ في الـمُنْحَنى

لاح بـرقٌ مـــــــوهـنًا مـن ارضكمْ

فلعـــمـــري مـــا هَنا العـــيشُ هُنا

صـــدعَ الليلَ وَمِـــيـــضًـــا وسَنًا

فَـــــأبَيْـنـا أن نـذوقَ الـوَسَـنـا

كم جَنى الـشَّـــوْقُ علـيـنا من اسًى

عـــادَ في مـــرضـــاتِكمْ حُلْوَ الجَنَا

ولـكمْ بـالخَـــــيْفِ مـن قـلـبٍ شَـجٍ

لم يـزلْ خـــوفَ الـنَّوى يشكو الضَّنى

مـــا ارْتَضَى جـــانِحَـــةَ الصَّـــدْرِ لَهُ

سكـنًا مـنـذُ بـه قـــــــد سكـنـا

فـــيـنـاديه على شَـــحْطِ الـنَّوَى

من لـنـا يـومًـــــا بـقـلـبٍ مَـلَّـنـا

سِـــرْ بنا يا حـــاديَ العـــيسِ عـــسى

انْ نُلاقي يومَ جَـــمْعٍ جَـــمْـــعَنا

مـــا عَنّى داعي النّوى لــمّـــا دعـــا

غـــيـــرَ صبٍّ شَـــفَّـــهُ بَرْحُ الـعَنـا

شِمْ لــنـا الـبَـــــرْقَ إذا لاحَ وقُـلْ

جَـــمَـعَ اللـهُ بِجَـــمْـعٍ شَـــمْلَنـا

وتبقى مكة تملك على شاعرنا عقله ولبه، حتى في المدح نجده يذكرها، فيقول في مدح السلطان صلاح الدين الأيوبي:

اطـلَـتْ عـلـى افْــــقِـكَ الـزاهـرِ

ســـعــــودٌ مـن الـفَلَـكِ الـدائـرِ

فكم لـك بـالشَّـــرقِ من حــــامــــدٍ

وكـمْ لكَ بـالـغـــربِ مـن شـــاكــــرِ

وكـمْ بـالـدعـــاء لـكم كـلّ عـــامٍ

بمـكـةَ مـن مُـــعْـلِـنٍ جــــاهـرِ

ومع ذلك فالشوق يدفعه إلى بقاع ثلاث، فإذا كانت مكة الهوى، فإن المدينة المنورة، وزيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام يطير لها القلب، ويبقى الركن الثالث وهو القدس الشريف، وفي ذلك يقول:

طـالَ شــــوقي إلـى بـقـــاعٍ ثـلاثٍ

لا تُشَـــدُّ الرحـــالُ إلاّ إلـيـــهـــا

إنّ لـلـنفسِ في ســـمـــاءِ الأمـــاني

طـائرًا لا يـحـــومُ إلاّ عـلـيـــهـــا

قُصَّ منـهُ الجناحُ فـــهْـــو مـــهـــيضٌ

كلَّ يـومٍ يرجـــو الـوقـــوعَ لـديـهـــا

ومع شدة هذا الشوق الذي يبديه ابن جبير إلى هذه الأماكن المقدسة، فإن عاطفته التي تنزع به إلى بلده تبقى واضحة قوية، وهو ما سميناهُ بالشوق العكسي، وهو إبداء الشوق إلى الوطن بعد انتهاء زيارته للأماكن المقدسة، وابن جبير يظهر هذه العاطفة الرقيقة على الرغم من شدة شوقه للسفر، وفي أهله يقول عند الوداع:

اقولُ وقد حانَ الوداعُ وأسْلِمتْ
قلوبٌ إلى حُكمِ الأسى ومدامعُ
ايا ربِّ اهلي في يديكَ وديعةٌ
وما عدمتْ صَوْنًا لديكَ الودائعُ

ويتذكر أوطانه فيصدر هذه الأنّةَ الحزينة، فالغربة مهما كانت أسبابها ودواعيها تبقى شديدة على النفس، وها هو يحل ويعقد بانتظار الفرج، يقول:

غريبٌ تذكَّرَ اوطانهُ
فهيَّجَ بالذكرِ اشجانهُ
يحُلُّ عُرى صبرِهِ بالأسى
ويعقدُ بالنجمِ اجفانهُ

ويبقى الشوق إلى الوطن يعتصر فؤاده، ويلهب عاطفته، وتبقى عيونه معلقة هناك في الأندلس:

لي نحو ارضِ المُنى من شرقِ اندلسٍ
شوقٌ يؤلِّفُ بينَ الماءِ والقَبسِ

ولكن هل تتحقق له أمنيته، فيعود إلى وطنه ؟ لقد أمضى ابن جبير السنين الأخيرة من شيخوخته متنقلاً ما بين مكة وبيت المقدس والقاهرة عاملاً في التدريس، حتى وُسِّد تراب الإسكندرية سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م.

يحيى الصرصري:

الإمام يحيى الصرصري من أكثر الشعراء شعرًا في المديح النبوي، وديوانه الضخم يكاد في معظمه يسير في هذا الموضوع، وأكثر مدائحه النبوية يبدؤها بالتشوق للحجاز بعامة ومكة والمدينة بخاصة، ويهمنا هنا ما ورد من شعره في مكة، من ذلك قوله يرسل تحيةً لمرابع مكة، وخلال ذلك يعود بذاكرته إلى تلك الأيام الخوالي التي قضاها في منازلها، يقول:

خُذْ للحجازِ إذا مررتَ بركبِهِ
مِنِّي تحيَّةَ مُخلصٍ في حبِّهِ
واسْألهُ هلْ حيَّا مَرابعَهُ الحَيَا
وكَسَا الرَّبيعُ شِعَابَهُ من عُشْبِهِ
واستمْلِ من خبَرِ الصَّبا لأخي الهَوَى
ما صحَّ من إسنادِهِ عن هُضْبِهِ
فلنشرِ انفاسِ النَّسيمِ عبارةٌ
في رمزِها معنىً يَلَذُّ لقلبِهِ
يُغريهِ مَسْرَاها بأيّامِ الحِمَى
إذْ كانَ منشأُ عَرْفِها من تُرْبِهِ
ولَعَمْرِها لولا تَذَكُّرُ عَهْدِهِ
فيها لما بعثَ النَّسيمُ بِلُبِّهِ
هل لي إلى ليلاتِ مجتمعِ المُنى
بمِنىً رجوعٌ استلذُّ بِقُرْبِهِ
وَيَضُمُّني وبني الودادِ بجَوِّهِ
سِرْبالُ وَصْلٍ لا أُراعُ بسَلْبِهِ[1]

وهو يخاطب ربع منى، ويحييه، ويدعو له بالسقيا، وبأن ينشر سحيق المسك فوق ثراه، وأن تحفه الزهور والخضرة، فهو يستحق أن يُدعى له طالما أنه لا يبخل على الشاعر بلياليه الرائعة الجميلة، ومواسمه المترعة بالحب، يقول:

ربعَ المُنى بمِنىً نَعِمْتَ صباحا
وتبلَّجتْ فيكِ الوجوهُ صِباحا
وَسَقَتْكَ أخْلافُ الغَمامِ عَشِيَّةً
دَرّاً يُرَوِّي مِنْ حِماكَ بِطاحا
وَعَلا سَحيقُ المِسكِ نَشْرَكَ كلَّما
نشَرَ الربيعُ على ثراكَ جَناحا

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٣٣٤ - ٣٣٥

ولبستَ من زهرِ الرياضِ ملابسًا

وعقدتَ فوقَ الجيدِ منكَ وِشاحا

فلطالما سامرتُ في جُنْحِ الدُّجَى

أقمارَ حُسْنِكَ لا أخافُ جُناحا

وخَلستُ من ريّاكَ روحَ حُشاشتي

وشربتُ فيكَ من المحبَّةِ راحا

للّهِ أيّامٌ مضتْ محمودةٌ

طابتْ بجوِّكَ غُدوةً ورَواحا

أنستُ فيها نورَ عطفِ أحبَّتي

ونشقتُ عِطرَ رضاهُمُ الفيّاحا

يا موسمَ الأحبابِ يا عيدَ المُنى

وهلالَ سعدٍ بالبشارة لاحا

هلْ لي إليكَ معَ الأحبةِ وقفةٌ

وَجْهَ النهارِ تُجدِّدُ الأفراحا[1]

ومما يعجبك، ويروقك في حنين الصرصري البعد الفني، والتأنق الوصفي، فشعره في الشوق والحنين شعرٌ مليءٌ بالأوصاف الطبيعية، مما يشيع الجمال، ويبعث المتعة، وقد وجدت هذا الشاعر بأسلوبه الطبيعي يبتعد عن النظمية التي غطّت على جمال العاطفة عند بعض شعراء المدائح النبوية، إذ كان بعضهم يعرض لكامل المدحة سواء في التشوق، أو في الحديث عن السيرة من خلال الحدث كحدث، لا كفن، فطغى الجانب اللفظي والتاريخي على الجانب الفني، أما عند الصرصري فالحال يكاد يكون مختلفًا تمامًا في الكثير من قصائده، وما أوردناهُ له وسنورده يدخل في هذا الباب، وهذه بداية قصيدة يتحدث لنا فيها عن حنينه وشوقه، وشدة تطلعه، فيذكر لنا نسيم السحر، والغدران والأزهار، من خلال ألحان عذبة، وإيقاعات سريعة، وتملُّ معي هذا القول الرقيق الأنيق:

جَرَتْ نسيمُ السَّحَرِ

على مُتونِ الغُدُرِ

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ١ / ٤٧٠

فَجَعْدُها وَثَنَتْ
اعطافَ بُسْطِ الزُّهَرِ
وضَمَّخَتْ ملابسَ الـ
ـروضِ بنشرٍ عَطِرِ
اظنُّها مرَّتْ على
سُمَّارِ ذاتِ السَّمرِ
فَطَارَحَتْهُم واتتْ
مِنْ نحوِهِمْ بالخَبَرِ
تُسنِدُهُ عنْ ارَجِ الـشِّـ
ـيحِ وريَّا العَرْعَرِ
فرنَّحتهُ طربًا
برمزِها المُعبِّرِ
أنَعْتِ يا ريحَ الصَّبا
سِرَّ هوىً مُسْتَترِ
فردِّدي ما شئتِ مِنْ
حديثِهِمْ وكرِّري
فذكرُ سكَّانِ الحِمى
تَعِلَّةُ المُسْتَهْتِرِ
امِ لعيشٍ مرَّ لي
بينَ اللِّوى والأجفرِ
او زمنٍ كانَ بنَعْـ
ـمَانَ ربيعَ العمرِ
يا ليتَ شعري هلْ تعو
دُ ليلتي بالمَشْعَرِ
وهل تزولُ حسرةُ الـ
ـفؤادِ في مُحَسَّرِ


وهل لأيامِ مِنى
مِنْ بائعٍ فاشتري
ولو بأيّامِ الحيا
ةِ لمحةً بالبصرِ
فما على من سامها
بروحهِ مِنْ غَرَرِ
وهل إلى ذاتِ السُّتو
رِ أوبةٌ في عُمُري
فاجتلي جَنى العُلا
بلثمِ ذاكَ الحَجَرِ
يا لكِ مِنْ ليلاتِ قُرْ
بٍ طالَ فيها سَمَري
لو سمحَ الدَّهرُ بها
قضيتُ فيها وَطَري[١]

لقد أطلتُ في إيراد هذا النص لسببين: أولهما أنني لم أقدر على اجتزائه لارتباط ألفاظه ومعانيه بعضها ببعض، مما يجعل حذف أبيات مخلاً بالأمرين معًا: اللفظ والمعنى، والآخر لأنني أريد أن أقنع القارئ بما قلته آنفًا عن طريقة الصرصري ذات النكهة الطبيعية الخالصة، المميزة برقتها وعذوبتها، وجمال إيقاعها وخفته.

ويألم أشد الألم إذا فاته الحج، ويغبط من فازوا به، ويرسل على البعد أزكى سلامه للكعبة المشرفة، ويتمنى العودة إلى حماها، يقول:

تَخَلَّفْنا عنِ البلدِ الحرامِ
وما فيهِ من النِّعمِ الجسامِ
وفازَ بفضلهِ إخوانُ صدقٍ
لنا نهضوا مع الوفدِ الكرامِ

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٢ / ٩٣ – ٩٤

ثم يصل إلى مناشدة ذات الستور:

فيا ذاتَ الستورِ عليكِ مني
وإنْ بَعُدَ المَدَى أزكى سلامِ
وحيّا اللهُ أقمارًا تَجَلَّتْ
بجوكِ أخجلتْ بدرَ التمامِ
لقد قرَّتْ عيونٌ ناظراتٌ
إلى معنى جمالكِ باحْتِشامِ
فهل لي عودةٌ برُبَاكِ أقضي
بها وَطَري ويُدْرِكُني حِمَامِي[(١)]

والغزل التجريدي يشغله، وتشغله ذات الستور التي يتمنى لقاءها، كما في قوله:

باللهِ يا مَنْ عَرْفُهُ أهدى لنا
طَرَفًا إلى نيْلِ العُلا طمّاحا
بلِّغْ إلى ذاتِ السُّتورِ رسالةً
عمَّنْ إذا ذُكِرَتْ صَبَا وارتاحا
يا ربّةَ الحَرَمِ المُمنَّعِ كم دَمٍ
لِبَني الأماني دونَ وَصْلِكِ طاحا
كيفَ السَّبيلُ إلى لقائكِ والفلا
قدْ حُفَّ دونكِ ذُبَّلاً وصِفاحا[(٢)]

وهو يدفع دمه ولو هدرًا في سبيل لقائها، مع علمه بأن المقتول في هواها لا يجد من يقتص له، يقول:

هل من سبيلٍ إلى ذاتِ السُّتورِ ولو
انَّ القنا والظُّبا من دونها رَصَدُ
ففي هَوَاها قليلٌ انْ يُطَلَّ دمي
وكم لها من قتيلٍ ما لهُ قَوَدُ[(٣)]

---

(١) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ٤ / ٣٨ - ٤٠

(٢) المصدر نفسه ١ / ٤٧١

(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٧

والشواهد على تعلق الشاعر الصرصري بالبيت الحرام كثيرة، ولا تخرج عما أوردناه، ومن أراد التثبت فديوانه الضخم أكبر دليل، وما أورده النبهاني في المدائح النبوية كفيل بأن يقر هذا الراي عن هذا الشاعر المتشوق لرحاب بيت الله.

عبدالرحيم البرعي:

الشاعر المرزوق الذي رزق شهرة بقصائده التي ظلت تطوف حول المشاعر الدينية، هو عبدالرحيم بن أحمد بن عبدالرحيم البرعي، نسبة إلى جبل بُرع في اليمن، هذا الشاعر الذي يقول فيه المؤرخ الوشلي في كتابه (الثناء الحسن): (وضع اللهُ المحبة لشعره عند عامة الناس، فاقبلوا عليه، وأولعوا بحفظه واستماعه، وإنشاده[1])، ويعبّر البرعي عن شدة شوقه إلى مكة ومشاعرها، فنار الشوق التي تستعر في حشاه تلهب شوقه، وتؤجج توقه، فلا يقدر على الكتمان، وها هو يطويه شوقه وينشره كما يقول:

رحلتْ عنهم غداة البين من بُرَعٍ
وفي الحشا لَهَبُ النيران مُسْتَعِرا
وسِرْتُ والشَّوْقُ يَطْويني ويَنْشُرُني
موَصَّلاً حرُّ تَهْجيرٍ بِبَرْدِ سُرَى[2]

ومن شعره الذي يلهج بحب هذه الأماكن المباركة طلبه على طريقة القدماء من صاحبه ليقف بريا المحصب ومنى، ويأمره بإعادة أحاديث تلك الأماكن، هذه الاستعادة التي يلذُّ له استرجاعها وسماعها، تمامًا كما قال ابن الرومي من قبل:

يُعادُ حَديثُها فيَزيدُ حُسْنًا
وقد يُسْتَقْبَحُ الشيءُ المُعادُ

ويقول البرعي:

قِفِ المَطِيَّ ولو كَلَمْحَةِ ناظرٍ
برُبا المُحَصَّبِ أو مِنىً يا حادي
وَأَعِدْ حَديثَكَ عن اباطِحِ مكةٍ
وعنِ الفَريقِ ارائحٌ أم غادي

---

(١) مقدمة شرح ديوانه ١٦

(٢) شرح ديوان البرعي ١٠٩

وَمَسَرَّةٍ للناظرين بدتْ لنا
ما بين سوقِ سُويقةٍ وجيادِ
قنصتْ عقولَ أولي النُّهى بحبائلِ الصـ
ـصَبَواتِ لا بحبائلِ الصَّيادِ
ومحاسنٍ طلعت طلائعهنَّ عن
حُللِ الكمالِ لحاضرٍ ولبادي
عكفتْ بساحَتِها الرِّفاقُ وإنَّما
عكفوا على كبدٍ من الأكبادِ(1)

وهو يوري عن حبه تمامًا كما ورّى من قبله الصرصري، فيقول:

إنّي أورِّي لغيري حينَ يسألُني
بذكرِ زينبَ عن ليلى فأُوهمُهُ(2)

وتقر عيونه برؤية أم القرى:

وفي أُمِّ القُرى قَرَّتْ عُيونٌ
عَشِيَّةَ لاحَ زمزمُ والحطيمُ(3)

ويشاغله الطيف على البعد، فيقول:

طَيْفُ الخيالِ من النيّابتينِ سَرَى
إلى الحجازِ فَوافَى مَضْجَعي سَحَرَا
سَرَى على بُعْدِ دارَيْنا يَنمُّ بهِ
روحُ النَّسيمِ فَيُهدي مندلاً عَطِرَا
فكم وكم جازَ من سهلٍ ومن جبلٍ
ومِن وُعورٍ إلى أمِّ القُرى وقرى

(1) شرح ديوان البرعي ١٣٢-١٣٣
(2) المصدر نفسه ٩٦
(3) المصدر نفسه ١٠٥

افـــــديهِ من زائرٍ مــــــا زارنـي أبدًا
وذاكـــرٍ مــــا نسي ودّي ولا ذكــــرا[1]

ويظل الشوق يطويه وينشره حتى يبلغ غايته وهدفه:

حـتى انتـهـيتُ إلى الـمـيقـاتِ في زُمَـرٍ
من وفــدِ مكةَ يا طوبى لـهـــا زُمَـــرا
ثمَّ اغْــتَـــسلْنا وأحْــرَمْنا وســـار بنا
حــادي المَطِيِّ يخــوضُ الـهَـوْلَ والخَطَرا
ولـم أزلْ رافـــعًـــا صــوتي بِتَلْبــيَــتي
معَ الـمُلبِّينَ مِــمَّنْ حجَّ واعْــتَــمَـــرا[2]

وهو لا يفتر عن ذكر تلك الديار والدعاء لها بالسقيا، وعن مرورها في خاطره طيفًا وحلمًا، ويبعث لها على البعد بالتحيات، ويوصي إخوانه الراحلين إليها، ويسفح الدموع شوقًا إليها، ويقبل عتباتها إذا ما سنحت له الأيام بزيارتها، هذا ديدن شعر البرعي في العديد من قصائده المدحية النبوية، فهو العاشق لمكة، المحب لبيت الله.

ابن معصوم:

هو علي بن نظام الدين أحمد بن محمد بن معصوم، ولقبه صدر الدين، ترفعه مصادر النسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولد الشاعر في المدينة المنورة سنة ١٠٥٢هـ – من جمادى الأول، بعد سفر والده إلى الهند بدعوة من ملكها نظام حيدر أباد لمساعدته في إدارة شؤون الهند، انتقل شاعرنا وهو طفل رضيع مع أمه إلى مكة، التي توفيت وتركت الرضيع في كنف خالته، وبقي معظم طفولته في مكة، وبها تعلم تعليمه الابتدائي، وبعد سن الرابعة عشرة غادر إلى الهند للالتحاق بأبيه، وعاش فيها ما يقارب النصف قرن، وتقلب خلالها في المناصب إلى أن صار رئيسًا لديوان سلطنة إحدى ولايات الهند.

---

(١) المصدر نفسه ١٠٧
(٢) المصدر نفسه ١٠٩

وبعد أن أحسَّ بتقدم في السن، وفي تغير السلطان عليه، استأذن في العودة إلى الوطن، وكان على البعد يرسل قصائد الشوق والحنين.

وتبدو لذعات الشوق في قلبه وعلى لسانه مبكرة، فها هو ذا يغادر وهو بعد في ريعان الشباب وأوله، فيخاطب مكة ويقول عند وداعها:

أمعادُ هل يُقضى إليكِ معادُ
يومًا برغم معاندٍ ومُعادي
فأفوزَ منكِ بكلِّ ما أمّلتُهُ
ذُخرًا لأخرتي ويومِ مَعادي[1]

وها هو موسم الحج قد اقترب فيتجدد الشوق، وتهيج به الذكرى، ويروح يرسل السلام لتلك الأماكن، ويدعو حادي الركب لينوب عنه في تقبيل ثراها الذي يفوق المسك رائحة والدر قيمة، فيقول:

يا حادي الظعنِ إنْ جُزتَ المَواقيتا
فحيِّ مَنْ بِمِنىً والخَيْفِ حُيّيتا
وَسَلْ بِجَمْعٍ أَجَمْعُ الشَّمْلِ مُلتئمٌ
أمْ غالهُ الدَّهرُ تفريقًا وتَشْتِيتا
والثِمْ ثَرى ذلك الوادي وحُطَّ بهِ
عنِ الرِّحالِ تنلْ يا صاحِ ما شيتا
عَهْدي به وثَراهُ فائحٌ عَبِقٌ
كالمِسْكِ فتَّتهُ الداريُّ تفْتيتا
والدرُّ ما زالَ من حَصْبائهِ خَجِلاً
كأنَّ حصباءَهُ كانت يواقيتا[2]

ثمّ يعرج على وصف الحجاج وهم يطوون البيد والفيافي، لا يلوون على شيء سوى هدف واحد يسعون إليه الا هو الإجابة لداعي الله:

---

(١) رحلة ابن معصوم ٤٠

(٢) نفحة الريحانة ٤ / ١٨٩

يؤمُّهُ الوفدُ من عُرْبٍ ومن عَجَمٍ
ويَسْبُرونَ لهُ البيدَ السَّباريتا

يَطْوُونَ عُرْضَ الفَيافي طولَ ليلِهِمُ
لا يهتدونَ بغيرِ النَّجْمِ خِرِّيتا

لا يَطْعَمُ الماءَ إلاَّ بلَّ غُلَّتِهِ
ولا يذوقُ سوى سدِّ الطَّوى بيتا

يَفْري جُيوبَ الفَلا في كلِّ هاجرةٍ
يُماثلُ الضبُّ في رمْضَائها الحوتا

تَرَى الحَصَى جَمَراتٍ من تَلَهُّبِها
كأنما أُوقِدَتْ في القَفْرِ كِبْرِيتا

اجابَ دعوةَ داعٍ لا مَرَدَّ لها
قَضَى على الناس حجَّ البيتِ تَوقِيتَا

يرجو النَّجاةَ بيومٍ قد أهابَ بهِ
في موقفٍ يَدَعُ المنطيقَ سِكِّيتَا

ويستمر في وصفه على كلّ حالاته، ولعلَّ ابن معصوم وهو يشرح حالة الحاج، ويصفه في حركته ابتداءً من خروجه للحج ومرورًا بكل أعمال الحاج في الحج، وانتهاءً بوداع البيت، ليؤكد على أمرين: الأول: دلالة هذا الوصف بكل دقائقه على هذا الشوق، فكأن خيال الشاعر ينتقل به في ثنايا هذه الرحلة المقدسة كلون من ألوان المعايشة للحدث، والتلذذ باسترجاعه.

والثاني: هو تميز ابن معصوم من غيره ممن وصف رحلة الحاج في حجه، أنه لم يقف فقط عند ذكر ما يقوم به الحاج في أداء مناسكه، كما فعل غيره ممن وصفوا ذلك، بل هو يجانس ويقابل مقابلات لطيفة، وتشع التورية والمجانسة في كل لفظة من ألفاظ المناسك، والمتتبع لهذا الأمر يجده واضحًا، كما يبدو في متابعة هذا الوصف:

فسَارَ والعَزْمُ يطويهِ ويَنْشُرُهُ

ينازلُ البينَ تصبيحًا وتبْييتا

حتى اناخَ على ام القُرى سَحَرًا

وقد نَضَا الصُبْحُ للظلماءِ إصْلِيتا

فقام يقرعُ بابَ العَفْوِ مُبْتَهِلاً

لم يَخْشَ غيرَ عتابِ الله تَبْكِيتا

وطاف بالبيت سبعًا وانثنى عَجِلاً

إلى الصَفا حاذرًا للوقتِ تَفْويتا

وراح مُلْتَمِسًا نيلَ المُنى بِمِنىً

ولم يخفْ غيرَ حلِّ الخيفِ تَغْنيتا

وقامَ في عرفاتٍ عارفًا ودعا

ربًاً عَوارِفُهُ عَمَّتْهُ تربيتا

وعادَ منها مُفيضًا وهْو مزدلفٌ

يرجو من الله تمكينًا وتَثْبيتا

وبات للجَمَراتِ الرُقْشِ مُلْتَقِطًا

كأنهُ لاقطٌ دُرّاً وياقوتا

وحينَ اصبحَ يومَ النَّحْرِ قام ضُحًى

يوفي مناسِكَهُ رَمْيًا وتسبيتا

وقرّبَ الهَدْيَ تهديهِ شرائعُهُ

إلى الهُدى ذاكرًا للهِ تسميتا

وملأتْهُ ليالي الخَيْفَ بَهْجَتُها

فحجَّ للدِّين والدنيا مواقيتا

ثمَّ اغْتَدَى قاضيًا من حَجِّهِ تَفَثًا

يرجو لِتَزْكِيَةِ الأعمالِ تزكيتا

ووَدّعَ البيتَ يرجو العَوْدَ ثانيةً

وليتَهُ عنهُ طولَ الدّهرِ ما ليتا[1]

وشوق ابن معصوم عام للحجاز، لايتوقف عند مكان بعينه، كما في هذا القول:

ذاكَ الحجازُ وهذه كُثْبانُهُ

فاحفظْ فؤادكَ إنْ رَنَتْ غِزلانُهُ

واسفحْ دموعكَ إنْ مررتَ بسفحهِ

شَغَفًا بهِ إنّ الدموعَ جُمانُهُ

وَسَلِ المنازلَ عن هوىً قضّيتَهُ

هلْ عائدٌ ذاكَ الهَوَى وزمانُهُ[2]

ويدعو بالسقيا لأيامه السالفة بالحجاز، ويتلهف على ما مضى منها، وفي مقابلة طريقة يبين عن ذاك الماضي الذي ارتحل، وأحلّ مكانه الوجد والتذكر:

سَقَى اللهُ أيّامَنا بالحجازِ

ولا جازها الغَيْدَقُ الهاطلُ

فما كانَ أرْغَدَ عيشي بها

إذِ المنزلُ القفرُ بي آهلُ

لقد طال وَجْدِي وذكري لها

وليسَ لعصرٍ مَضَى طائلُ

فيا لهفَ نفسي لهُ ماضيًا

ترحّلَ والوجدُ بي نازلُ

ترى من غرامي بهِ دائمٌ

وحاليَ من فقدهِ حائلُ

---

(١) نفحة الريحانة ٤ / ١٨٩-١٩٢ الداري: نسبة إلى دارين وهو العطار. السباريت: القفار.الخرّيت: الدليل. البيت: القوت. إصليت: سيف صقيل. تبكيت: تسكيت. تعنيت: إضرار ومشقة. تربيت: تربية. تسبيت: ذبح الهدي. تسميت: اي التسمية وهي ذكر الله على الذبح. التفث: ما يصيب المحرم بالحج من ترك الأدهان والغسل والحلق. التزكيت: الملء. ليت: صُرِف.

(٢) انوار الربيع ١ / ٣٧٥

دَرَى أنَّ وَجْــــــدي بــهِ لا يــزولُ
وصَــبْــرِيَ من بـعــدهِ خــاذلُ[1]

وتحس هذا الشوق الحارق الذي يعانيه ابن معصوم، وذكر الحجاز وإن تكرر في أشعاره، فإنَّ التوجه الحقيقي في هذا الشوق والحنين إنما يُصوَّب نحو مكة في أغلبه، واقرأ معي هذه العواطف العارمة في قوله:

أم لأيَّامِ الحـــجـــازِ وســـاكني
أرضِ الحـجـازِ ورَوْضِـهِ المِـعْطَارِ
لم أوفــهِ حـــقَّـــاً أحـــالَ بـهِ على
قلبي الكئـيبِ ومَـدْمَـعي المِـدْرارِ
قَـسَـمَـا بمكةَ والحطيمِ وزمـزمٍ
والبـيتِ ذي الأركـانِ والأسـتـارِ
مـا عنَّ لي ذِكْـرُ الحـجـازِ وأهلهِ
إلاَّ عَـــدِمْتُ تَجَلُّدي وقَـــراري[2]

ومن أين له أن يتجلّد ويصبر ؟ وكيف يقرُّ له قرار ولم يكحل عينيه برؤية مكة ؟ تلك التي هي عنده أغلى من روحه، ويكرر كلمة الفراق وكأنه يهذي بها، كما في قوله:

فـــارقتُ مكةَ والأقـــدارُ تُقْـــحِـــمُني
ولي فـــؤادٌ بهـــا ثـاوٍ مَـــدَى الزَّمَنِ
فـارقـتُـهـا لا رضىً مني وقـد شَـهِـدَتْ
بذاكَ أمـــلاكُ ذاكَ الحِـــجْـــرِ والرُّكْنِ
فــارقــتُــهـــا وبوديِّ إذْ فَــرَقْتُ بـهـــا
لو كــان قــد فــارقتْ روحي بـهــا بَدَني[3]

(١) ديوان ابن معصوم ٢٣٢
(٢) المصدر نفسه ١٨٧
(٣) رحلة ابن معصوم ٣٨

ويبدو أنّ طول البعد ورثّة شدّة الوجد، وما هذا الهيمان والتعلق واللهفة، وهذا الشعر الذي يزفر هذه الأنّات المعذبة إلا دليل على صدق هذا الحنين، وعندما نقرأ قصائده في مكة، نتخيل أنّنا أمام مجنون ليلى، أو جميل بثينة، وتملّ معي هذه الأبيات التي يتوجع فيها من بعده، ويشكو بثه وعظيم حزنه، ثم هذه الزفرات والأمنيات لذكريات خلت، وتعداد الأماكن التي شهدت مراتع صباه، كل ذلك يبين عن شعور مستفز، وعاطفة متدفقة:

خَليلَيَّ هل عهدي بمكةَ راجعُ
فقدْ قُليتْ بالهندِ منّي المَضاجعُ
وهل شربةٌ من ماء زمزمَ ترتوي
به كبدٌ قد أظمَأتْها الوقائعُ
وهل عامرٌ رَبْعُ الهَوَى بسويقةٍ
فعهدي بذاكَ الربعِ للشَّمْلِ جامعُ
وهل من صفا من سالف العيش بالصَّفا
يعودُ لنا يومًا فتصفو المشارعُ
سقى اللهُ ما بينَ الحَجُونِ إلى الصَّفا
مرابعَ فيها للظباءِ مراتعُ
وجادَ باجيادٍ منازلَ جيرةٍ
بهنَّ حَمَامُ الأبطحينِ سواجعُ
وحيّا الحيا بالمازمينِ مَعاهدًا
فما عهدُها عندي مدى الدهرِ ضائعُ(١)

ألا تذكرنا هذه النفثات، بنفثات قيس بن الملوح في ليلى ؟حيث يقول:

كأنيَّ من ليلى الغَداةَ كقابضٍ
على الماءِ خانَتْهُ فُروجُ الأصابعِ(٢)

(١) ديوان ابن معصوم ٢٢١
(٢) ديوان مجنون ليلى ٤٧

ويقسم بحياة أهل مكة على صدق مشاعره، وأن هذا ما كان حديثًا يفترى، يقول:

وحـيـاتكمْ ياسـاكني امّ القُـرَى
مـا كـانَ حـبُّكُمْ حـديثًـا يُفْـتَـرَى

اهـوى ديـارَكُـمُ الـتـي مَنْ حَـلُّـهَـا
حَلّ الجِـنَانَ بـهـا وَعَـلَّ الكَـوْثَـرا

قـالَ الـعَـذولُ وقـد اطالَ مَـلامَـتي
فـيـهِ الا تُصـغـي ؟ فـقـلتُ الا ترى

لا والـذي فتَنَ الـعـقـولَ بحُـسْنِهِ
مـا ارتـابَ قلبي من هَوَاهُ ولا امْـتَـرَى

فـارقـتُـهُ كـرهًا وواصلتُ النَّوَى
قَسْرًا واضحى الصبـرُ مُنْفَصِمَ العُرَى

لمْ ادرِ ايّ الغُـصّـتَـيْنِ اسـيـغُـهـا
إنْ عنّ لي ذكـرُ الفـراقِ اوِ اعْـتَـرَى

افـراقُ إلـفي ام فـراقُ مـواطـنـي
وكـلاهـمـا لَهَبٌ بقـلبي قـد وَرَى

لـلـهِ ايّامٌ بمـكـةَ والـصـبـا
تُهـدي إلى فَـوْدَيَّ مِـسْكًا اذفَـرا

اشـري بكلّ الـعـمـرِ منهـا سـاعـةً
لـو انَّهـا ممّا تُبـاعُ وتُشْـتَـرَى[1]

(١) ديوان ابن معصوم ١٢٦

والمتابع لشعر ابن معصوم يجد عاشقًا أضناهُ العشق، ومحبًا بلغ به الحب حدَّ الوله والتدله، فما كان منه تحت إلحاح الشوق أن زمَّ جماله، وشدَّ رحال العودة إلى المنابع الصافية، على الرغم من المكانة الرفيعة، والحياة الرغيدة التي كان يحياها في الهند، عاد إلى الوطن الذي لم يفارق عينيه لحظة واحدة.

عاد وفي جعبته شوق السنين الطوال، فهل يرتوي ؟ لقد نهل من ماء زمزم، وكحّل عينه برؤية الكعبة، فحجَّ وزار، وماذا بعدُ ؟ الغربة الطويلة كانت حاجزًا وستارًا، ويبدو أنه أحسَّ بالغربة في وطنه، فساح في البلاد مرة أخرى، إلى أن وافاه القدر المحتوم في شيراز عام ١١٢٠هـ.

✡✡✡✡

الخاتمة

أما بعد، فالحديث عن مكة كما قال الشاعر:

يُعـادُ حـديثُـهـا فـيـزيد حـسنًا
وقـد يُسـتـقـبحُ الشيءُ المـعـادُ

وحديث مكة حديث ذو شجون، اشجى افئدتنا ومسامعنا منذ تلك الآهة التي صدعت قلب مضاض الجرهمي:

كـأن لم يكن بين الحَـجُـون إلى الصّـفـا
انيسٌ ولم يَسْـمُـرْ بمكةَ سـامـرُ

وحديث السامر عن مكة يبدأ من نشأتها وبداياتها الأولى، متصل الحلقات، عابرًا الزمان من عصر إلى عصر، ليحطَّ ركابه في أرض زماننا وعصرنا هذا محملاً بكل ألوان الطيف.

وما بالك بحديث يستغرق شؤون مكة وشجونها ! وما أدراك ما مكة ؟! هذه المدينة العظيمة التي تقص علينا حكاية البشرية من لدن آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إن حديث هذه المدينة سيكون من العمق والشمول، والتنوع والتفرد في شكل لا يناظره حديث، ولا تشبهه حكاية، ولا تشاكله قصة.

ولذلك فإن الراوي سيعجز لا محالة، ومن هنا فسأختصر الحديث اختصارًا، وسأوجز لك النتائج إيجازًا، فأقول:

إن النتيجة الأولى لهذا البحث أنه يعد في نظري أول كتاب يُستخلص عن مكة في الشعر العربي في جميع عصوره، على الرغم من سعة وتعدد وتنوع المكتبة المكية.

كما أنه استطاع أن يجمع الوحدات المجزأة إلى دائرة واحدة، فالأغراض والموضوعات والحوادث سيقت في مجرى واحد على تعدد العصور، ومن هنا اجتمعت الرؤى الشعرية، كما اجتمعت التجارب الشعرية على صعيد واحد، هو صعيد عكاظ هذا البحث، فكان التآلف والوحدة والتتابع والاستمرارية، فالتقت كما يقول العرب: حلقتا البطان.

كما يتميز هذا البحث من غيره في أن القضايا التي تحدث في عصر من العصور قد تشغل الشعراء في آنها وزمانها، ثم تقف عند ذلك، بينما قضايا مكة ظل لها تواصلها واستمرارها، ولنضرب مثلاً بحادثة الفيل، أو بالشوق والحنين، أو تصوير حدث كالحج مثلاً أو غير ذلك، فإن التواصل بين كل العصور يعطي متعة التمتع بالتنقل في الفكرة الواحدة من شاعر إلى آخر، ومن عصر إلى عصر.

– ولخصوصية مكة، فقد وجدنا من السمات والخصائص في هذا الشعر ما يجعل ارتباطه بمكة حميمياً. فالصور والألفاظ كان لها من الارتباط بالمكان ما يجعل لها تعانقًا وتآلفًا عضوياً لا تكاد تجده في غيرها. والنسبة إلى الكعبة، والإضافة إليها وإلى سائر المشاعر يؤكد على تلك الخصوصية.

– وأخيرًا فلذة الحديث عن مكة ليس لمنتهاها حد، ولكن كما قال الجاحظ: (للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل الهذَر) ونحن نفر من الملال، ونعوذ بالله من الهذر الذي لا طائل وراءه.

وأختم بالسؤال الملح المتكرر على الله عز وجل في أن يكون هذا العمل قربة خالصة لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

****

المصادر والمراجع

- ابن دقيق العيد حياته وديوانه، تأليف علي صافي حسين، دار المعارف بمصر.
- إتحاف الورى بأخبار أم القرى للنجم عمر بن فهد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، نشر جامعة أم القرى.
- إثارة الترغيب والتشويق إلى تاريخ المساجد الثلاثة والبيت العتيق، تأليف الإمام محمد بن إسحاق الخوارزمي، دراسة وتحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لشمس الدين أبي عبدالله المقدسي، ليدن ١٩٠٦م.
- أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية جمع وتحقيق الدكتور مسعد العطوي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار – تأليف أبي الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي، تحقيق رشدي الصالح ملحس، مطابع دار الثقافة – مكة المكرمة الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م
- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام لسعيد الأفغاني، دار الفكر بدمشق، الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.
- الأدب العربي في إقليم خوارزم، تأليف هند حسين طه، منشورات وزارة الإعلام، العراق ١٩٧٦م
- الإشراف على تاريخ الأشراف، تأليف عاتق بن غيث البلادي، دار النفائس – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق عبدالستار فراج، دار الثقافة، بيروت ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
- الأوائل لأبي هلال العسكري، تحقيق الدكتور وليد قصاب ومحمد المصري، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض.
- البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ، تحقيق الدكتور محمد مرسي الخولي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول، تأليف الدكتور مجاهد مصطفى بهجت، نشر وزارة الأوقاف ببغداد، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م.
- الحج في الأدب العربي لعبدالعزيز الرفاعي، المكتبة الصغيرة، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- الحصين بن الحمام المري سيرته وشعره، جمع وتحقيق الدكتور شريف علاونة، دار المناهج – عمان ٢٠٠٢م.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني - تحقيق الدكتور إحسان عباس - دار الثقافة، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- الروض الأنف للسهيلي، دار المعرفة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥م.
- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبدالحفيظ شلبي.
- الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري، للدكتور عائض الردادي، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الشعر الحديث في الحجاز تأليف عبدالرحيم أبو بكر، المطبعة السلفية، القاهرة.
- أم القرى مكة المكرمة لفؤاد علي رضا، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٢م.
- أنوار الربيع في أنواع البديع، تأليف السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان - العراق ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي، بولاق ١٢٧٨هـ
- تاريخ الأمم والملوك للطبري، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت ١٩٤٨م.
- تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٥٠م.
- تاريخ العرب للدكتور فيليب حتي، ترجمة محمد مبروك نافع، القاهرة ١٩٥٣م.
- تاريخ قريش للدكتور حسين مؤنس، دار المناهل ودار العصر الحديث، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تأليف الإمام أبي البقاء محمد بن أحمد بن الضياء المكي، تحقيق علاء إبراهيم الأزهري، وأيمن نصر الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- تكملة خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء العراق، لعماد الدين الأصفهاني، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبوعات المجمع العلمي العراقي.

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.
- جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي، تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- جمهرة الأمثال للعسكري، الهند ١٣٠٧هـ.
- خادم الحرمين الشريفين في الشعر السعودي المعاصر، تأليف الدكتور ظافر الشهري وآخرين، مطابع الحسيني ١٤٢٣هـ.
- دراسات في تاريخ العرب: عصر ما قبل الإسلام للدكتور السيد عبدالعزيز سالم، دار المعارف بمصر ١٩٦٧م.
- دمية القصر وعصرة أهل العصر لأبي الحسن الباخرزي، تحقيق الدكتور سامي مكي العاني، دار العروبة للنشر، الكويت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- ديوان إبراهيم بن هرمة، تحقيق محمد جبار المعيبد، مطبعة الآداب بالنجف الأشرف ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ .
- ديوان ابن الرومي، تحقيق الدكتور حسين نصار، مطبعة دار الكتب ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
- ديوان ابن حمديس الصقلي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر - دار بيروت ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.
- ديوان ابن زقاعة الغزي، مخطوط في مكتبة المؤلف.
- ديوان ابن عنين، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر.
- ديوان ابن مقبل، تحقيق الدكتور عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث، دمشق، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.
- ديوان ابن نباتة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.
- ديوان أبي دهبل الجمحي، تحقيق عبدالعظيم عبدالمحسن - مطبعة القضاء بالنجف، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- ديوان أبي طالب، جمعه وشرحه الدكتور محمد التونجي، سلسة (شعراؤنا)، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

- ديوان أبي نواس، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ديوان أزهار برية، للدكتور إحسان عباس، دار الشروق - عمان ١٩٩٩م.
- ديوان إسحاق الموصلي، جمعه وحققه ماجد أحمد العزي، مطبعة الإيمان بغداد، الطبعة الأولى ١٩٧٠م.
- ديوان أشواق وإشراق، لعمر بهاء الدين الأميري، دار القرآن الكريم - ١٣٩٣هـ /١٩٧٣م.
- ديوان الأعشى الكبير، شرح وتحقيق الدكتور محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة السابعة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ديوان الأمير عبدالقادر الجزائري، جمع الدكتور ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، بيروت.
- ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر.
- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، تحقيق الدكتور نعمان محمد طه، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.
- ديوان الخالديين، جمع وتحقيق الدكتور سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ديوان السري الرفاء، تحقيق ودراسة الدكتور حبيب حسين الحسيني، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨١م.
- ديوان الشامي، لأحمد بن محمد الشامي .
- ديوان الشريف الرضي.
- ديوان الشريف المرتضى، تحقيق رشيد الصفار المحامي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٨م.
- ديوان أمية بن أبي الصلت، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عبدالحفيظ السطلي، المطبعة التعاونية بدمشق.
- ديوان جعفر الخطي: دراسة وتحقيق الدكتورة أنيسة أحمد خليل المنصور والدكتور عبدالجليل منصور العريض، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠٠٢م.
- ديوان حاتم الطائي، دراسة وتحقيق الدكتور عادل سليمان جمال، مطبعة المدني - القاهرة.
- ديوان حسان بن ثابت، دار صادر - بيروت.
- ديوان حميد بن ثور الهلالي، جمع وتحقيق الدكتور محمد شفيق البيطار، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، السلسلة التراثية (٢٣)، الطبعة الأولى، الكويت ٢٠٠٢م.
- ديوان ذي الرمة شرح الإمام أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي، حققه الدكتور عبدالقدوس أبو صالح، دمشق، مطبعة طربين ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م.

- ديوان صالح الشرنوبي، تحقيق الدكتور عبدالحي دياب، دار الكاتب العربي بالقاهرة.
- ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر - بيروت ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.
- ديوان عرقلة الكلبي، تحقيق أحمد الجندي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
- ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة.
- ديوان مع الله، للأميري، مطبعة الأصيل بحلب ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م.
- ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا، لشهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، تحقيق الدكتور عبدالفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.
- زاد المسافر لأبي بحر صفوان التجيبي، إعداد عبدالقادر محداد، نشر دار الرائد العربي - بيروت ١٩٧٥م.
- سلافة العصر، لابن معصوم.
- شرح اختيارات المفضل، صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
- شرح القصائد العشر، صنعة الخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ.
- شرح ديوان ابن الفارض، جمع رشيد بن غالب اللبناني، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- شرح ديوان ابن المقرب العيوني، تحقيق الدكتور أحمد موسى الخطيب، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠٠٢م.
- شرح ديوان البرعي - مكتبة المعارف، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - الطبعة الثالثة.
- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى.
- شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الأندلس .
- شرح ديوان كعب بن زهير لأبي سعيد السكري، مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الأولى١٣٦٩هـ.

- شرح أشعار الهذليين للسكري، حققه عبدالستار أحمد فراج، مكتبة خياط - بيروت.
- شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي، جمع عبدالعزيز الزير ومحمد الأطرم، الرياض ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- شعر المتوكل الليثي، جمع الدكتور يحيى الجبوري، مكتبة الأندلس - بغداد.
- شعر النعمان بن بشير الأنصاري، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، مطبعة المعارف، بغداد - الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م.
- شعر خداش بن زهير، تحقيق الدكتور رضوان النجار، مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الثالث عشر.
- شعر دعبل الخزاعي، صنعة الدكتور عبدالكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.
- شعر طيء وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق ودراسة الدكتورة وفاء فهمي السنديوني، دار العلوم للطباعة والنشر بالرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- شعر عدي بن زيد، تحقيق وجمع محمد جبار المعيبد، دار الجمهورية للنشر- بغداد ١٩٦٥م.
- شعر عروة بن أذينة، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، مكتبة الأندلس، بغداد.
- شعر قبيلة أسد وأخبارها في الجاهلية والإسلام، جمع وتحقيق الدكتورة وفاء فهمي السنديوني، نشر جامعة الملك سعود بالرياض ١٤٢١هـ.
- شعر قيس بن ذريح، جمع وتحقيق الدكتور حسين نصار - مكتبة مصر.
- شعر كنانة من الجاهلية إلى آخر العصر الأموي، دراسة وجمع فهد بن صالح الجريوع، رسالة ماجستير عام ١٤١٦هـ بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- شعر مروان بن أبي حفصة، جمعه وحققه الدكتور حسين عطوان، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
- شعر نصيب بن رباح، جمع وتقديم الدكتور داود سلوم، مكتبة الأندلس - بغداد ١٩٦٧م.
- شعراء بني قشير في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي، تحقيق وجمع الدكتور عبدالعزيز الفيصل، طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- شعراء عبدالقيس في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عبدالحميد المعيني، نشر مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠٠٢م.

- صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية استانبول، تركيا.
- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العلمية.
- طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني.
- العفو والاعتذار، لأبي الحسن محمد بن عمر الرقام، حققه الدكتور عبدالقدوس أبو صالح، طبع إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤١٠هـ / ١٩٨١م
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، لتقي الدين الفاسي، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت.
- العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي تصحيح أحمد أمين وآخرين، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٣٧٥هـ.
- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تأليف عزالدين عبدالعزيز بن عمر الهاشمي القرشي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- فتوح البلدان، للبلاذري أحمد بن يحيى، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م.
- فرائد الخرائد في الأمثال لأبي يعقوب يوسف بن طاهر الخويي، تحقيق الدكتور عبدالرزاق حسين، طبع دار النفائس، عمان - الأردن.
- قصائد جاهلية نادرة، جمع الدكتور يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، للفتح بن خاقان، تحقيق الدكتور يوسف خريوش، مكتبة المنار، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .
- كتاب نسب قريش، لأبي عبدالله الزبيري، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٥٣م.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت.
- مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن لابن الجوزي، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، دار الراية، الرياض ١٤١٥هـ.
- مجلة المنهل تصدر في جدة في المملكة العربية السعودية.
- مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، دار السعادة.

- المجموعة الشعرية الكاملة لمحمد بن أحمد العقيلي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ /١٩٩٢م.
- المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، جمعها الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- المحمدون من الشعراء وأشعارهم لجمال الدين القفطي، تحقيق رياض عبدالحميد مراد، مطبعة الحجاز بدمشق ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.
- مروج الذهب للمسعودي، دار الأندلس، بيروت.
- المستدرك في شعر بني عامر من الجاهلية حتى آخر العصر الأموي، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عبدالرحمن محمد الوصيفي، إصدار نادي المدينة المنورة الأدبي.
- المستظرف في كل فن مستطرف للإبشيهي، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- مسند أحمد بن حنبل، المكتب التجاري - بيروت ١٩٦٩م.
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، للفتح بن خاقان، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- مع ابن جبير في رحلته، تأليف عبدالقدوس الأنصاري، المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت..
- معجم الأماكن الواردة في المعلقات العشر، تأليف سعد بن عبدالله الجنيدل، طبع إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١١هـ /١٩٩٠م.
- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار بيروت للطباعة والنشر.
- معجم ما استعجم لأبي عبيدالله البكري، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٥م.
- مكة في عصر ما قبل الإسلام، للسيد أحمد أبو الفضل عوض الله، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم - تأليف الدكتور أحمد إبراهيم الشريف - دار الفكر العربي - القاهرة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.
- مكتي قبلتي، منشورات دار الرفاعي، السلسلة الشعرية (٧) الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.
- المعارف لابن قتيبة، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

- المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر.
- المقتطف من أزاهر الطرف، لابن سعيد الأندلسي، تقديم ودراسة الدكتور سيد حنفي حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م
- المقدمة لابن خلدون، دار الكتاب اللبناني – بيروت ١٩٧٩م.
- الملك عبدالعزيز في عيون شعراء الشام، تأليف خالد بن محمد الخنين، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.
- الملك عبدالعزيز في عيون شعراء صحيفة أم القرى، جمع إسماعيل حسين أبو زعنونة، دارة الملك عبدالعزيز ١٤٩١هـ.
- الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر، تأليف عبدالقدوس الأنصاري، دار العمير للثقافة والنشر، جدة الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- المنتخب والمختار في النوادر والأشعار لجمال الدين ابن منظور، تحقيق الدكتور عبدالرزاق حسين – دار عمار، عمان – الأردن ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.
- من المديح النبوي في العصر المملوكي – تأليف غازي شبيب – المكتبة العصرية صيدا ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- الموشح لأبي عبدالله المرزباني، تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر ١٩٦٥م.
- موقع عكاظ لعبدالوهاب عزام، دار المعارف بمصر ١٩٥٠م.
- النبوغ المغربي في الأدب العربي، تأليف عبدالله كنون.
- نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين، تأليف عاتق بن غيث البلادي.
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لابن سعيد الأندلسي، تحقيق الدكتور نصرت عبدالرحمن، مكتبة الأقصى – عمان – الأردن ١٩٨٢م.
- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر – بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
- نفحة الريحانة للمحبي.
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، طبع دار المعرفة، بيروت.
- هديل الحمام في تاريخ البلد الحرام – تأليف عاتق بن غيث البلادي، دار مكة للنشر والتوزيع ١٤١٦هـ.

****

فهرس الأعلام

(أ)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

****

فهرس الأماكن

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

****

المحتوى

القسم الرابع: الخصائص والسمات الفنية

القسم الخامس: من شعراء العشق المكي

****

